

من نور القرآن

تفسير موضوعي يقتبس من القرآن الكريم والسنة الشريفة
ما يلقي ضوءاً على قضايا عقائدية أو أخلاقية
أو فكرية أو اجتماعية

الجزء الأول

سماحة المرجع الديني

الشيخ محمد اليعقوبي

دار الصادقين
للطباعة والنشر والتوزيع
النجف الاشرف / شارع الرسول ﷺ
٠٧٨٠٨٢٨٩٣٦٤
الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٦ م



(من نور القرآن) مقدمة وتعريف

تفسير موضوعي بمعنى أنه لا يتناول الآيات بحسب ترتيب وجودها في المصحف الشريف وانما بحسب الموضوع الذي تتناوله الآية، وتؤخذ معها الآيات التي تشترك معها في الموضوع لتشكل منظومة منسجمة مع بعضها وتنتج رؤية متكاملة عن ذلك الموضوع، أو القضية التي تلقي الآية الكريمة ضوءاً عليها. وبناءً على هذا المنهج يكون المصدر الرئيسي لتفسير الآيات الكريمة وفهم مدلولاتها هو القرآن نفسه من خلال ضم الآيات التي تشترك في وحدة القضية الى بعضها فتكتمل صورة المعنى بالبيان القرآني، فقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل : ٨٩] فيكون أول ما يبين نفسه، وبلاستعانة بالأحاديث الشريفة؛ لأن وظيفة المعصومين عليهم السلام هي بيان المراد من القرآن الكريم ونشر علومه ومعارفه ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل : ٤٤].

ولأن غرضنا هو تفعيل دور القرآن الكريم في الحياة وإخراجه من عزله وإعطائه حقه في قيادة البشرية وإلهامه الحلول والمعالجات لكل مشاكلها، فإننا لا نقف عند تفسير ألفاظ الآية وشرح عباراتها ومفرداتها، وانما يهمنا أن نستلهم الدروس المستفادة منها؛ ولذا كان المعيار في اختيار الآيات هو أن تؤدي الى هذا الغرض وتشترك فيه وإن كانت ذات طبيعة عقائدية أو أخلاقية أو فكرية أو اجتماعية أو سياسية وغير ذلك، فتبدأ عملية التفسير من تشخيص الداء والمشكلة التي يُراد معالجتها بالقرآن أو الجرعة العقائدية أو الأخلاقية أو الفكرية التي يراد

اعطاؤها، أو النقص الذي يراد اكماله في ثقافة الأمة ونحو ذلك، ثم نهرع الى القرآن الكريم ونلجأ اليه فنستنطقه ونستثير علومه ومعارفه لنلتمس منه الحل والعلاج ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣].

وقد تكون العملية بالعكس بأن ينقذح من الآية الكريمة نور يضيء طريقاً لصلاح الأمة وسعادتها فنقتبس من ذلك النور ما يزيل بعض الظلمات التي تتخبط فيها البشرية؛ فنشرح الآية أولاً ثم نطبقها على المطلوب أو نبين الدروس المستفادة منها، وقد نكرّس الحديث لتطبيقات الآية لوضوح معنى الآية في نفسها. ولأن (القبس) - لغة - هو المتناول من الشعلة والنار بعود ونحوه وليس كل النار فإننا نعتزف أن ما في هذا التفسير هو ما استطاعت عقولنا فهمه وادراكه بلطف الله تعالى من نور القرآن اللامتناهي ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان : ٢٧].

وعلى منهج القرآن من جعل التوحيد وما يتفرع عنه من العقائد محور الحياة كلها، فحينما يتعرض لأحكام شرعية أو يتناول أحداث معركة أو يعالج مشكلة اقتصادية أو اجتماعية فإنه يربطها بالعقيدة، والذي لا يفقه هذا المنهج القرآني يراها غريبة عن السياق.

وعلى هذا المنهج سرنا في الأحاديث والخطب فامتزجت فيها العقيدة والأخلاق بالسياسة والاقتصاد والادارة والاجتماع والفكر والثقافة.

ومن يتابع هذه الأقباس لا يجدها على نمط واحد لأن ظروفها ودواعيها مختلفة ولم تكتب كلها كتفسير وكان الكثير منها تقريراً لكلمات ارتجالية

تقتضيها المناسبة أو طبيعة الحاضرين، وما ألقى منها في مناسبات -كالعيد أو ذكريات المعصومين عليه السلام - لم نحذف منها ما يتعلق بالمناسبة لتكون هذه المعارف القرآنية مادة لإحياء المناسبات وتكون بنفس الوقت تطبيقاً للآية.

ولطول مخالطتي مع القرآن الكريم بفضل الله تعالى وكرمه فقد استفدت من طريقته في إصلاح الفرد والمجتمع وقد لخصتها في القبس المخصص عن شكوى القرآن؛ ولذا اتصفت هذه المحاضرات القرآنية بشيء من تلك المميزات. وكان للتفكير الاجتهادي وطول الممارسة في الاستنباط الفقهي المعتمد أصلاً على الكتاب والسنة أثر بالغ في استكشاف مكنونات الآيات الكريمة بالمقدار الذي تسعه أوعية عقولنا وقلوبنا المحدودة ﴿فَسَأَلْتُ أَوْدِيَةً بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد : ١٧]، وربما فهمنا من الآية عدّة وجوه ومستويات غير ملتفت إليها ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة : ٤].

محمد اليعقوبي - النجف الاشرف

شهر رمضان المبارك / ١٤٣٧ - حزيران / ٢٠١٦

القبس القرآني

١

(واتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ) ^(١) [الأعراف: ١٥٧]

القرآن نور

القرآن نور:

لقد وصف القرآن الكريم نفسه بأوصاف كثيرة ^(٢) منها انه (نور) قال تعالى (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) (المائدة ١٥)، وقال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا) (النساء ١٧٤)، وقال تعالى (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف ١٥٧)، (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى ٥٢).

وقد ورد في الاحاديث الشريفة مثل ذلك، عن رسول الله ﷺ قال (إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين) وعنه ﷺ قال (عليك بتلاوة القرآن، فانه نور لك في الارض وذخر لك في السماء) وقال أمير المؤمنين عليه السلام في القرآن (واستشفوا

(١) حديث سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) مع أساتذة وطلبة دار القرآن الكريم في بدرة وجصان ومركز الإمام المهدي عليه السلام في الكوت وجمع من زوار الشعبانية المباركة يوم الخميس ١٣/شعبان/١٤٣٥ المصادف ٢٠١٤/٦/١٢.

(٢) راجع كتاب (شكوى القرآن) للتعرف عليها.

بنوره فانه شفاء الصدور^(١) ومن دعاء الإمام السجاد عليه السلام عند ختم القرآن (وجعلته نوراً نهتدي من ظلم الضلالة والجهالة باتباعه)^(٢).

القرآن ينير طريق الهداية:

ويُعرّف النور في معاجم اللغة بانه ما كان ظاهراً بنفسه ومُظهر للأشياء الأخرى فإن العين لا ترى ولا تكتشف ما حولها إلا إذا سقط عليها الضوء وانتقل الى العين، وهذا هو دور القرآن الكريم فإنه ينير طريق الهداية والايمان والصالح والسعادة (أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) (الأنعام ١٢٢)، فمن اهتدى بنوره كان من المفلحين كما في سورة الاعراف المتقدمة، لأن فيه مصابيح النور، عن الامام الحسن عليه السلام قال (إن هذا القرآن فيه مصابيح النور).

وهذا وصف طبعي للقرآن لأنه يتضمن بيان كل ما يقرب الى الله تعالى من الطاعات التي هي كالمصابيح التي تولد النور، قال تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء ٩) وأشرف تلك المصابيح واشدها ضياءً رسول الله صلى الله عليه وآله قال تعالى (وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) (الأحزاب ٤٦).

نور الولاية:

وولاية امير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام واتباعهم نور، ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] في الكافي عن ابي

(١) تجد هذه الروايات ومصادرها في ميزان الحكمة: ١٧٧/٩-١٨٤.

(٢) الصحيفة السجادية: ١١٥.

عبد الله عليه السلام قال: (النور في هذا الموضع امير المؤمنين والائمة عليه السلام) ^(١) ومثله في تفسير علي ابن ابراهيم والعايشي عن الامام الباقر عليه السلام مثله.

وفي موضع اخر عن الامام الباقر عليه السلام قال (فالذين امنوا به) يعني بالامام (وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون) يعني الذين اجتنبوا الجبت والطاغوت فلان وفلان وفلان، والعبادة: طاعة الناس له ^(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام (إنما مثلي بنكم كمثل السراج في الظلمة يستضيئ به من ولجها).

نور التقوى:

والتقوى نور قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الحديد ٢٨).

وبصورة عامة فان الدين والرسالة السماوية بما تضمنت من عقائد واحكام واخلاق هي مصدر النور، قال تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف : ٨] وعن امير المؤمنين عليه السلام قال (الدين نور) ^(٣).

أنوار العبادات والطاعات:

وقد ورد في روايات ذكر بعض تلك المصاييح كأداء الصلاة المفروضة

(١) الكافي : ١/١٥٠/ح ٢.

(٢) الكافي : ١/٣٥٥/ح ٨٣.

(٣) غرر الحكم : ٢١٣.

خصوصاً في أوقات فضيلتها، عن النبي ﷺ قال: (الصلاة نور)، ومناسك الحج نور قال ﷺ (إذا رميت الجمار كان لك نوراً يوم القيامة)، وكل عمل فيه اعزاز الدين ونصره نور، قال ﷺ (من رمى بسهم في سبيل الله كان له نوراً يوم القيامة)، ومن اجتنب ظلم الآخرين بكل أشكال الظلم والتجاوز والتعدي أعطاه الله نوراً، قال ﷺ (لا تظلم أحداً تُحشر يوم القيامة في النور)، وصلاة الليل وسائر الطاعات والعبادات عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي ﷺ: صلاة الليل نور)، ومما يوجب النور تجديد الطهور في غير أوقات الصلاة، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (الوضوء على الوضوء نورٌ على نور)^(١)، واستنقاذ حقوق الآخرين نور عن النبي ﷺ قال (من شهد شهادة ليحيي بها حق امرئ مسلم اتى يوم القيامة ولوجهه نور مدّ النضر يعرفه الخلق باسمه ونسبه) ومما يوجب النور الشيب في طاعة الله تعالى، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (ما رأيت شيئاً أسرع إلى شيء من الشيب إلى المؤمن، وإنه وقارٌ للمؤمن في الدنيا، ونورٌ ساطعٌ يوم القيامة)^(٢) وهكذا.

الحذر من وادي الذنوب وقطاع الطريق المعنوي:

إن الانسان في هذه الدنيا لابد ان يكون له منهج يسير عليه وغاية يسعى لتحقيقها، وإنما يحصد النتائج بحسب نوع المنهج ورأسه والمخطط له، قال أمير المؤمنين عليه السلام (الا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه)

(١) وسائل الشيعة: ٢٦٥/١ ح ٨

(٢) أمالي الطوسي: ٦٩٩، ح ١٤٩٢.

ولأن في القرآن مصاييح النور، ولا يستطيع الانسان أن يتقدم إلا بضياء ينير له الدرب وإلا كان كمن يسافر في الصحراء في ليلة مظلمة بلا دليل فيكون معرضاً لعدة أخطار: حيوانات مفترسة تمزقه، أو لصوص وقطّاع طرق يقتلونه ويسلبونه، أو آبار وأودية يهوي فيها، أو يضل الطريق ويتيه وينفذ ما عنده من ماء وطعام، وهذه هي الأخطار التي يواجهها من لا نور معه في حياته المعنوية فتفترسه الذئاب البشرية وقطّاع الطرق ليسرقوا دينه وإنسانيته فيهوي في وادي الذنوب السحيق ويحرم من الزاد ليوم المعاد وهو التقوى.

عليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع:

وقد دل الله تعالى على النور الذي يهدي به الانسان في حياته ويميز به الصواب في سائر اموره وما احوج الانسان الى مثله لينقذه من التخطب والضياح والمزالق، وذلك بالتقوى قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد : ٢٨]، وما الذي يهدي الى التقوى ويحصلها انه القران الكريم قال تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ٢]، لذا أمرنا باتخاذ القرآن إماماً وقائداً وهادياً، فمن اراد أن يكون له فرقان في الدنيا يميز به بين الحق والباطل وينير بصيرته ويأخذ بيده على الصراط المستقيم فليجعل القرآن إماماً له وقائداً يقتبس من نور مصابحه قال النبي ﷺ (فاذا التبت الامور عليكم كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، وما حل مصدق، ومن جعله أمامه

قاده الى الجنة، ومن جعله خلفه قاده الى النار^(١) وإنما يجعله أمامه باتباعه والعمل بما فيه والاستضاءة بنوره، ويجعله خلفه باستدباره والاعراض عما فيه وعدم الاعتناء بأوامره ونواهيه.

وقال ﷺ (عليكم بالقرآن فاتخذوه إماماً وقائداً) وقال أمير المؤمنين عليه السلام في صفة القرآن (ونوراً ليس معه ظلمة).

تجلي الأنوار الإلهية:

وقد يتجلي هذا النور الباطني المعنوي الذي يهدي البصائر من خلال نور ظاهري تكتشفه الحواس وتهتدي به، سئل الامام زين العابدين عليه السلام مابال المتهجدين بالليل من احسن الناس وجهاً؟ قال عليه السلام (لأنهم خلوا بالله فكساهم الله من نوره)^(٢).

وروى صاحب مفاتيح الجنان عن امير المؤمنين عليه السلام حادثة مباغته جيش المشركين لسرية المسلمين في الليل وهم نيام فلم يتبين المسلمون الامر حتى يعرفوا ما يفعلون وكاد العدو يستأصلهم واذا بأضواء تسطع من افواه اربعة منهم كانوا يحيون الليل بالعبادة وتلاوة القرآن تضيئ معسكر المسلمين فتمدهم بالقوة والشجاعة وواجهوا المشركين وقتلوهم فلما رجعوا قصوا على النبي (صل الله عليه واله وسلم) ما وقع . قال (صل الله عليه واله وسلم) (ان هذه الانوار قد كانت لما

(١) راجع المصادر في ميزان الحكمة: ٢٣٧/٧ - ٢٤٠.

(٢) علل الشرائع: ٣٦٦ / ح ١.

عمله اخوانكم هؤلاء من اعمال في غرة شعبان^(١).

تنوروا بالقرآن ليكون معينا لكم يوم فقركم:

هذا النور الذي تقتبسه في الدنيا ستكون أحوج شيء اليه في حياة ما بعد الدنيا إلى القيامة ففي القبر حيث الوحشة والظلمة سينير القرآن لأهله، من دعاء الإمام السجاد عليه السلام (ونور به قبل البعث سُدَفَ قبورنا، ونجنا به من كل كرب يوم القيامة وشدائد أهوال الطامة)، وما أحوجنا إلى النور في يوم القيامة ليضيء لك طريق النجاة وتتوقى مزالق الهلكة، قال تعالى في وصف أحوال يوم القيامة (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ) (الحديد ١٢-١٣)، وورد عن النبي صلى الله عليه وآله في تفسير الآية قال (ثم يقول - يعني الرب تبارك وتعالى - ارفعوا رؤوسكم، فيرفعون رؤوسهم فيعطيه نورهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يُعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه، ومنهم من يُعطى نوره اصغر من ذلك، ومنهم من يُعطى نوره مثل النخلة بيده، ومنهم من يُعطى أصغر من ذلك، حتى يكون آخرهم رجلاً يُعطى نوره على إبهام قدميه يضيء مرة ويطفأ مرة).

فليهيئ الإنسان في هذه الدنيا أكثر ما يستطيع من مصابيح النور^(١) ليوم

(١) مفاتيح الجنان: ٢٩٦ اعمال اليوم الاول من شعبان.

القيامة بما يكتسبه من الطاعات ويجتنبه من المعاصي، إلهي هَبْ لي كَمَالَ
الْأَنْقِطَاعِ إِلَيْكَ وَأَنْزِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارَ الْقُلُوبِ
حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعِظَمَةِ وَتَصِيرَ أَرْوَاحُنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ^(٢).

(١) راجع القبس الذي عنوانه (ونحشره يوم القيامة أعمى) في هذا المجلد للتعرف على المزيد من موجبات النور.

(٢) مفاتيح الجنان: ٢٩٦ من المناجاة الشعبانية لأمر المؤمنين عليه السلام. الكلمة التي ألقاها سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) على طلبه بحثه الشريف يوم الاثنين ١٩ رجب ١٤٣٥ المصادف ٢٠١٤/٥/١٩ بمناسبة انتهاء السنة الدراسية وحلول العطلة الصيفية.

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)^(١)

[طه : ١١٤]

أدب طلب العلم:

قال النبي ﷺ: (أدبني ربي فاحسن تأديبي)^(٢) ومما أدب الله تعالى به نبيه ﷺ قوله تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه : ١١٤] وقد اخذ النبي ﷺ بهذا الادب وسائر الآداب الربانية فكان يطلب الزيادة في العلم باستمرار ويدعو (اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما والحمد لله على كل حال)^(٣) حتى روي عنه قوله ﷺ: (إذا أتى عليَّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني الى الله فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم)^(٤).

التأسي بطلب العلم:

وإذا كان النبي ﷺ في مقامه السامي يطلب الزيادة باستمرار فنحن أولى، مضافاً الى أننا مأمورون بالتأسي بالنبي ﷺ وهذا الادب الشريف منه، فالازدياد

(١) الكلمة التي ألقاها سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) على طلبة بحثه الشريف يوم الاثنين ١٩ رجب ١٤٣٥ المصادف ٢٠١٤/٥/١٩ بمناسبة انتهاء السنة الدراسية وحلول العطلة الصيفية.

(٢) الكافي : ١/ ٢٦٦ ح ٤.

(٣) الدر المنثور : ٣٠٩/٤.

(٤) ميزان الحكمة : ١٤٥/٦ عن كنز العمال ٢٨٦٨٧.

مطلوب في كل زمان وفي كل مكان حيث يوجد علم نافع، ويبقى الانسان طالب علم وإن حاز على أعلى الألقاب العلمية ولا معنى للتخرج وإنهاء الدراسة أو التعطيل إلا بالتحول من مجال الى مجال انفع منه، وإلا حُرْمنا من البركة التي أشار إليها النبي ﷺ في حديثه المتقدم؟.

في قوله تعالى: وقل رب

وأول ما يستوقفنا في هذا الأدب الإلهي استعمال لفظ الرب في الدعاء من دون الأسماء الحسنى الأخرى، ولفظ الربوبية الدال على التربية والاعتناء بإنشاء الشيء وصناعته ورعاية صلاحه حالاً بعد حال إلى أن يبلغ تمامه، لإلفات نظر الداعي إلى هذه العلاقة الحميمة والعناية الخاصة التي يوليها الله تعالى لعبده، ولاستدرار الرحمة والشفقة الإلهية الخاصة.

في معنى أن الآية لسانها الدعاء:

والدعاء الذي ورد في الآية الكريمة، وكلّ دعاء ليس مجرد كلمات تُحرّك بها اللسان وإنما يعبر عن أهداف وطموحات وغايات يريد الانسان ان يصل اليها ويحققها بلطف الله تعالى وتوفيقه فعليه ان يهيئ المقدمات ويتخذ الاسباب الموصلة الى الغاية، فعندما يطلب الانسان الزيادة المستمرة في العلم عليه ان يسعى لتحصيل هذا العلم من مصادره من خلال المطالعة والاستماع الى كل معلومة نافعة ومن خلال التلقي ممن عنده هذا العلم والاستفادة منه كما هو شأن الجامعات والمعاهد والمدارس والحوزات العلمية وامثالها.

لا تغفلوا عن العلم الغيبي:

وهذه هي المصادر البشرية للزيادة من العلم أي العلم المكتسب من الآخرين، ونغفل عن المصادر الغيبية أو الالهية للازدياد من العلم وهي مصادر أوسع وأثبت وأعمق وأكثر تأثيراً والذي سنسمع وصف النبي ﷺ له بأنه لا جهل معه، كمن يريد ان يسقي أرضه الزراعية فتارةً يفتح لها قناة تأتيه بالماء من النهر مع ما يحمل في طريقها من الأوساخ والأوبئة، وأخرى يفجر من الارض ينبوعاً صافياً نقياً، فكذلك القنوات التي تغذي العقل والقلب بماء العلم والمعرفة فإنها تارة تؤخذ من الآخرين، وتارة تتفجر من باطن الانسان، وقد فُسر قوله تعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس : ٢٤] بالعلم ممن يأخذه لأن العلم غذاء الروح، ففي الكافي عن زيد الشحام عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ عبس ٢٤ قلت: ما طعامه، قال عليه السلام: علمه الذي يأخذه عمّن يأخذه^(١).

مصادر العلم الغيبي:

ومن هذه المصادر :

١- التقوى: قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢] فالتعليم الالهي يتعقب التقوى وهو العلم اللدني الذي ورد في قوله تعالى ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف : ٦٥] وعن النبي

(١) الكافي: ١/٣٩/ح ٨.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لو خفتم الله حق خيفته لَعَلَّمْتُمُ الْعِلْمَ الَّذِي لَا جَهْلَ مَعَهُ) ^(١) وهو العلم اللدني.

قال الشاعر :

شكوتُ الى وكيع سوء حظي فأرشدني الى ترك المعاصي
وعَلَّله بأن العلم نورٌ ونور الله لا يؤتى لعاصي
وكلما ازداد الانسان تقوى وابتعاداً عما يُسخط الله تعالى وعملاً بما يرضيه
كان أكثر انفتاحاً على الاسباب الالهية وكانت مرآته أصفى وأنقى فتنعكس فيها
حقائق العلوم حتى تبلغ الذروة عند المعصومين عليهم السلام ، عن الامام الصادق عليه السلام
(قال: ما من ليلة جمعة إلا ولأولياء الله فيها سرور قلت: كيف ذلك؟ جعلت فداك
قال: إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العرش ووافى الائمة عليهم السلام ووافيت
معهم فما أرجع إلا بعلم مستفاد ولولا ذلك لنفد ما عندي) ^(٢) وسئل الامام الصادق عليه السلام
(إنا نسئلك أحياناً فتسرع في الجواب وأحياناً تطرق ثم تجيبنا ؟ قال : نعم انه
ينكت في أذاننا وقلوبنا فاذا نكت نطقنا وإذا امسك عنا أمسكنا) ^(٣) وهذا المصدر
هو الذي يفسر الظاهرة الغريبة التي بدأت مع الامام الجواد عليه السلام وولده الإمام
الهادي عليه السلام بقيامهما بأعباء الامامة وقيادة الأمة ومناظرة العلماء في مختلف
الفنون وهما صبيان في الثامنة من العمر وعجز الاخرون عن
تفسيرها لعدم إيمانهم بالعقائد الحقّة.

(١) ميزان الحكمة : ٢٠٣/٦ عن كنز العمال ٥٨٨١.

(٢) اصول الكافي : ج ١ كتاب الحجّة، باب في أن الائمة عليهم السلام يزدادون في ليلة الجمعة، ح ٣.

(٣) الفرقان في تفسير القرآن : ٩١/١٩ عن بصائر الدرجات.

٢- من خلال العمل به، فإن العمل بما تعلم وتطبيقه ينتج علماً جديداً عن رسول الله ﷺ قال (من تعلّم فعمل علّمه الله ما لم يعلم)^(١) فهذه إذن زيادة في العلم حصل عليها من خلال العمل بما علّم، وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال (ما زكا العلم بمثل العمل به)^(٢) وعن الإمام الباقر عليه السلام (من عمل بما يعلم علّمه الله ما لا يعلم)^(٣) وعن الإمام الصادق عليه السلام (العمل مقرون الى العمل، فمن علم عمل، ومن عمل علم)^(٤).

وهكذا تستمر جدلية التأثير والترابط بين العلم والعمل، زيادة ونقصاً، فمن عمل بالعلم ازداد، ومن لم يعمل بعلمه يفقده، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (مَنْ عَمِلَ عَمَلٍ وَالْعِلْمُ يَهْتَفُ بِالْعَمَلِ فَإِنَّ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ)^(٥).

وهذه الحقيقة جارية في كل المجالات فمن اكتسب معلومة اخلاقية وعمل بها سيوفق الى درجة أعلى، ومن استفاد نظرية علمية اكايدمية ثم اجرى تجارب ومحاولات عليها فانه سيتوصل الى نتائج ومعلومات جديدة، حتى على مستوى الطالب الذي يطالع دروسه فانه عندما يلخص ويستذكر ويخطط ويرسم او يحلّ المسائل الرياضية بيده يحصل على معلومات لا يحصل عليها من يكتفي بمطالعة الكتاب .

(١) ميزان الحكمة: ٦/ ٢٠٢ عن كنز العمال ح ٢٨٦٦١.

(٢) غرر الحكم: ٩٥٦٩.

(٣) اعلام الدين: ٣٠١.

(٤) منية المريد: ١٨١.

(٥) نهج البلاغة: ٣٦٦.

٣- ومن خلال إنفاقه اي نشره وتعليمه من لا يعلمه بأي وسيلة للنشر التي اتسعت اليوم وأصبح بإمكان الشخص أن يخاطب الآخرين في العالم كله، من وصية أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد وهو يقارن بين المال والعلم قال عليه السلام (وَالْمَالُ تَنْقِصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ) ^(١) والتجارب اثبتت ايضا صحة هذا المسلك فأن من يتصدى للتدريس وتعليم الآخرين وينشر ما عنده من العلم فانه يشعر بزيادة في العلم لم يحصلها من احد، عن الامام الحسن عليه السلام قال (عَلَّمَ النَّاسَ، وَتَعَلَّمَ عِلْمَ غَيْرِكَ، فَتَكُونُ قَدْ اَتَقَنْتَ عِلْمَكَ، وَعَلِمْتَ مَا لَمْ تَعْلَمْ) ^(٢) هذا غير الثواب الكثير لمن علّم الناس شيئا ينتفعون به ولو كان حديثاً شريفاً أو مسألة شرعية أو عملاً صالحاً أو... وقد وردت في ذلك روايات كثيرة نكتفي بواحدة منها عن رسول الله صلى الله عليه وآله (يجيء الرجل يوم القيامة وله من الحسنات كالسحاب الركام أو كالجبال الرواسي، فيقول: يا ربّ أنى لي هذا ولم أعملها؟ فيقول: هذا علمك الذي علّمته الناس، يُعمل به من بعدك) ^(٣).

وقد جُمع هذان المصدران للمعرفة في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عن ابيه عليه السلام قال: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله ما العلم؟ قال: الانصات، قال: ثم مه؟ قال: الاستماع له، قال: ثم مه؟ قال: الحفظ له، قال: ثم مه؟ قال: العمل به، قال: ثم مه؟ قال: ثم نشره) ^(٤).

(١) نهج البلاغة: ١٤٧.

(٢) كشف الغمة: ح ١٩٧/٢.

(٣) بحار الانوار: ١٨/٢ ح ٤٤.

(٤) الفرقان: ١٩ / ٩١ عن الخصال.

فهذه هي مراحل تحصيل العلم وازدياده: الإنصات للمعلومة والإصغاء اليها ووعيتها ثم حفظها واستيعابها ثم العمل على طبقها وتحويلها الى الواقع ثم نشرها وتعليمها للآخرين.

في معنى قوله تعالى: (زِدْنِي):

ويظهر من كلمة (زِدْنِي) وتعقب هذه الفقرة لقوله تعالى ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه : ١١٤] إن الحصول على هذا العلم تدريجي فكلما وصل الى مرتبة وحفظها وعمل بها أُعطيت له مرتبة جديدة فاذا حفظها وعمل بها أستحق الاعلى وهكذا ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف : ٧٦]، وهذه نتيجة صحيحة إذ ان العلم لا يهجم دفعة واحدة من غير توفر القدرة على تحمله، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (من زاد علمه على عقله كان وبالاً عليه)، وقال عليه السلام (كل علم لا يؤيده عقل مظلة)^(١).

في معنى قوله تعالى: (علما):

هذا بالنسبة لزيادة العلم، اما كلمة (علم) فنلاحظ فيها انها مطلقة فالزيادة

مطلوبة في كل علم ولا تختص بالعلوم الشرعية، نعم لابد من تقييدها بالعلم النافع في الدنيا او الآخرة اي فيه صلاح الناس كما ورد في الدعاء النبوي المتقدم وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال (خير العلوم ما اصلحك)^(٢) وعنه عليه السلام قال: (خيرُ

(١) غرر الحكم : ٨٦٠١ ، ٦٨٦٩.

(٢) غرر الحكم : ٤٩٦٣ / ٥٠٢٣.

الْعِلْمَ مَا أَصْلَحَتْ بِهِ رَشَادَكَ وَ شَرُّهُ مَا أَفْسَدَتْ بِهِ مَعَادَكَ) وعنه عليه السلام قال: (رب علم أدى الى مضلتك)^(١).

لذلك نجد في حياة الامام الصادق عليه السلام انه كما كان يدرّس العلوم والمعارف الدينية فانه كان يدرّس العلوم الطبيعية فتخرج على يديه جابر بن حيان في الكيمياء وله كتاب في الفلسفة يشرح فيه تشريح جسم الانسان ووظائف الاعضاء باسم توحيد المفضل وتوجد روايات في الحساب والفلك وغيرهما. ولأن العمر قصير لا يتيسر معه الاحاطة بكل العلوم فضلاً عن العمل بها لذا لابد من الاختصار على الافضل والاحسن والاكثر صلاحاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال (العلم أكثر من ان يُحصى، فخذ من كل شيء أحسنه)^(٢) وفي حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (خذوا من كل علم أحسنه، فان النحل يأكل من كل زهرة أزينة، فيتولد منه جوهران نفيسان: أحدهما فيه شفاء للناس، والاخر يستضاء به)^(٣). وأنفس العلوم وأشرفها وأهمّها المعارف الدينية من العقائد والأخلاق والأحكام لأنها أكثر التصاقاً بعلاقة الانسان بربه ودينه وما يضمن له السعادة في دنياه واخرته، من وصية الامام علي لولده الحسن عليه السلام (ورأيت ... ان ابتدأك بتعليم كتاب الله عز وجل وتأويله، وشرائع الاسلام واحكامه، وحلاله وحرامه، لا

(١) غرر الحكم: ٥٣٥٢.

(٢) ميزان الحكمة: ١٩٩/٦ عن كنز الفوائد ٣١/٢.

(٣) غرر الحكم: ٥٠٨٢ نهج البلاغة.

اجاوز ذلك بك الى غيره^(١).

الدعوة الى أن تكونوا من حملة العلم:

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام (عليكم بالتفقه في الدين، ولا تكونوا اعراباً فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يرك له عملاً) وعنه عليه السلام قال (لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا)^(٢).

فإذا نال قسطاً وافراً من العلم بالمقدار الذي يستطيع به إرشاد الناس وهدايتهم كان من أهل الحديث الشريف عن الامام الجواد عليه السلام (من تكفل بأيتام آل محمد صلوات الله عليهم المنقطعين عن امامهم المتحيرين في جهلهم الأسراء في أيدي شياطينهم وفي أيدي النواصب من أعدائنا فاستنقذهم منهم وأخرجهم من حيرتهم وقهر الشياطين برد وسأوسهم وقهر الناصبين بحجج ربهم ودليل أئمتهم ليُفضّلون عند الله تعالى على العباد بأفضل المواقع بأكثر من فضل السماء على الأرض والعرش والكرسي والحجب على السماء، وفضلهم على هذا العابد كفضل القمر ليلة البدر على أخفى كوكب في السماء)^(٣).

هذا الخير الذي لا يضاهيه خير في هذه الدنيا طالما دعانا الله تعالى اليه في كتابه، وحثنا عليه الأئمة المعصومون عليهم السلام، وتبعاً لذلك فقد طالبنا كل ذوي العقول النيرة والهمة العالية والشعور بالمسؤولية أن يرتبوا أوضاعهم ويهيئوا

(١) جواهر البحار: ج ٧٤ / كتاب الروضة / باب وصية أمير المؤمنين إلى الحسن بن علي (ع) وإلى محمد بن الحنفية عن نهج البلاغة.

(٢) أصول الكافي / ج ١، كتاب فضل العلم، باب ١ ح ٧، ٨.

(٣) بحار الانوار: ٦/٢ عن الاحتجاج وتفسير العسكري عليه السلام.

المقدمات للالتحاق بالحوزات العلمية الدينية ويحظون بهذه المقامات العالية .
وينبغي هنا الالتفات إلى حقيقة وهي أنه كلما ازداد اهتمام الله تعالى في كتابه والمعصومين عليهم السلام بشيء فهذا يعني أن مدخليته في التكامل والقرب من الله تعالى أقوى ، والاهتمام بتحصيل العلوم والمعارف الدينية بلغت الذروة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وأحاديث الأئمة عليهم السلام . بحيث تجاوزت المئات في كل منهما، فلا بد أن نفهم ونستوعب هذه الرسالة من الله تعالى ورسوله وأهل بيته الكرام عليهم السلام .

(إقرأ باسم ربك الذي خلق) [العلق : ١] لنكن أمة (إقرأ)

أمة القراءة:

بمناسبة البعثة النبوية الشريفة نريد أن نأخذ درساً من أول كلمة القاها الوحي على رسول الله ﷺ إيداناً بتحقيق الوعد الالهي للبشرية الضالة الجاهلة المتعبة أن ينقذهم بالرسالة الكاملة الخاتمة ويأخذ بهم في هذه النقلة الهائلة التي لا تُقاس بها النقلة من الأرض الى السماء، فمن حقنا أن نفخر نحن أمة الإسلام بأننا أمة القراءة وطلب العلم وأن أول كلمة نزلت على النبي ﷺ عند بعثه بالرسالة الإسلامية هي (إقرأ) أي الأمر بالقراءة، وإن معجزة الإسلام الخالدة (القرآن) هو كتاب مقروء وهو مصدر اشتق إسمه من القراءة.

النعمة الأولى:

وإن أول نعمة ذكر الله تعالى بها عباده ممتناً عليهم القراءة والتعليم (إقرأ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق ٣-٥)، فالإنسان خُلِقَ من علقَةٍ وهي قطعة الدم الجامدة ووُلِدَ صفحة بيضاء خالية من المعارف والعلوم عدا ما توجه به فطرته لكن الله تبارك وتعالى جهزه ووفر له ما يملأ به صحيفته من العلوم والمعارف مما لم يكن يعلمها من قبل وكلما حصل على معلومة تولد له إحساسٌ بجهله بجمع كبير من المعلومات، وهو تفسير كلمة

بعضهم (كلما ازددت علماً إزددت جهلاً).

في معنى: (علم بالقلم)

(عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) أي عَلَّمَ البشر الكتابة واستعمال القلم أو بمعنى أنه تعالى عَلَّمَهُمْ ما لا يعلمون بواسطة القلم والكتابة وهو ابرز حدث في تاريخ البشر ولولاه لما تكاملت الحضارات ولما انتقلت العلوم واستفادت الامم من إنجازات غيرها، ولا تستطيع أمة أن تتقدم وتبني حضارة إذا لم تُحسّن الاستفادة من الكتاب والقلم. وبلغ تعظيم القلم الى مستوى القسم به (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) (القلم/١).

في معنى: (علم الإنسان ما لم يعلم)

(عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (العلق / ٥) فالمصدر الاول للعلوم والمعارف هو الله تبارك وتعالى من خلال بعث الانبياء والرسل وانزال الشرائع السماوية والايعاء الى الانبياء والاولياء بما تحتاج اليه البشرية، وظلّت اللطاف الالهية مصدر الهام لكثير من المخترعين والمبدعين واصحاب النظريات الخلاقة كما اعترف جملة منهم بذلك، والتاريخ يشهد أن ازدهار العلوم وتدوينها وتعميقها شهد نقلة غير مسبوقة على يد المسلمين وأصبحت الكتابة والتعليم واسعة الانتشار ومتيسرة الحصول لجميع الناس بعد أن كانت مقتصرة على نخبة محددة، هذا في الامم المتمدنة كالروم والفرس، أما العرب في الجزيرة فكان الذين يعرفون الكتابة بعدد الأصابع تقريباً وكان الذي يعرف الكتابة وبعض الفعاليات الاخرى كالرمي يسمى بـ (الكامل).

الوصية بالعلم:

وظل هذا الاهتمام بالقراءة وطلب العلم والمعرفة توجيهاً دائماً في القرآن الكريم وقد أدب الله تعالى نبيه بذلك، قال الله تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) (طه / ١١٤) وفي الحديث النبوي الشريف (إذا أتى علي يوم لا أزداد فيه علماً - يقربني إلى الله - فلا بارك الله لي في طلوع شمس - شمس ذلك اليوم)^(١)، وكانت الفدية التي جعلها رسول الله ﷺ لأسرى المشركين في معركة بدر من الذين يعرفون الكتابة ان يعلم الواحد منهم عشرة من المسلمين مقابل اطلاق سراحه فانتشرت المعرفة بالكتابة لدى المسلمين بهذه المبادرة المباركة وفي اصول الكافي بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ قال: (تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فإن الحديث جلاء للقلوب، إن القلوب لترين السيف جلاؤها الحديث)^(٢).

صاحبوا المعرفة:

وفي حديث آخر قال عليه السلام: (قال رسول الله ﷺ: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، الا وإن الله يحب بغاة العلم)^(٣) وهذه الوصايا لا تحتاج الى مؤونة لتنفهم ملاكاتها ومصالحها فإن حياة الامم وسعادتها وتقدمها بالقراءة والتعلم، أما الامم الجاهلة المتخلفة فان ممارستها لا تفترق عن حياة الحيوانات قال تبارك وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

(١) مجمع البيان للطبرسي: المجلد الأول ص ٦.

(٢) اصول الكافي، كتاب العلم، باب سؤال العلم وتذاكره ح ٨.

(٣) اصول الكافي، كتاب العلم: باب فرض العلم: ح ٨/٧/٥.

يُخَيِّكُمُ) (الأنفال ٢٤).

ولا شك أن الثقافة والعلم من مقومات حياة الامم فالآية الكريمة تدعونا الى التجاوب مع كل مصدر يزودنا بهما.

فعلى كل شخص أن يقرأ ويصاحب الكتاب وكل مصادر المعرفة الأخرى ويتزود منها ليكون إنساناً بمعنى الإنسان الحقيقي لا الشكلي ويكون حياً فاعلاً في المجتمع، ولينسجم مع متطلبات الفطرة التي تنزع نحو الكمال، وليحظى برضى الله تبارك وتعالى ويتأسى برسوله ﷺ.

في الثقافة الموجهة لا العشوائية:

ومن وجهة نظري -بغض النظر عن التعريفات التي قيلت- فإن الثقافة هي منظومة الأفكار التي تجعل للإنسان رؤية فيما حوله ولا يكون إمعة من غناء الناس ينقع مع كل ناعق ويسيره السلوك الجمعي بلا رؤية وتأمل فيما يفعل، وفي الآية الكريمة إشارة الى ذلك (إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) أي أن الامر بالقراءة ليس عشوائياً وبلا هدف وبلا محدّدات بل تقرأ باسم ربك ومن أجل ربك وضمن ما خطّط له ربك الذي خلقك فيجب عليك ان تسير بهداه جاعلاً أمامك الغرض الذي خلقك الله تعالى من أجله واستخلفك في الأرض لتحقيقه وهو إعمار الحياة بكل خير وعطاء نافع واستثمار كل الأدوات والظروف التي هيأها الله تعالى لتوفير السعادة والصلاح للبشر (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود / ٦١).

تفقهوا في الدين:

فالدعوة الى القراءة لا تختص بالمعارف الدينية بمختلف فروعها وإن

كانت منها بل هي من أساسياتها، في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (عليكم بالتفقه في دين الله، ولا تكونوا أعراباً فإنه من لم يتفقه في دين الله لم ينظر الله إليه يوم القيامة ولم يترك له عملاً^(١)) وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله أف لرجل -وفي رواية لكل مسلم- لا يُفَرِّغ نفسه في كل جمعة لأمر دينه فيتعاهده ويسأل عن دينه^(٢) ويصل الحث إلى حد الإلزام والعقوبة على الترك، ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام (لوددت أن أصحابي ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا)^(٣).

السعادة بمصاحبة الكتاب:

أقول: لكن القراءة لا تختص بهذا المجال بل كل كتاب نافع يساهم في تكوين تلك المنظومة الثقافية الصحيحة، فكتاب "كيف تكسب الأصدقاء" لمؤلف غير مسلم لكنه غني بالتوجيهات الرشيدة التي ترسم لك بوصلة العلاقات الناجحة والإيجابية مع الآخرين.

وهكذا كل كتب التنمية البشرية أو إدارة الوقت والاستفادة منه، أو كتب تعليم أسرار النجاح ومفاتيحه، أو التجارب الاجتماعية وغيرها كثير. وقد جرب من صاحب الكتاب وتولّع بالقراءة أي أنس وسعادة يحياها برفقة الكتاب حتى لا يشعر أحياناً بما يجري حوله وتمر عليه الساعات دون

(١) اصول الكافي كتاب العلم باب فرض العلم ح / ٧.

(٢) اصول الكافي كتاب العلم، باب سؤال العلم وتذاكره: ١٥ / ح ٨.

(٣) اصول الكافي كتاب العلم باب فرض العلم ح / ٨.

ان يدري وكأنه في روضة غناء ضُمَّت كل ما تهفو اليه النفس وتلذ به العين، وكان بعض العلماء يطرب اثناء أنسه بالكتاب ويقول: أين الملوك وابناء الملوك من هذه اللذات، ومعه حق فما قيمة اللذات الجسدية التي يبحث عنها المترفون من لذة القراءة ومطالعة الكتاب.

لكي نستعيد مجد الأمة المهدور:

علينا ان نستعيد امجادنا ونكون امة القراءة والكتاب فعلاً ونقود نهضة ثقافية عامة تدعو الى قراءة الكتاب بمختلف اشكاله والاهتمام به ولننشره ولنشجع الناس على القراءة ونبتكر كل الاساليب التي ترفع مستوى الثقافة لدى الناس من خلال نشر معارض الكتب وتوفيرها بأسعار زهيدة وطباعتها بشكل جاذب للقراء، وتيسير بيانها، وتنويع مواضيعها، وان تكون ذات مساس بواقع الامة وهمومها وآمالها وتساهم في صنع شخصية الانسان وان تكون بحجوم مختلفة من الدوريات ذات المجلدات العديدة الى المجلد الواحد الى الكتيبات والكراريس والمنشورات والمقالات المختصرة.

إذن علينا ان نواصل القراءة لنكون امة حية حضارية متقدمة وعلى كل شخص ان يقرأ ليكون انساناً حقيقياً

وعلياً أن نقرأ لنرضي الله تعالى ورسوله ﷺ والاولياء العظام ونستجيب لدعوته الى ما يحيينا. ونقرأ لنعيش حياة الانس والسعادة والسمو والارتقاء.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ خِزْفٍ﴾
ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا^(١)

[سبأ: ٤٦]

معنى: قل

(قل) يا رسول الله ﷺ لجميع الناس وأبلغهم رسالة من الله تعالى واستعمال (قل) للتأكيد على كون متعلقها مما أمر النبي ﷺ بتبليغه للناس، وإن كان كل القرآن هكذا، (لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (النحل/٤٤) إلا ان استعمال (قل) يعني الاهتمام بالقضية الملقة وإيصالها إلى الناس.

في معنى: أعظمكم

ولإعطاء هذه القضية زخماً من التأثير الواسع في المجتمع فقد أمر ﷺ أن يبلغ هذه الرسالة على نحو الموعظة (أعظكم) ولا يكتفي بمجرد إبلاغها لهم على أي نحو كان، والوعظ (هو التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب) كما في المفردات عن الخليل، فالمراد اختيار الطريقة الرقيقة الشفيقة الرحيمة التي تتجاوز

(١) كلمة وجهها سماحة المرجع اليعقوبي من خلال قناة النعيم الفضائية يوم الجمعة ٢٨-شعبان-١٤٣٥ المصادف ٢٧-٦-٢٠١٤ للتذكير بالمعالجة الأخلاقية للمحنة التي تمر بها البلاد بعد احتلال التكفيريين لمناطق شاسعة من البلاد، ولتتميم المعالجتين العسكرية والسياسية. (راجع كتاب خطاب المرحلة للتعرف عليها).

الاذن وتدخل القلب وتدفعه إلى التسليم بها لتحقيق الخير والصالح لكم.
وللتأكيد على أهمية هذه القضية وتركيز النظر عليها فقد استعمل أسلوبان
للدلالة على انحصار تحقق الغرض بهذه الوسيلة، أحدهما أداة الحصر (إنما)
وتأكيداً بكلمة (واحدة) أي لا ثانية لها فلا يوجد أمامكم إلا طريقة واحدة إن
أخذتم بها تحققت الغاية ووصلتم إلى الهدف واستقمتم على الطريق الصحيح.

اكسروا أغلال الهوى:

والقضية بسيطة منسجمة مع الطبيعة البشرية ومع الفطرة، لكنها واسعة واسعة
حاجات الإنسان وطموحاته ومشاكله حاصلها: أيها الناس إنكم في كل حقيقة
تريدون البحث عنها وفي كل موقف تريدون اتخاذه، وكل مشروع تودون الاقدام
عليه، وفي كل محنة تنزل بكم وكل مشكلة تعجزون عن حلها وكل كارثة تحيط
بكم وكل قضية تقلقكم لا حلَّ لكم ولا علاج إلا بواحدة، وذلك بأن (تقوموا)
وتنهضوا وتتهياؤوا وتستيقظوا وتكونوا على أهبة الاستعداد لأي شيء للرجوع إلى
ربكم والتسليم لأمره، والالتزام الكامل بما يريد الله تعالى منكم، وتكسروا أغلال
الهوى والتعصب والجهل والميول.

لأن الفرد والأمة إن لم يأخذوا بهذه الوسيلة ورضوا بأن يكونوا في غفلة
وفي سبات وفي جهل وعمى فإنهم يتخبطون ويقعون بأيدي اللصوص وقطاع
الطرق من شياطين الإنس والجن.

قوموا بإخلاص:

وان يكون قيامكم ونهضتكم خالصاً (لله) تعالى وليس اتباعاً لأهواء أو

ميول أو عواطف أو تعصبات وتحزبات أو لنيل مغنم دنيوية أو تحت مؤثرات من صنع البشر.

ثم تتفكروا:

والمطلوب من هذه النهضة إعمال الفكر (ثم تتفكروا) في القضية المقصودة وسيلهمكم الله تعالى الحل ويدلكم على الفعل المناسب ويسر لكم اسبابه ومقدماته، وفي الآية دلالة على أهمية الفكر والتفكير العقلاني المتحرر من اغلال التعصب والهوى فإن مثل هذا الفكر الحر هو حجر الأساس في بناء الهداية والكمال ومفتاح الوصول إليهما، ولإنجاز كل مشروع اجتماعي أو علمي أو سياسي أو اقتصادي ونحو ذلك.

وهذا التفكير يكون مقدمة لمعرفة ما يتطلبه الأمر الإلهي في تلك القضية والتسليم التام لما يريد الله تعالى منك فتأتمر بأمره وتنتهي بنهيه، وقد اطلقت الآية التفكير فلم تقيده بماذا لكي تجعل هذه القاعدة عامة لكل قضية ولكل مسألة ابتداءً من القضية المحورية الكبرى وهي التوحيد والإيمان بالله تعالى والمعاد يوم القيامة (إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) (سبأ: ٤٦) عندما يخاطبُ المشركون والكافرون بهذه الآية، إلى قضية النبوة والرسالة للمنكرين لها ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦] إلى قضية الإمامة والولاية للجاحدين بها إلى سائر القضايا الحياتية الأخرى الصغيرة والكبيرة.

مثنى وفرادى:

وليكن قيامكم ونهضتكم (فرادى) أي مع أنفسكم لكي تخلوا بربكم

وتفتحوا عليه ويكون ادعى للتأمل والتفكير، واتخذوا أيضاً شخصاً آخر (مثنى) أي اثنين اثنين ليكون رفيقاً لكم وناصحاً ومرآة (المؤمن مرآة المؤمن) فيعينك على التعرف على أخطائك وعيوبك وتستشيريه فيما ينبغي فعله ويعينك على الخير، وتجنبوا الانسياق وراء العامة وكثرة الناس مما يعرف بالسلوك الجمعي وقيل فيه (حشر مع الناس عيد) فان هذا الانسياق مذموم ويوردك مواطن الهلكة والوبار لأنه انفعالي عاطفي يسيره اهل المكر والخديعة والباطل (وإن تُطعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ) (الأنعام/١١٦) (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) (يوسف/١٠٣) (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (يوسف/١٠٦).

البيئة الصالحة للتكامل:

وهذه العناصر الثلاثة التي تُفهم من الآية كفيلة بصنع البيئة المناسبة للتكامل والتي تأخذ بيد الانسان نحو الكمال وقد جمعها الامام الجواد عليه السلام بقوله (المؤمن يحتاج الى توفيق من الله وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه)^(١)، فالواعظ من نفسه ثمرة القيام فرادى والقبول ممن ينصحه ثمرة القيام مثنى والتوفيق من الله ثمرة القيام لله.

وهذه القاعدة التي يقدمها الله تعالى هدية لنا من خلال كتابه الكريم هي البداية الصحيحة لكل مشروع، وتقييم من خلالها كل حركة او دعوة، وتواجه بها كل مشكلة، اما اتخاذ المواقف الارتجالية والانفعالية العاطفية فهو فعل غير منتج.

لا عز إلا بالله:

فلنغتتم هذه الهدية الالهية المباركة في كل حياتنا خصوصاً في وقت
الازمات والمحن كالتى تمر بها البلاد اليوم حيث يعيش فيها الارهاب الاعمى
فسادا وقتلا وتشريدا واجراما، فقبل ان نلهث وراء هذا وذاك ونستجدي منه النصرة
والعون وهو يزيدنا اذلالا واهانة، علينا ان نتفض على انفسنا واهوائنا لان الاغلب
غفلوا عن الله تعالى ونسوه تبارك وتعالى فأنساهم الله انفسهم وتركوا الامر
بالمعروف والنهي عن المنكر بل صاروا عقبة كؤود في طريق المصلحين
والآمرين بالمعروف والنهي عن المنكر وكثير منهم ممن يرجى ان يكون عوناً
على طاعة الله تعالى ولذا تحققت النتيجة التى حذر منها المعصومون (سلام الله
تعالى عليهم) كقول الامام الرضا عليه السلام (لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر، او
ليستعملن عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لكم)^(١)، فهذا هو سبب
تسلط الأشرار الارهابيين والمجرمين.

لا وسيلة للنجاة إلا بواحدة:

فلا وسيلة لنا ولا حل ينجينا الا بواحدة ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ وهي ان
ننهض لله وفي سبيل الله ونرجع إلى الله تبارك وتعالى، وندعوه ونتوسل بأقرب
الوسائل إليه تعالى: حبيبه محمد المصطفى وآله الطاهرين صلوات الله عليهم
أجمعين ونستغيث بصاحب العصر والزمان عليه السلام ليشملنا بألفه ورعايته وسيلهما
الله تعالى الحلول الصحيحة ويعيننا على تنفيذها والعمل بها، خصوصاً ونحن

(١) وسائل الشيعة: كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أبواب الأمر والنهي وما يناسبهما،

نستقبل شهر الله الكريم شهر المغفرة والرحمة والفوز بالجنة والنجاة من النار.

نموذج من الرجوع الى الله تعالى:

روى السيد ابن طاووس بالإسناد عن اليسع بن حمزة القمي^(١) فقال: أخبرني عمرو بن مسعدة وزير المعتصم الخليفة إنه جاء علي بالمكروه الفظيع حتى تخوفته على اراقة دمي وفقر عقبي، فكتبت إلى سيدي أبي الحسن العسكري عليه السلام - أي الإمام الهادي عليه السلام - أشكو إليه ما حلّ بي، فكتب إليّ: لا روع عليك ولا بأس، فادع^(٢) الله بهذه الكلمات، يخلصك الله وشيكاً مما وقعت فيه، ويجعل لك فرجاً، فإن آل محمد صلوات الله عليهم يدعون بها عند إشراف البلاء وظهور الأعداء وعند تخوّف الفقر وضيق الصدر.

قال اليسع بن حمزة فدعوت الله بالكلمات التي كتب إليّ سيدي بها في صدر النهار فوالله ما مضى شطره حتى جائي رسول عمرو بن مسعدة فقال لي: أجب الوزير، فنهضت ودخلت عليه، فلما بصر بي تبسّم إليّ وأمر بالحديد فُكّ عني، وبالأغلال فُحلت مني، وأمر لي بخلعه من فاخر ثيابه، واتحفني بطيب، ثم أدناني وقربني وجعل يحدثني ويعتذر إليّ، وردّ عليّ جميع ما كان استخرجه مني وأحسن رفدي.

(١) لعل الصحيح أحمد بن حمزة بن اليسع الذي وُصف بأنه (ثقة ثقة) لأنه من أصحاب الإمام الهادي عليه السلام أما اليسع بن حمزة فذكر في أصحاب الإمام الرضا عليه السلام وهو مجهول.

(٢) لاحظ تعبير الامام عليه السلام (فادع) اي اطلب بصدق ووفّر حقيقة الدعاء في باطنك ووجدانك ولم يقل عليه السلام (فاقرأ) اي مجرد تحريك اللسان بكلمات.

وكان الدعاء: يا من تحلُّ به عقد المكاره^(١)، والموجود في الصحيفة السجادية^(٢).

لنستمطر غمام رحمته:

فبهذا الدعاء وأدعية الفرج الأخرى نستمطر رحمة الله تعالى ومغفرته وأن يرفع عنا البلايا والفتن، ولنجعل هذه العودة إلى الله تعالى والانتباه من الغفلة واحدة من منافع المرور بهذا البلاء الشديد والتعرُّض لهذه الصدمة ليكون بلاء خير لنا وليس جزاءً لسوء أفعالنا، تصديقاً لعنوان البيان الذي أصدرناه تعليقاً على هذه الأحداث (ربّ ضارة نافعة)، ولا تخفى المنافع الأخرى التي تحققت حيث:

١- أعادت تذكير الناس بإمام زمانهم الذي غفلوا عنه وما غفل عنهم بدعائه وعنايته واستشعروا الحاجة لظهوره وتولّيه بنفسه الشريفة قيادة البشرية نحو الهدى والصلاح والقضاء على الباطل والانحراف والجاهلية.

٢- التفّ الناس حول مرجعيتهم الدينية واستجابوا لنداءاتها حتى التطوع للقتال وملأوا معسكرات التدريب وألقوا الحجة عليها لتنهض بمسؤوليتها وأفضلوا خطط من حاولوا إضعاف المرجعية الدينية وفصل القواعد عنها.

٣- انبعثت الروح الوطنية بعد أن ضاعت في هوس الانتماءات القومية والطائفية والایدولوجية وتفرّق الشعب أيدي سباً.

٤- صحا المسؤولون السياسيون والعسكريون من سكر المغامرات التي

(١) مهج الدعوات: ٢٧١.

(٢) ص ٥٧.

انهمكوا في جمعها وحيازتها من مواقعهم بغير حق.

٥- نسي الكثير خلافاتهم واتحدوا على هدف واحد وهو دفع هذا الخطر

الخبث.

وغيرها من النتائج التي ينبغي للعقلاء الالتفات إليها من دون الحاجة إلى

تعريضهم لهذا البلاء الشديد كما ورد في الدعاء (الهي لا تؤدبني بعقوبتك ولا

تمكر بي في حيلتك).

(وبالوالدين إحساناً)^(١)

[الإسراء : ٢٣]

الآيات الكريمة والروايات الشريفة الواردة في وجوب بر الوالدين والاحسان اليهما وحرمة عقوقهما كثيرة جداً قال تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء : ٢٣] ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ أَلَدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان : ١٤-١٥] ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف : ١٥] ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة : ٨٣] .

اما الروايات فكثيرة جداً نذكر منها:

ما روي عن رسول الله ﷺ لما سُئِلَ عن حق الوالدين على ولدهما قال ﷺ باختصار (هما جنتك ونارك) وعنه ﷺ قال (رضى الله في رضا الوالد وسخط الله في سخط الوالد) وعن امير المؤمنين عليه السلام قال : (برُّ الوالدين اكبر فريضة)^(٢) .

(١) كلمة سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) مع حشد كبير من الشباب وطلبة الجامعات الذين جرت العادة باستضافتهم في العشر الاواخر من شهر رمضان الى جوار امير المؤمنين عليه السلام وتنظيم برنامج عبادي اخلاقي لهم، والتقاهاهم سماحته يوم الخميس ٢٦-رمضان-١٤٣٥ الموافق ٢٤-٧-٢٠١٤

(٢) راجع هذه الروايات وكثير غيرها في ميزان الحكمة . ٥٦٧/٩.

هذا معنى واضح ومعروف ولا يحتاج الى بيان وتفصيل وكل الذي علينا هو التنفيذ والالتزام بكل حب ومودة ورحمة وصبر وسعة الصدر.

أبوا هذه الأمة:

اما ما اريد ان اشير اليه فهو مصداق آخر للوالدين تنطبق عليهما هذه الآيات والروايات بل هي فيهما آكد وأشد، وتبينه الرواية التالية، روى الشيخ الصدوق بسنده عن انس ابن مالك قال: (كنت عند علي بن أبي طالب عليه السلام في الشهر الذي أصيب فيه وهو شهر رمضان فدعا ابنه الحسن عليه السلام ثم قال: يا أبا محمد اعل المنبر فاحمد الله كثيرا، وأثن عليه، واذكر جدك رسول الله صلى الله عليه وآله بأحسن الذكر، وقل: لعن الله ولدا عقوق أبيه، لعن الله ولدا عقوق أبيه، لعن الله ولدا عقوق أبيه، لعن الله عبدا أبق من مواليه، لعن الله غنما ضلت عن الراعي^(١) وانزل. فلما فرغ من خطبته ونزل اجتمع الناس إليه فقالوا: يا ابن أمير المؤمنين وابن بنت رسول الله نبئنا [الجواب] فقال: الجواب على أمير المؤمنين عليه السلام، فقال أمير المؤمنين: إني كنت مع النبي صلى الله عليه وآله في صلاة صلاها فضرب بيده اليمنى إلى يدي اليمنى فاجتذبها فضمها إلى صدره ضما شديدا ثم قال لي: يا علي، قلت: لبيك يا رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: أنا وأنت أبوا هذه الأمة، فلعن الله من عققنا، قل: آمين، قلت: آمين. ثم قال: أنا وأنت موليا هذه الأمة فلعن الله من أبق عنا، قل: آمين، قلت: آمين، ثم قال: أنا وأنت راعيا هذه الأمة فلعن الله من ضل عنا، قل: آمين، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

(١) في رواية أخرى ان الفقرة الثالثة (لعن الله من ظلم أجيره) وذكر صلى الله عليه وآله في معناها (الا واني وانت اجيرا هذه الامة فمن ظلمنا أجزتنا فلعنة الله عليه).

وسمعت قائلين يقولان معي: " آمين " فقلت: يا رسول الله ومن القائلان معي " آمين ؟" قال: جبرئيل وميكائيل عليه السلام ^(١).

وورد في تفسير فرات بن ابراهيم بسنده عن الامام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ أَلَدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان : ١٤] قال (رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي ابن ابي طالب عليه السلام).

وفي تفسير القمي في قوله تعالى (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) قال: فالوالدان رسول الله صلى الله عليه وآله وامير المؤمنين عليه السلام، وورد عن جابر عن الامام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾ [البلد : ٣] انه امير المؤمنين عليه السلام، وما ولد من الائمة عليه السلام وورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [الأحقاف : ١٥] هما رسول الله وعلي ابن ابي طالب (صلوات الله عليهما).

ويشرح في تفسير العسكري معنى ابوتهما (صلوات الله عليهما) قال (ولقد قال الله تعالى (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) قال رسول الله صلى الله عليه وآله افضل والديكم واحقهما بشكرهم محمد وعلي، وقال علي ابن ابي طالب عليه السلام سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول انا وعلي بن ابي طالب ابوا هذه الامة، ولحقنا عليهم اعظم من حق والديهم فانا ننقذهم ان اطاعونا من النار الى دار القرار ونلحقهم من العبودية بخيار الأحرار) ^(٢).

(١) معاني الأخبار - الشيخ الصدوق: ١١٨/ح ١.

(٢) هذه الروايات في بحار الانوار : ٦/٣٦-٩ في باب عنوان (ان الوالدين رسول الله وامير المؤمنين (صلوات الله عليهما) وتوجد روايات اخرى في باب بعنوان (تأويل الوالدين والولد والارحام وذوي القربى بهم عليه السلام) في بحار الانوار : ٢٣/٢٥٧.

في معنى الأب:

قال الراغب في المفردات (الاب): الوالد ويُسمى كل من كان سببا في ايجاد شيء او صلاحه او ظهوره اباً ولذلك يسمى النبي ﷺ ابا المؤمنين، قال الله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] روي انه ﷺ قال لعلي (انا وانت ابوا هذه الامة)^(١).

حياتان ووجودان:

فالإنسان له حياتان ووجودان: الاولى: حياة و وجود بدني مادي في هذه الحياة الدنيا به يأكل ويشرب ويتحرك ويتزوج مما يشارك فيه الحيوانات وينتهي بالموت، واصله من الوالدين النسبيين الاب والام مما اوجب لهما الحقوق المعروفة للوالدين.

الثانية: حياة ووجود معنوي به يتكامل ويسمو ويرتقي وهو الموجب للفوز في الحياة الابدية وقوامه الايمان بالله تعالى وبما جاءت به رسله، وهذه هي الحياة الحقيقة للإنسان ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقد وصف الله تعالى في آيات كثيرة من القرآن الكريم الايمان بالحياة والكفر بالموت ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وضرب امثلة عديدة للمؤمن والكافر بالأرض الميتة فأحييناها بماء الايمان والمعارف الالهية.

(١) المفردات للراغب، مادة (اب).

الابوة المعنوية:

والنبي ﷺ وأمير المؤمنين علي عليه السلام هما اصل هذه الحياة المعنوية ووجودنا فيها ولولاهما لكنا امواتاً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف : ٤٣] فهما ابوا هذه الامة في حياتها المعنوية ولانها الحياة الاهم والاسمى كان حقهما (صلوات الله عليهما) اكبر من الوالدين النسيين.

ولعل مما يدل عليه من القران الكريم لرفع الاستغراب قوله تعالى ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف : ٢٢] فقد حُمِلَ على العلماء (اي علماءنا الذين ربونا بالعلم بدلالة قوله تعالى ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٧] وقيل في قوله تعالى (أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ) انه عنى الاب الذي ولده والمعلم الذي علمه^(١).

بل يمكن القول انهما ابوا هذه الامة حتى بالمعنى الاول، لانهما العلة الغائية للموجودات خلق الكون لأجلهم وبهم يرزقون وبهم تستمر الحياة ((ولولاهم لساخت الارض باهلها)) وبهم يسبب الله الاسباب.

لنكن أبناء بارين:

والى الان نكون قد عرفنا جانباً من الحديث الذي له اتجاهان لان الابوة من المعاني المتضايقة كما يعبر اهل المنطق والاصول اي النسبية ذات الاتجاهين، فلا تتحقق الابوة الا بالبنوة، لذا علينا ان نلتفت الى هذا التشريف العظيم الذي من الله

(١) المفردات للراغب، مادة (اب).

تعالى به علينا اذ جعلنا ابناً لرسول الله ﷺ وعلي بن ابي طالب عليه السلام الذي يعرف قيمته مثل الامام الصادق عليه السلام حين يقول (ولايتي لعلي بن ابي طالب عليه السلام أحب إلي من ولادتي منه، لأن ولايتي لعلي بن ابي طالب فرض، وولادتي منه فضل)^(١).

لنقرأ الآيات بروية جديدة:

وحينئذٍ نقرأ الآيات الكريمة بهذه الرؤية الجديدة (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ وتقدم ان حقهما (صلوات الله عليهما) اعظم من حق الوالدين الذي عرفنا عظمته، عن الامام الحسن السبط عليه السلام قال (محمد وعلي ابوا هذه الامة فطوبى لمن كان بحقهما عارفا ولهما في كل احواله مطيعا يجعله الله من افضل سكان جنانه ويسعده بكراماته ورضوانه) وعن الامام الحسين عليه السلام قال (من عرف حق ابويه الفضلين محمد وعلي عليهما واطاعهما حق الطاعة قيل له تبجح في اي الجنان شئت)^(٢).

في خصائص النبوة:

وعلياً ان نكون ابناء بارين مطيعين، نقل في المناقب عن القاضي ابي بكر احمد ابن كامل قوله (يعني ان حق علي على كل مسلم ان لا يعصيه ابداً)^(٣).

(١) البحار: ج ٣٩: ص ٢٩٩.

(٢) بحار الانوار: ١٠/٣٦ عن تفسير العسكري: ٣٣٠.

(٣) بحار الانوار ١١/٣٦ عن مناقب آل ابي طالب: ١٢٦/٣.

وإذا لم تتحقق شروط البنوة فإن النبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام يتبرءان منه وينفيان انتسابه اليهما، وتصور العار الذي يلحق من يتبرأ منه ابواه وينفيان نسبته اليهما، عن الامام الرضا عليه السلام قال: (اما يكره احدكم ان ينفي عن ابيه وامه الذين ولداه قالوا بلى، قال فليجتهد ان لا ينفي عن ابيه وامه الذين هما ابواه افضل من ابوي نفسه)^(١).

حُكي ان ذنباً نرى على انثى غزال فحملت منه وولدت مولودا اختلف فيه هل هو ذئب ام غزال ليطبق الحكم الشرعي على كل منهما، وتقول الحكاية ان القاضي حكم بان يقدم امامه نوعان من الطعام احدهما من الرياحين والمسك والاخر من الجيف ولحوم الميتة، فان تناول الاول فهو غزال وان تناول الثاني فهو ذئب^(٢).

ومحل الشاهد ان بنوة الانسان لأحد تعرف من خلال المنهج الذي يسير عليه ويرتضيه لنفسه فان كان صالحا كان ابنا لرسول الله وأمير المؤمنين (صلوات الله عليهما) وان كان فاسدا منحرفا فهو ابن لمعاوية ويزيد ونظرائهما.

في الحديث الشريف عن الامام الصادق عليه السلام قال: (فإن الرجل منكم اذا ورع في دينه وصدق الحديث وادى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل هذا جعفري، فيسرني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، واذا كان

(١) بحار الانوار: ١٠/٣٦ عن تفسير العسكري: ٣٣٠.

(٢) (غضوا ابصاركم ترون العجائب): ٨٩ عن كتاب سلسلة اصول الدين للمرحوم دستغيب:

على غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر^(١).
 فالإمام الصادق عليه السلام ينسبك فعلاً إليه وإلى أبائه الطاهرين عليه السلام وتحمل لقبه
 إذا تحليت بهذه الصفات.

وفي القرآن الكريم قول ابراهيم عليه السلام ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم :
 ٣٦] فمن سار على نهجه عليه السلام واتبعه كان منه وليس فقط ينتسب إليه وبهذا
 استحق سلمان الفارسي هذا اللقب في الحديث النبوي المشهور (سلمان منا أهل
 البيت)^(٢) وبالعكس فإن الانتساب البدني لا قيمة له إذا لم يكن مقترناً بالطاعة
 والاتباع، كما حكى القرآن الكريم في ابن النبي نوح عليه السلام ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ
 إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود : ٤٦].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا أهلاً للتشرف بالنبوة لرسول الله ﷺ وأمير
 المؤمنين عليه السلام وأن تؤدي حقوق هذا الانتساب بفضله وكرمه.

(١) وسائل الشيعة : كتاب الحج، أبواب احكام العشرة، باب ١ ح ٢.

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٥٩٨/٣) ، والطبراني (٢٦١/٦).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)^(١)

[التحريم : ٦]

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ] (التحريم: ٦).

درس في الأسرة الصالحة:

الآية الشريفة تتضمن درساً في المسؤولية الأسرية والاجتماعية انطلاقاً من الحديث الشريف (ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على أهل بيت بعلمها وولده وهي مسؤولة عنهم، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)^(٢).

وتبرز أهمية هذه المسؤولية اليوم بشكل واضح لامتلاك الفساد والفساد والانحراف وسائل وتقنيات وأدوات متطورة وفاعلة ومثيرة وجاذبة مما يوجب أكثر من ذي قبل الاهتمام بهذا الأمر الإلهي العظيم ووضع الآليات المناسبة للالتزام به.

في معنى مفردات الآية:

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا] خطاب عام موجه لجميع المؤمنين والمؤمنات.

(١) الخطبة الاولى لصلاة عيد الفطر السعيد لسنة ١٤٣٥ هـ يوم الثلاثاء ٢٩-٧-٢٠١٤.

(٢) الأمثل في تفسير القرآن: ٢٩/١٤ عن مجموعة ورام: ٦/١.

[قُوا] فعل أمر من الوقاية، و(الوقاية حفظ الشيء عما يؤذيه ويضره، قال تعالى: [فَوَقَاهُمُ اللَّهُ] (الإنسان: ١١) وقال تعالى: [وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ] (الدخان: ٥٦)، والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف، وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روي (الحلال بين والحرام بين ومن رتج حول الحمى فحقيق أن يقع فيه))^(١).

[أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ] وجوب وقاية النفس وحفظها من النار ثابت وواضح، والجديد في الآية أنها تقرن الأهل بالنفس في حفظهم من ارتكاب ما يوجب النار التي وصفتها الآية الشريفة بأوصاف مرعبة.

الوجوب المؤكد بوقاية الأسرة:

وقد نبه القرآن الكريم إلى هذه العناية الخاصة بالأهل في آيات كثيرة، كقوله تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ: [وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا] (طه: ١٣٢) وكان من أوائل ما نزل عليه ﷺ في بداية الدعوة الإسلامية: [وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ] (الشعراء: ٢١٤) وحكى عن إسماعيل صادق الوعد بقوله تعالى: [وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ] (مريم: ٥٥). فهناك إذن مسؤولية خاصة عن الأهل جمعها قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ] (التحريم: ٦).

ويشهد لهذا الوجوب المؤكد نصوص شريفة أخرى، كقول أمير المؤمنين

(١) المفردات للراغب: ٨٨١، مادة (وقى).

عَلَيْهِ السَّلَامُ: (علموا أنفسكم وأهلكم الخير وأدّبوهم)^(١) كما يشهد له ورود تطبيقات لهذه المسؤولية الخاصة كتأديب الصبيان على الصلاة من عمر ست أو سبع سنين^(٢)، أو ما ورد في أعمال ليلة القدر أن السيدة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ كانت لا تدع أهلها ينامون في تلك الليلة وتعالجهم بقلّة الطعام وتتأهب لها من النهار أي كانت تأمرهم بالنوم نهاراً لئلا يغلب عليهم النعاس ليلاً، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوقظ أهله في تلك الليلة ويرشّ وجوه النيام بالماء^(٣).

حدود المسؤولية في الأسرة:

ولا تعني هذه الدعوة التي أطلقتها الآية لوقاية الأهل من النار إكراههم على شيء، فقد شرحت حدود هذه المسؤولية روايات عديدة رواها الشيخ الكليني في الكافي^(٤):

(منها) عن أبي بصير عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في قول الله عز وجل: [قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا]، قلت: كيف أقيهم؟ قال: تأمرهم بما أمر الله، وتنهاهم عما نهى الله، فإن أطاعوك كنت قد وقيتهم، وإن عصوك كنت قد قضيت ما عليك).

(ومنها) عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: (لما

(١) كنز العمال: ٥٣٩/٢، ح ٤٦٧٦.

(٢) وسائل الشيعة: ١٨/٤، أبواب أعداد الفرائض، باب ٣.

(٣) مفاتيح الجنان عن دعائم الإسلام.

(٤) الكافي: ٦٢/٥، ح ١، ٢.

نزلت هذه الآية: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا] جلس رجلٌ من المسلمين يبكي، وقال: أنا عجزت عن نفسي وكلفت أهلي! فقال رسول الله ﷺ: حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك، وتنهاهم عما تنهى عنه نفسك).

المطلوب من وعظ الأسرة:

فالمطلوب بمقتضى هذه الآية أن يحفظ الإنسان أهله من الوقوع في المعاصي وما يسخط الله تعالى بأن يرشدهم إلى الطاعة ويقربهم منها ويزينها لهم ويقنعهم بها ويكافئهم على فعلها، وبنفس الوقت يحذّرهم من المعصية ويردعهم عنها ويحميهم من الوقوع فيها.

وقد ذكر العلماء (قدس الله أرواحهم) في رسائلهم العملية أمثلة لهذه المسؤولية فقالوا: (يجب عليه إذا رأى من أهله التهاون في الواجبات، كالصلاة وأجزائها وشرائطها بأن لا يأتون بها على وجهها لعدم صحة القراءة والأذكار الواجبة منهم، أو أنهم لا يتوضأون وضوءاً صحيحاً، أو لا يطهرون أبدانهم ولباسهم من النجاسة على الوجه الصحيح، فيجب عليه تعليمهم وأمرهم ونهيهم على الترتيب المتقدم حتى يأتوا بها على وجهها الصحيح. وكذا الحال في بقية الواجبات، وكذلك في المعاملات وسائر الأحكام. وكذا إذا رأى منهم التهاون في المحرمات كالغيبة والنميمة والعدوان بين بعضهم على بعض أو على غيرهم أو الزنا أو شرب الخمر أو السرقة، فإنه يجب عليه أن ينهاهم عن المنكر، حتى

يرتدعوا عن المعصية^(١).

مناشئ المسؤولية تجاه الأسرة:

ويمكن أن نفهم لهذه المسؤولية المؤكدة عدة ملاكات ومناشئ:-

١- إن هذا التأكيد وقرن الأهل بالنفس في الخير والشر يلاحظ أمراً فطرياً ونزعة لدى الإنسان فإنه يعتبر أهله كنفسه يصيبه ما يصيبهم، من وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام قال: (ووجدتك بعضي، بل وجدتك كلي، حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني، وكأن الموت لو أتاكَ أتاني، فعناني من أمرِكَ ما يعينني من أمر نفسي)^(٢). وقد حكى القرآن الكريم عن جملة من الأنبياء عليهم السلام هذه الغريزة الإنسانية، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: [قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي] (البقرة: ١٢٤) وقال عن النبي نوح عليه السلام: [وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ] (هود: ٤٥) وقال تعالى عن النبي لوط عليه السلام: [رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ] (الشعراء: ١٦٩). ومن الأدعية التي وردت في القرآن الكريم [رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي] (الأحقاف: ١٥) والخلاصة أن الأمر بوقاية الأهل ينبه الإنسان على أنك إن أردت الخير لأهلك وأن يلتحقوا بك في الجنة فعلمهم ما يتقون.

(١) منهج الصالحين: ٢/ ٢٤٠، المسألة (٨٨)، منهاج الصالحين للسيد الحكيم قدس سره: ١/ ٤٩٠،

مسألة (٨)، وللسيد الخوئي قدس سره: ١/ ٣٥٣، مسألة (١٢٧٤).

(٢) نهج البلاغة: ٦١٦، قسم الرسائل والكتب، العدد ٣١.

٢- إن للشخص سلطنة وقيمومة وولاية عرفية واجتماعية وشرعية خاصة على أهله وذويه مما تعطيه قوة في التأثير ومن غير المتوقع وجود موانع من ممارسة الفريضة كالتي يمكن أن تحصل مع الغير مثل حصول الضرر أو اختلال النظام ونحو ذلك، فتكون مسؤوليته أكبر لأن وجود المقتضي أقوى والمانع يكاد يكون مفقوداً.

٣- إن الأسرة هي الوحدة الأساسية للمجتمع فإذا صلحت هذه الأسرة وتلك وتلك صلح المجتمع، فصلاح المجتمع -الذي هو الهدف- يتحقق بقيام كل فرد بإصلاح أسرته، فكأن الشارع المقدس بتأكيده على إصلاح الأسرة يضع لنا المنهج والطريق لإصلاح المجتمع.

٤- إن الفرد مسؤول اجتماعياً عن أسرته فإذا صدر منهم ما يزين كان له، وإذا صدر منهم ما يشين كان عليه؛ لذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام مخاطباً شيعته: (كونوا زيناً لنا ولا تكونوا علينا شيناً)^(١) لأنهم محسوبون على الإمام عليه السلام يتسمون باسمه، فإصلاح الفرد لأسرته إنما هو عمل يقدمه لنفسه لأن الثناء يعود إليه فيما لو صلحوا وأحسنوا، كما أن الولد المنحرف يعير به ويعتذر عن إساءته. وقد ورد مثل هذا الوجه في تعليل اشتراط إذن ولي الأمر في الدخول بالباكر (في

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣٨٣/١، ح ١٢٨ وفيه: (يا زيد خالفوا الناس بأخلاقهم، صلّوا في مساجدهم، وعودوا مرضاهم، واشهدوا جنازتهم، وإن استطعتم أن تكونوا الأئمة والمؤذنين فافعلوا فإنكم إذا فعلتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية ما كان أحسن ما يؤدّب أصحابه، وإذا تركتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية فعل بجعفر ما كان أسوأ ما يؤدّب أصحابه).

زواج المتعة) لأن عارها يرجع على أهلها قال عليه السلام: (يكره للعب على أهلها) وقال عليه السلام: (كراهية العيب على أهلها)^(١).

٥- إن عدم صلاح الأهل يضعف موقف الفرد عند قيامه بواجبه في ممارسة الأمر والنهي في المجتمع؛ لأنهم سيردّون عليه بأنه لبيدأ أولاً بإصلاح أهله، مما يجعله في حرج من ممارسة هذه الفريضة العظيمة.

٦- إن الأسرة وحدة مصغرة من المجتمع وفيها تنوع نفسي وفكري وثقافي فتصلح أن تكون معسكراً تدريبياً - كما يقال - لأداء الوظيفة في المجتمع فيستفيد العامل من كيفية التعاطي مع الأهل مع تنوعهم في التعاطي مع المجتمع وهو أحد وجوه فهم الحديث النبوي الشريف (خيركم خرم لأهله وأنا خيركم لأهله) وكذلك حديث (من عرف نفسه فقد عرف ربه).

الأسرة الصالحة تبدأ باختيار الزوجة الصالحة:

وما أكثر مصاديق هذا الوجوب المؤكد اليوم كتوفير البيئة الصالحة لهم في البيت بدءاً من اختيار الزوجة المؤمنة العفيفة المتفكّهة، وأن يكون لهم أسوة حسنة لأن رب الأسرة يكون المثل الأعلى لهم، وأن يجنبهم أصدقاء السوء، وأن يعلمهم ويرشدهم إلى كل ما فيه صلاح الدنيا والآخرة، وأن لا يهمل أمر متابعتهم وتفقد شؤونهم بعذر الانشغال بالكسب أو أي أمر آخر، وأن ينههم إلى أوقات الصلاة برفع الأذان في البيت - وقد ورد فيه عن الإمام الرضا عليه السلام: أنه مما يوجب كثرة

(١) وسائل الشيعة: كتاب النكاح، أبواب المتعة، باب ١١.

الولد والشفاء من الأمراض^(١) - ويصلي بهم جماعة إن استطاع، وأن يختار لهم أحمد السبل وأرشدتها في دراستهم وكسبهم وأوضاعهم الاجتماعية ونحو ذلك. وهذه المسؤولية ممتدة طول الزمان لأن الإنسان لا يخلو من المسؤولية عن الأهل فهو إما أن يكون ابناً أو أباً أو زوجاً أو أخاً، وكذلك بالنسبة للمرأة، أما مسؤوليته عن أسرته الخاصة فلا بد من الالتفات إليها ورعايتها من قبل الزواج باختيار المرأة الصالحة المؤهلة لحفظ بيته وماله وتربية أولاده.

(١) وسائل الشيعة: كتاب النكاح، أبواب أحكام الأولاد، باب ١١، ح ١٠.

(قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) ^(١) [يونس: ٥٨]

موجبات الفرح الحقيقي

حالة الفرح لدى الإنسان:

يحصل الإنسان في هذه الدنيا على الكثير من النعم التي يفرح بها، ويحقق الكثير من الانجازات والأعمال المفرحة كالتاجر يربح بصفقه ربحاً غير متوقع، أو المعدلات العالية التي حققتها في الامتحانات العامة للسادس العلمي خصوصاً إذا كانت الدرجات أكثر مما كان يظن وفق تقييمه لأجوبته.

وهذا الفرح حالة وجدانية طبيعية لا يمكن الغاؤها والاعتراض عليها، وإنما يحتاج إلى وضعه في مساره الصحيح المثمر، وفي ضوء هذا نفهم ما ورد في قوله تعالى (لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) (القصص/٧٦) والمشكلة ليست في نفس الفرح والحل في قوله تعالى بعد ذلك (وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) (القصص/٧٧) فالفرح بالمال والموقع الوظيفي والجاه والنفوذ لا يكون لذات هذه الأمور لأنها زائلة ولذتها وقتية وهي لوحدها غير قادرة على تحقيق السعادة للإنسان، والشاهد على ذلك كثرة الانتحار وشيوع الأمراض النفسية

(١) كلمة سماحة الشيخ العقوبي (دام ظله) مع جمع من الطلبة المتفوقين الأوائل في العراق ومحافظة النجف الأشرف في امتحانات السادس العلمي يوم الأربعاء ٢٣/شوال/١٤٣٥ المصادف

والعصبية والتفكك الأسري والعنصرية والتمايز الطبقي وأمثالها من الأمراض الاجتماعية التي تؤدي إلى نشوء مافيات العنف والقتل في الدول الأكثر ترفاً ورفاهية^(١).

ما يوجب الفرح الحقيقي:

فالأية تدلنا على ما يوجب الفرح الحقيقي بهذه النعم من خلال توظيفها واستثمارها في الوصول إلى الهدف الحقيقي وهو نيل رضا الله تعالى من خلال الالتزام بطاعته تبارك وتعالى فإنها توفر السعادة الحقيقية للإنسان (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) (يونس/٥٨)، من كلام لأmir المؤمنين عليه السلام: (فإن المرء ليفرح بالشيء الذي لم يكن ليفوته، ويحزن على الشيء الذي لم يكن ليصيبه، فلا يكن أفضل ما نلت في نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ، ولكن اطفاء باطل أو إحياء حق، وليكن سرورك بما قدمت، وأسفك على ما خلفت، وهمك فيما بعد الموت)^(٢).

الفرح للنعم المعنوية:

والذي ينبغي أن يوجب الفرح أكثر هو التوفيق للنعم المعنوية والاهتداء إليها كنعمة القرآن الكريم الذي وصفت آثاره الآية السابقة عليها (يَا أَيُّهَا النَّاسُ

(١) وأنا أكتب هذه الكلمات لازالت الاضطرابات والمواجهات بين السود وقوات الامن مستمرة منذ التاسع من الشهر الجاري مما دعا الى اعلان حالة الطوارئ في ولاية ميسوري الأمريكية بعد قتل مراهق أسود على يد الشرطة لأسباب عنصرية على ما قيل.

(٢) نهج البلاغة، الكتاب: ٦٦.

قَدْ جَاءَ تَكُم مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (يونس/٥٨) فهذه النعم الإلهية (الموعظة، شفاء الصدور، الهدى، الرحمة) هي التي تستحق ان يفرح بها الإنسان فرحاً يحركه للحصول عليها والاستزادة منها، وهي آثار مترتبة يوفرها القرآن الكريم للإنسان فأول أثر للقرآن هو أن يطرق باب النفوس الغافلة المتعلقة بالدنيا وزخارفها اللاهثة وراء الماديات، والقلوب المملوءة بالردائل فيعظها ويوقظها من الغفلة والجهل فيحركهم نحو الطريق الصحيح.

فإذا لزموا هذا الطريق أخذ القرآن في تهذيب نفوسهم وتطهير قلوبهم بمدة قد تطول وقد تقتصر بحسب استعداد الشخص وهمته وقوة عزمته حتى يطهره منها ويشفيه من عللها وهذه هي المرتبة الثانية.

وحينئذ تكون قلوبهم صافية ونفوسهم صالحة متهيئة لتلقي الأخلاق الفاضلة والمعارف الحقة والأعمال الصالحة التي يرتقون بها في درجات الكمال، وهذا هو الهدى في المرتبة الثالثة.

وبذلك يستحقون منازل الرحمة ودار الكرامة عند ربهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

لذا ورد في الدر المنثور في تفسير الآية عن ابن عباس (قل بفضل الله) القرآن (وبرحمته) حين جعلهم من أهل القرآن، وفي حديث مروي عن رسول الله ﷺ يبين فيه آثار القرآن التي تستحق أن يفرح الإنسان بها ويعمل لتحصيلها، قال ﷺ (إن اردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحسرة والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرز من

الشيطان ورجحان في الميزان)^(١) ويصف الإمام السجاد عليه السلام أنسه وفرحه بالقرآن بقوله (لو مات من بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي)^(٢) فهذه هي النعمة الحقيقية التي تستحق الفرح بها.

نعمة الإسلام واتباع النبي وأهل البيت عليهم السلام:

والنعمة الأخرى التي يستحق الفرح بها رسول الله صلى الله عليه وآله الذي هدانا الله تعالى به للإسلام وعلمنا القرآن وأرسله إلينا رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ الأنبياء ١٠٧، ونعمة أمير المؤمنين عليه السلام الذي ثبت به الإسلام وحافظ على إصالته ونقاوته وحفظ مسيرة المسلمين من الانحراف والتزييف.

لذلك كثرت الروايات في كتب المسلمين عامة أن المراد بفضل الله في الآية رسول الله صلى الله عليه وآله وبرحمته علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن بعد أمير المؤمنين الأئمة الطاهرون عليهم السلام ومن بعدهم العلماء العاملون المخلصون المتفانون في اعلاء كلمة الله تعالى وهداية الناس وخدمتهم، فإذا كان النظر إلى وجه العالم عبادة، وزيارته كمن زار رسول الله صلى الله عليه وآله ونحو ذلك مما دلت عليه الروايات الشريفة ألا يكون مثل هؤلاء العلماء نعمة تستحق الفرح بوجودهم وأخذهم لموقعهم الذي يستحقونه؟ فالتفوا حولهم واستفيدوا منهم وخذوا بتوجيهاتهم.

فضله تعالى غير رحمته:

وظاهر الآية أن فضل الله له معنى غير رحمته لارتباط كل منهما بباء السببية،

(١) بحار الأنوار: ١٩/٨٩.

(٢) أصول الكافي: كتاب فضل القرآن، ح ١٣.

وقد ذكر المفسرون وجوهاً لإعطاء معنيين مختلفين للفضل والرحمة منها:

١- (أن يكون المراد بالفضل ما يبسطه الله من عطائه على عامة خلقه، وبالرحمة خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإن رحمة السعادة الدينية إذا انضمت إلى النعمة العامة من حياة ورزق وسائر البركات العامة كان المجموع منهما أحق بالفرح والسرور وأحرى بالانبساط والابتهاج)^(١) ويؤيده تقييد الرحمة بالمؤمنين في هذه الآية وغيرها.

٢- إن المراد^(٢) بالفضل الإلهي النعم الظاهرية أو قل المادية وقد ورد بهذا المعنى في عدة آيات كقوله تعالى (وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) (النحل / ١٤) وقوله تعالى (وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ) (الجمعة / ١٠)، والرحمة إشارة إلى النعم الباطنية أو المعنوية.

٣- إن الفضل الإلهي بداية النعمة ويساعد عليه المعنى اللغوي للفضل وهو بذل النعمة وهبتها، والمراد بالرحمة دوام النعمة، وهذا يناسب ما ذكرناه من تفسير فضل الله برسول الله ﷺ ورحمته بعلي بن أبي طالب عليه السلام لأن النبي ﷺ كان السبب في هدايتنا إلى نعمة الإسلام والإمام علي عليه السلام سبب بقائه واستمراره وكما قيل أن النبي ﷺ علة محدثة وموجدة، وأمير المؤمنين عليه السلام علة مبقية.

٤- أن يكون الفضل إشارة إلى نعم الجنة، والرحمة إشارة إلى العفو عن الذنب وغفرانه.

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٠/٧٧.

(٢) حكى هذا الوجه وما بعده في تفسير الأمثل: ٤٩٩/٥.

(كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى)^(١)

[سورة العلق : ٦-٧]

الشعور بالغنى:

متلازمة ثنائية بين الشعور بالاستغناء والطغيان يشير إليها القرآن الكريم بأسف وحسرة يدل عليها استعمال لفظ (كلا) التي قيل عنها أنها تعبير عن الردع^(٢)، وإذا طبقنا هذا المعنى على الآية فتكون ردعاً عن تصور السلوك الطبيعي الفطري الذي تقتضيه الآيات السابقة في بداية سورة العلق من الشكر والطاعة، فتكون بمعنى أداة الاستدراك (لكن)، وقيل أن معناها (حقاً).

(١) الكلمة التي القاها سماحة الشيخ العقوبي (دام ظله) على طلبة البحث الخارج بمناسبة افتتاح العام الدراسي للحوزة العلمية يوم الاحد ٢٧-شوال-١٤٣٥ المصادف ٢٤-٨-٢٠١٤.

(٢) الردع هنا يمكن تصوره عن توقع النتيجة الطبيعية لاغداق النعم وهو الشكر وطاعة المنعم لأن الذي يحصل على خلاف ذلك وبذلك نرد إشكال سيدنا الأستاذ الشهيد الصدر الثاني قَالَ حين قال: (وفكرة الردع خطأ فضيع، لأنه ليس في الآيات السابقات إلّا الحق فلا معنى للردع عنها) (منة المنان: ٥٦٨/١) فيجاء على القول بأن (كلا) موضوعة للردع بما قربنا من إمكان حملها على هذا المعنى، ويمكن أن يكون الردع عما يليه من الكلام أي عن مقام الطغيان كما في بعض التفاسير، أو نفسها بمعنى قريب من الردع بناءً على تقريب تعرضها لجملته من التحولات بمقتضى القرائن إلى معنى غير مقطوع الصلة عن الأصل، كمعنى الاستدراك الذي ذكرناه ولا مانع من ذلك.

من الأمراض المعنوية: غرور الغنى:

الأسف والحسرة لوجود هذا المرض المعنوي في الإنسان على خلاف الفطرة وحكم العقل، إذ المفروض أن يكون رد الفعل على تحصيل الغنى هو الشكر والتواضع والاحسان، لا الطغيان والكفر والجحود والتمرد، وهذه المتلازمة المرضية في عالم القلب والنفس أخطر من المتلازمة المرضية في عالم الجسد كمرض الايدز لأن الثاني يفتك بالحياة الدنيوية الزائلة أما الأول يفتك بالحياة المعنوية الباقية.

والغريب أن تكون هذه الثنائية هي الحالة العامة لدى (الإنسان) الذي تذكره الآية وكأنه ملازم لذاته بحيث صَحَّت نسبتها إلى الإنسان كجنس إلا من عصم الله تعالى، قال أمير المؤمنين عليه السلام: (الغنى يطغي)^(١)، وكأن هذه العلاقة دائمية مطلقة، وقال عليه السلام: (غرور الغنى يوجب الأشر) وهو أسوأ من البطر ويحذر عليه السلام من هذه النتيجة بسبب الشعور بالغنى، قال عليه السلام: (إستعيذوا بالله من سكرة الغنى، فإن له سكرة بعيدة الإفاقة)^(٢).

معنى الطغيان:

والطغيان في اللغة بمعنى تجاوز الحد، قال تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ) (الحاقة/ ١١) وعبر تعالى عن الفيضان بالطغيان قال تعالى: (فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ) (الحاقة/ ٥)، فتفيد الآية إن الإنسان يتجاوز حدود الشرع والعقل والفطرة فيتمرد على خالقه ويخرج عن زي العبودية، ثم يطغى على الناس ويتجاوز عليهم بمجرد

(١) غرر الحكم: رقم ٢٣.

(٢) غرر الحكم: رقم ٢٥٥٥.

أنه يرى نفسه قد استغنى بتوفر بعض الأسباب لديه، وهو شعور باطل لذا كان تعبير القرآن الكريم دقيقاً كما هو شأنه إذ قال (أَنْ رآه) ولم يقل (أَنْ استغنى) لأن شعوره بالغنى وهم، إذ لا غنى حقيقة إلا الله تعالى وكل الخلق محتاجون إليه (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر/١٥) وفي دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة (إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري)^(١)، وإذا وُصف أحدٌ بالغنى فهو نسبي أي بلحاظ توفر احتياجاته المعاشية واستغنائه عن الطلب من الآخرين.

والذي ينصرف إليه لفظ الغنى الموجب للطغيان هو غنى المال وهو معنى صحيح، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (إنما أتخوف على أمتي من بعدي ثلاث خلال: أن يتأولوا القرآن على غير تأويله، أو يتبعوا زلة العالم)^(٢)، أو يظهر فيهم المال حتى يطفوا ويبطروا)^(٣).

من الموعظة:

ومن كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في صفة أعجب ما في الإنسان وهو القلب قال عليه السلام: (إن أفاد مالاً أطغاه الغنى وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع)^(٤)، وعنه عليه السلام: (لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل... إن استغنى بطر وفُتن، وإن افتقر

(١) مفاتيح الجنان: ٤٧٣.

(٢) أي يتبعون أخطاء العلماء وينشرونها لتسقيطهم، أو انهم يتبعون ما تشابه من سلوك العالم ويجعلونه ذريعة لزلاتهم.

(٣) بحار الأنوار: ٧٢/٦٣ ح ٧.

(٤) نهج البلاغة: الحكمة ١٠٨.

قنط ووهن^(١)، فما أعجب هذا الإنسان الذي لا يلتفت إلى مكان ضعفه وانحرافه.

ومن الحكايات في هذا المجال ننقلها للاتعاظ: ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال جاء رجل موسر إلى رسول الله ﷺ نقي الثوب فجلس إلى رسول الله ﷺ، فجاء رجل معسر درن الثوب فجلس إلى جنب الموسر، فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذه، فقال له رسول الله ﷺ: أخفت أن يمسك من فقره شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟ قال: لا، قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله: إن لي قريناً يزني لي كل قبيح، ويقبح لي كل حسن، وقد جعلتُ له نصف مالي.

فقال رسول الله ﷺ: أتقبل؟ قال: لا، فقال له الرجل: ولم؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك^(٢).

موجبات الطغيان عند الشعور الغنى:

أقول: هذا الفهم -أي كون غنى المال موجب للطغيان- صحيح إلا أن الأمر لا يقتصر عليه، فقد يطغى الإنسان بكثرة الولد والأنصار، قال تعالى: (أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) (التكاثر/١-٢) وقال تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ) (الحديد/٢٠) وقد يطغى بالعلم فيعتدُّ بنفسه (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ* قَالَ

(١) نهج البلاغة: الحكمة ١٥٠.

(٢) الكافي: ٢٦٢/٢ ح ١.

بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (طه/٩٥-٩٦) (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي) (القصص/٧٨).

ولاشك أن من أقوى أسباب الطغيان السلطة بكل أشكالها وليس الحكام فقط، كما حصل لفرعون (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ) (طه/٢٤) حتى بلغ به الطغيان حدًّا أن يقول (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ) (النازعات/٢٤) لأن السلطة تتضمن أدوات القوة والهيمنة والنفوذ (وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (الزخرف/٥١).

السبب الجامع للطغيان:

والسبب الجامع للطغيان هو حب الدنيا والركون إليها والتعلق بزخارفها (فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) (النازعات/٣٧-٣٩)، والأنانية وتزيين الشيطان، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (من شغل نفسه بغير نفسه تحير في الظلمات، وارتبك في الهلكات، ومدّت به شياطينه في طغيانه)^(١).

الشعور بالاستقلالية:

وهنا ننقل التفاتة أخلاقية لسيدنا الأستاذ الشهيد الصدر الثاني قدس سره قال: ((وإنما يشعر بالاستغناء إذا (رآه) يعني رأى نفسه بالجنبه الاستقلالية، أو رأى نفسه مستغنياً، أو أنّ رؤيته للنفس هي الاستغناء، أو أنّ هناك ملازمة بين رؤية النفس والاستغناء، فيكون المحصل: إن رؤية النفس سبباً للشعور بالاستغناء،

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٧.

والشعور بالاستغناء سبب للطغيان، أعاذنا الله من كل شر^(١).

عاقبة الطغيان:

فليتبه الطاعني بكل مستوياته وأشكاله الى أن عاقبته سيئة في الدنيا والآخرة
(وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ) (طه/٨١)
(هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ) (ص/٥٥) (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَأْبًا)
(النبأ/٢١-٢٢) (فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)
(النازعات/٣٧-٣٩)، وضرره في الدنيا خطير وسريع، عن أمير المؤمنين عليه السلام: (ما
أسرع صرعة الطاعني)^(٢).

أسوأ الطغيان:

ولا شك أن من أسوأ اشكال الطغيان عصيان أوامر الإمام الحجة المنصوب
على الخلق ومن نصّبه الأئمة المعصومون عليهم السلام حججاً على الخلق ورد في تفسير
قوله تعالى (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ) (الرحمن / ٧-٨)، عن الإمام
الرضا عليه السلام قال (الميزان أمير المؤمنين عليه السلام نصبه لخلقه) وفي معنى (ألا تطفوا في
الميزان) قال (لا تعصوا الإمام)، ومثلها رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال (لا
تطفوا في الإمام بالعصيان والخلاف)، وقال: (أطيعوا الإمام بالعدل ولا تبخسوه
حقه)^(٣).

(١) مئة المنان: ٥٦٩/١.

(٢) غرر الحكم: ٩٥٢٦.

(٣) راجع مصادرها في تفسير البرهان: ١٨١/٩.

وورد عن الإمام الصادق في تفسير قوله تعالى (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ) (الزمر/١٧)، فخطب عليه السلام أحد أصحابه بالبشارة في هذه الآية (أنتم هم -أي المقصودون بقوله تعالى فبشر عباد- ومن أطاع جباراً فقد عبده) وعن الإمام السجاد عليه السلام قال (أيها المؤمنون لا يفتننكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في الدنيا) وعن الإمام الباقر عليه السلام قال (إياكم والولائج فإن كل وليجة دوننا فهي طاغوت).

وروي عن الإمام الصادق قال (مرَّ عيسى بن مريم على قرية قد مات أهلها... فقال: يا أهل هذه القرية فأجابه منهم مجيب: لبيك يا روح الله وكلمته، فقال: ويحكم ما كانت أعمالكم؟ قال: عبادة الطاغوت وحب الدنيا... قال: كيف كانت عبادتكم للطاغوت؟ قال: الطاعة لأهل المعاصي).

حينما يتجذر الطغيان في النفس:

ولأن الطغيان يزداد ويتركز في سلوك الفرد إذا استكبر عن سماع النصيحة والموعظة والارشاد، ولم يراجع نفسه ويحاسبها، ﴿اتَّوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ الذاريات ٥٣ ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ الطور ٣٢، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (ومن طغى ضلَّ على عمد بلا حجة) ^(١) وحينئذ يتجذر في ذات الإنسان وطبيعته حتى يصبح صاحبه مثلاً للطغيان فيسمى (طاغوتاً) وحينئذ يكون قدوةً للطغيان والتمرد والمعصية وداعياً لها ومعيناً عليها ويسنّ القوانين المخالفة لشريعة الله تعالى بسوء توفيقه فيضل أمة من الناس

باتباعه، قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة/٢٥٧).

ليحذر الرساليون من مجاملة المستغنين:

ولذا كانت مجاملة المستغنين الطاعين ومداھنتهم بحجة كسبهم وهدايتهم من التصرفات الخطرة على الدين خصوصاً للمتصدّين في العمل الرسالي لأنها تؤدي إلى مزيد من التمرد والطغيان وإغراء لهم بالمضي في هذا الطريق وإقصاء الفقير، قال تعالى ملفتاً نظر النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة ومحذراً منها (أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَرْكَبَ * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) (عبس: ٥-١٠).

العلاج القرآني لحالة الشعور بالغنى:

وانتهت الآيتان محل البحث بإعطاء العلاج لتطهير القلب والنفس من هذه الرذيلة ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ العلق ٨ فإذا التفت إلى هذه الحقيقة وإنه سيموت ويرجع إلى ربّه، فإنه يتيقن من أن غناه وهمّ زائل وإن كل ما بيده سيفنى ويزول، وسيحاسبه ربّه على طغيانه وتمرده ويأوي إلى شر مآب، ولذا ورد في بعض الأدعية ما يذكرنا بهذه الحقيقة (الحمد لله الذي قهر عباده بالموت والفناء) ليرغم أنف الطاعين.

في التطبيقات الاجتماعية:

وإذا انتقلنا إلى تطبيقات الآية لنحوّل القرآن الكريم إلى واقع عملي، فإنّ هذه المتلازمة المنافية لمنطق العقل تتجلى في حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً، ولنبدأ

من داخل الأسرة حيث يغترّ الرجل بسلطته وقيمومته فيطغى ويظلم أهل بيته وكم رأينا من رجال لما صار بأيديهم مال أهملوا أهلهم وتوجهوا إل اللهو والمتعة أو الوقوع في أسر الشهوات الجنسية أو عدم مراعاة مشاعر زوجته ونحو ذلك فيخرب بيته بيده.

والمرأة تعتدّ بنفسها لجمالها أو لأنها من الأسرة الفلانية أو لأن لها مرتباً شهرياً جيداً أو لشهادتها الراقية ونحو ذلك فتشعر بالاستغناء عن الرجل وتطغى وتتمرد وتتعالى وتقصّر في واجباتها فتنهدم أو اصر العلاقة الزوجية. ومن الأمثلة على ذلك طغيان بعض حملة العلم واستعلاؤهم وترفعهم عن الآخرين ورفضهم النصح والتذكير واستهزاؤهم بمن يقوم بذلك، وفرض وضع خاص للتعامل معهم كعدم الرضا الا بتقبيل اليد وإظهار التبجيل والتعظيم لهم ونحو ذلك.

أما طغيان الزعامات ومن بيدهم شيء من السلطة فقد ملأ التاريخ بمصائبه وكوارثه، وكذا الزعامات الاجتماعية كبعض رؤساء العشائر والمتنفذين وأمثالهم.

خذ مثلاً أيضاً الغرب الذي اغترّ بالتقدم العلمي الذي توفّر لديه حتى غزا الفضاء وظن أنه قادرٌ على أن يحقق كل ما يريد فطغى وتجبر واستغنى عن ربّه وكفر به وصار التفكير المادي هو قائده ورائده ونسي ضعفه وعجزه وقصوره ونحوها من اللوازم لذاته حتى يأتيهم أمر ربهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا

كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿يونس ٢٤﴾

بأس الله تعالى في المستغنين:

وقد شهد التاريخ الماضي والحاضر كيف ينهار الطغاة وهم في أوج عنفوانهم كفرعون، (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) (الشعراء/٥٣-٥٤) وكان جزاؤهم (فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الَّيْمِ مَا غَشِيَهُمْ) (طه/٧٨) وكفارون (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ) (القصص/٨١) وكهارون العباسي الذي يخاطب السحاب (أينما تمطري فخرأجك لي) وإذا به يمرض مرض الموت وهو في ريعان الشباب فيأمر بحفر قبره وكان يقف عليه ويقرأ الآيات الكريمة (مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ) (الحاقة/٢٨-٢٩) وشهدنا في العصر الحديث كيف قُتل الرئيس المصري أنور السادات عام ١٩٨١ وهو في قمة طغيانه ويستعرض قواته المسلحة في ذكرى حرب ٦/تشرين الأول ويملؤه زهو القوة والمقدرة، وهكذا.

على كل هؤلاء وكل من يطغى ويتمرد ويستكبر أن يستحضر قدرة الله تعالى، قال تعالى ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (فصلت/١٥) أعاذنا الله تعالى وإياكم من تزوين الشيطان وخداع الدنيا والنفس الأمارة بالسوء.

(ومن يئوت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً)^(١)

[البقرة : ٢٦٩]

نحاول فهم معنى الآية الشريفة والاستفادة منها عملياً في حياتنا من خلال توضيح عدة نقاط:

معنى الحكمة:

١- معنى الحكمة وحقيقتها:

الحكمة أخذت من (الحَكْمَة) وهو لجام الدابة الذي يمنعها من التَّحَمُّم والاضطراب ويضبط حركتها فكذلك الحكمة لجام للنفس الامارة بالسوء والشهوات والنزوات والانفعالات وترشد افعال الانسان بما يوافق العقل والفطرة. وأصل الكلمة (حَكَمَ) بمعنى (مَنَعَ) ولكن ليس مطلق المنع وإنما ما كان لإصلاح وسمي الحكم حكماً لأن الحاكم العادل يمنع الظلم وسمي العلم حكمة لأنه يمنع المتصف به من الجهل، لذا فهي تعني الاتقان والإحكام وإحسان العمل وسميت الآيات محكمات لأنهن متقنات لا تقبل الاختراق.

الحكمة في القرآن واللغة:

فالحكمة - بحسب ظاهر القرآن الكريم واللغة لا ما شيده الفلاسفة و اضافوا فيه من عندياتهم - ما يضبط تفكير الانسان وإرادته وتوجهاته وسلوكه في الاتجاه

(١) القيت من قناة النعيم الفضائية في محرم/١٤٣٦ الموافق ٢٠١٤/١١.

الصحيح وتكون له بوصلة حياته، فتبدأ بالعلم النافع والمعرفة الحقة وتنتهي بالعمل بمقتضاها والأخذ بهما ثم اتمامها بالثبات على ذلك، وقد قيل في تعريف الحكمة اقوال عديدة تدرج ضمن هذا الإطار فقليل بأنها (إصابة الحق بالعلم والعقل) وانها (تحقيق العلم وإتقان العمل) أو (ما يمنع من الجهل والاصابة في القول) (وقال ابن دريد كل ما يؤدي الى مكربة او يمنع من قبيح، وقد يطلق على العلوم الفائضة من جنبه تعالى على العبد بعد العمل بما يعلم)^(١).

كل ما يوصل الى الأهداف السامية من الخلقة:

وكذلك فسرت الروايات الشريفة الحكمة الواردة في الآيات القرآنية بتفسير عديدة هي عبارة عن مصاديق وآليات لهذا الإطار العام أي كل ماله دخل في الوصول الى الهدف، ففي الكافي والمحاسن للبرقي وتفسير العياشي (عن الامام الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) فقال: (طاعة الله ومعرفة الامام) وفي الكافي عن الامام الصادق عليه السلام في تفسير الآية (قال عليه السلام: معرفة الإمام واجتناب الكبائر التي أوجب الله عليها النار) وفسرها الامام الباقر عليه السلام بالمعرفة وروي عن الامام الصادق انه قال (إن الحكمة: المعرفة والتفقه في الدين فمن فقه منكم فهو حكيم)^(٢) وفي الحديث النبوي الشريف (القرآن منار الحكمة)^(٣).

(١) بحار الانوار: ٢١٥/١.

(٢) نقلها عن مصادرها في البرهان: ١٧٤/٢.

(٣) نور الثقلين: ٢٨٧/١.

شرف الحكمة:

٢- شرف الحكمة وفضلها:

وقد اكتسبت الحكمة أهمية كبرى في حياة الساعين الى الكمال والراغبين في رضوان الله عز وجل، لما ورد فيها من الفضل والشرف حيث وصفتها الآية الكريمة بانها خير كثير، وجعل تحصيلها الغرض من بعث النبيين (صلوات الله عليهم أجمعين) قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ (آل عمران : ٨١) وعن نبينا ﷺ قال تعالى (وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (آل عمران ١٦٤) (الجمعة ٢) وفي الحديث النبوي الشريف (كلمة الحكمة يسمعها المؤمن خير من عبادة سنة)^(١) وفي مواضع عيسى عليه السلام (إن الحكمة نور كل قلب)^(٢) وعن النبي ﷺ قال (كاد الحكيم أن يكون نبياً)^(٣)، وفي كتاب منية المريد للشهيد الاول قدس سره أنه مكتوب في التوراة قول الله تبارك وتعالى (عظم الحكمة فأني لا أجعل الحكمة في قلب أحد إلا وأردت أن أغفر له فتعلمها ثم أعمل بها ثم ابذلها كي تنال بذلك كرامتي في الدنيا والآخرة)^(٤)، لانها كما وصفها الامام الصادق عليه السلام (الحكمة ضياء المعرفة وميزان التقوى وثمره الصدق، وما انعم الله على عبد من عباده نعمة انعم واعظم وأرفع اجزل وابهى من الحكمة للقلب، قال الله عز وجل (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ

(١) ميزان الحكمة: ٤٣١/٢.

(٢) ميزان الحكمة: ٤٣١/٢.

(٣) ميزان الحكمة: ٤٣١/٢.

(٤) بحار الانوار: ٢٢٠/١ ح ٥٧.

مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (البقرة ٢٦٩)، أي لا يعلم ما أودعت وهيأت في الحكمة إلا من استخلصته لنفسه وخصصته بها، والحكمة هي النجاة وصفة الحكمة الثبات عند أوائل الأمور والوقوف عند عواقبها، وهو هادي خلق الله الى الله تعالى، قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام (لأن يهدي الله على يدك عبداً من عباد الله خير لك مما طلعت عليه الشمس من مشارقها الى مغاربها)^(١).

ولأهمية طلب الحكمة الموصلة الى الله تعالى التي فسرتها بعض الروايات بالتفقه بالدين لم يجد الأئمة عليهم السلام عذراً لتارك طلبها، روى البرقي في المحاسن عن الامامين الصادقين عليه السلام (لو اتيت بشاب من شباب الشيعة لا يتفقه لأدبته) قال وكان أبو جعفر عليه السلام يقول: تفقهوا وإلا فأنتم اعراب)^(٢).

ضالة المؤمن:

٣- الحكمة ضالة المؤمن:

ولذا اصبح طلب الحكمة والبحث عنها من صفات المؤمنين بغض النظر عن مصدرها انطلاقاً من كلمة أمير المؤمنين عليه السلام (لا تنظر الى من قال وأنظر الى ما قال)^(٣)، عن أمير المؤمنين قال (الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق) وفي كلمة أخرى (فأطلبوها ولو عند المشرك تكونوا أحق بها

(١) مصباح الشريعة: ١٩٨-١٩٩.

(٢) المحاسن: ٢٢٨، كتاب المصاييح، باب ١٥ ح ١٦١.

(٣) غرر الحكم: ح ١٠١٨٩.

وأهلها).

وهذا الطلب للحكمة من اي مصدر كان له ما يبرره، من مواعظ عيسى عليه السلام قال (لو وجدتم سراجاً يتوقد بالقطران في ليلة مظلمة لأستضأتم به ولم يمنعكم منه ريح ننته، كذلك ينبغي لكم ان تأخذوا الحكمة ممن وجدتموها معه ولا يمنعكم منه سوء رغبته فيها)^(١).

ووصف الحكمة بانها ضالة المؤمن يحمل عدة معانٍ منها:

أ- ان صاحب الضالة - وهو الحيوان الشارد التائه - كما لا يستقر له قرار حتى يجد ضالته، كذلك المؤمن عليه ان لا يتوقف عن السعي لطلب الحكمة، حتى يقتنصها من اي مصدر كان.

ب- إن الضالة ملك لصاحبها فيأخذها من دون منازع، وعلى كل من يجدها أن يعيدها الى صاحبها وكذلك الحكمة فأن المؤمن أحق بها فلا بد من إيصالها اليه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (كلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو احق بها).

ت- كما ان الضالة تبقى قلقة مضطربة عند من يلتقطها حتى تعود الى صاحبها وراعيها لأنسها به وبرعايته ورفيقاتها في الحضيرة، كذلك الحكمة لا تستقر عند غير صاحبها فيخرجها ليلتقطها المؤمن الذي هو صاحبها وبهذا المعنى وردت كلمات عديدة، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (خذ الحكمة أنى كانت، فان الحكمة تكون في صدر المنافق فتلجج في صدره حتى تخرج فتسكن الى

(١) راجع مصادر الكلمات في ميزان الحكمة: ٤٣٢/٢.

صواحبهـا في صدر المؤمن).

تحروا الحكمة:

المطلوب تحري الحكمة والموعظة واقتناصها من كل شيء حولك وتحويلها الى سلوك عملي (قيل للقمان: ممن تعلمت الحكمة؟ قال من العميان: لأنهم لا يضعون أقدامهم في محل حتى يختبروه) و(قيل للقمان ممن تعلمت الأدب؟ فقال: ممن لا ادب لهم فأجتنبت كل ما استهجنته منهم)^(١).

وهذا وجه لفهم سبب ورود الفعل في الآية مبنياً للمجهول (وَمَنْ يُؤْتَ) (أوتيتي) رغم ان الواهب معروف وهو الله تعالى لكن في ذلك اشارة الى ان الحكمة امر مرغوب ومطلوب بغض النظر عن مصدرها.

تقسيمات الحكمة:

٤- تقسيمات الحكمة :

وفي ضوء ما تقدم ومن استقراء الآيات الكريمة والروايات الشريفة نتوصل الى ان الحكمة على ثلاثة اقسام^(٢)، وهي في الحقيقة ثلاث مراتب ومراحل ودرجات تفضي الواحدة الى الاخرى بفضل الله تبارك.

اولها: الحكمة العلمية: وهي العلوم والمعارف التي اتى بها الانبياء والمرسلون والائمة (صلوات الله عليهم اجمعين) لتكميل نفوس الناس وتشمل علوم العقائد والاخلاق والشريعة والمواعظ والامثال والسنن الالهية والآيات

(١) راجع مصادرها في حكم لقمان للريشهري: ٨.

(٢) ذكر العلماء تقسيمات اخرى، وانما ذكرنا ما يرتبط بفكرة البحث.

الكونية ونحو ذلك، وقد تضمنها القرآن الكريم لذا وصف بالحكيم ووصفته آياته بقول الله تعالى ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ (الإسراء : ٣٩) وجعل ايصال هذه الحكمة وتعليمها هدف بعثه النبيين، قال تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (آل عمران : ١٦٤) ومثلها (الجمعة : ٢) و (البقرة : ١٢٩، ١٥١).

ثانيا: **الحكمة العملية** : وهي الممارسة العملية المؤدية الى التكامل من خلال الالتزام وتطبيق تلك الحكمة العلمية، وسياتي في روايات كثيرة اطلاق الحكمة على جملة من هذه الممارسات.

ثالثها: **الحكمة الحقيقية** : وهي حالة الانكشاف والنورانية التي يهبها الله تعالى لمن نجح في المرحلتين السابقتين وهو العلم والفقه الحقيقي المقصود في الآيات والروايات كقوله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) (فاطر : ٢٨).

ونتيجه حصول المعرفة بحقائق الاشياء هبة من الله تعالى، ففي الآية محل البحث (يؤتي الحكمة من يشاء) وقال في حق لقمان الحكيم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ (لقمان : ١٢).

كيفية الحصول على الحكمة:

٥- مقدمات الحصول على الحكمة:

الآية صريحة بأن الحكمة فضل من الله يؤتيه من يشاء، وفي الحديث عن

امير المؤمنين عليه السلام (لا حكمة الا بعصمة)، اي من الله تعالى، ومع هذا فان لتحصيل الحكمة مقدّمات ومقومات فينبغي تحقيقها، وموانع تجب ازالتها، اي ان لتحصيلها ركنين اشارت اليها الروايات الشريفة.

أ- ايجاد المقدمات مثل ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال (رأس الحكمة مخافة الله) وعن امير المؤمنين عليه السلام قال (حفظ الدين ثمرة المعرفة ورأس الحكمة) وعنه عليه السلام قال (رأس الحكمة تجنب الخداع) وعنه عليه السلام (رأس الحكمة لزوم الحق وطاعة المحق).

ب- ازالة الموانع مثل ما ورد عن امير المؤمنين عليه السلام قال (اغلب الشهوة تكمل لك الحكمة) وعن الامام الصادق عليه السلام قال (من زهد في الدنيا اثبت الله الحكمة في قلبه وانطق بها لسانه) وفي الحديث القدسي في المعراج (يا احمد ان العبد اذا أجاج بطنه وحفظ لسانه^(١) علمته الحكمة، وان كان كافرا تكون حكمته حجة عليه ووبالا، وان كان مؤمنا تكون حكمته له نورا وبرهانا وشفاءا ورحمة، فيعلم مالم يكن يعلم ويبصر مالم يكن يبصر، فأول ما ابصره عيوب نفسه حتى يشتغل عن عيوب غيره، وابصره دقائق العلم حتى لا يدخل عليه الشيطان)، وعن امير المؤمنين عليه السلام (التخمة تفسد الحكمة، البطنة تحجب الفطنة) وعنه عليه السلام (لا

(١) ليس فقط عن المحرمات بل عن فضول الكلام ايضا، روي في عدة مصادر (ان لقمان كان عبداً لداود - عليه السلام - وهو يسرد الدرع فجعل يُفثله هكذا بيده، فجعل لقمان عليه السلام يتعجب ويريد ان يساله، وتمنعه حكمته ان يساله، فلما فرغ منها صبّها على نفسه وقال: نعم درع الحرب هذه، فقال لقمان: الصمت من الحكمة وقليل فاعله، كنت اردت ان اسالك فسكت حتى كفيته) الدر المنثور ٥١٣/٦ ومصادر اخرى ذكرها في الهامش مفردات الراغب (٤٥٠).

تجتمع الشهوة والحكمة).

وفي كلام منسوب لأمر المؤمنين عليه السلام (من اخلص لله اربعين صباحا يأكل الحلال صائما نهاره وقائما ليله اجرى الله سبحانه ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: (الغضب ممحقة لقلب الحكيم، ومن لم يملك غضبه لم يملك عقله)^(٢).

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: (إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع، ولا تعمر في قلب المتكبر الجبار؛ لأن الله جعل التواضع آلة العقل)^(٣).

وعن عيسى عليه السلام: (إنه ليس على كل حال يصلح العسل في الزقاق^(٤)، وكذلك القلوب ليس على كل حال تعمر الحكمة فيها، إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل - أي ييس - أو يتفل - أي تكون فيه رائحة نتنة - فسوف يكون للعسل وعاء، وكذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات ويدنسها الطمع ويقسها النعيم فسوف تكون أوعية للحكمة)^(٥).

(١) حكم لقمان للريشهري : ٢٦ عن مسند زيد بن علي : ٣٨٤.

(٢) البحار: ٧٨ / ٢٥٥ / ١٢٩ و ص ٣١٢ / ١ و ١٤ / ٣٠٧ / ١٧ و ٧٨ / ٣٧٠.

(٣) البحار: ٧٨ / ٢٥٥ / ١٢٩ و ص ٣١٢ / ١ و ١٤ / ٣٠٧ / ١٧ و ٧٨ / ٣٧٠.

(٤) الزق وعاء من الجلد كالقربة يُتخذ لحفظ ونقل المائعات كالعسل والدبس ونحو ذلك.

(٥) البحار: ٧٨ / ٢٥٥ / ١٢٩ و ص ٣١٢ / ١ و ١٤ / ٣٠٧ / ١٧ و ٧٨ / ٣٧٠.

وعن الإمام الهادي عليه السلام: (الحكمة لا تنجع في الطباع الفاسدة)^(١).
وعن الإمام علي عليه السلام: (غير منتفع بالحكمة عقل معلول بالغضب
والشهوة)^(٢).
وعنه عليه السلام: (غير منتفع بالعظاات قلب متعلق بالشهوات)^(٣).

آثار الحكمة:

٦- من اثار الحكمة على السلوك :

وقد نبّهت الروايات الى عدد من السلوكيات التي تعتبر من آثار وجود
مرتبة من مراتب الحكمة لدى الانسان، اي ان الحكمة لا بد ان تظهر لها آثار على
صاحبها، عن رسول الله ﷺ قال (ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا بد له
من معاشرته، حتى يجعل الله له من ذلك مخرجاً)، وعن امير المؤمنين عليه السلام قال
(ليس الحكيم من لم يدار من لا يجد بداً من مداراته) وعنه عليه السلام قال (ليس بعاقل
من انزعج من قول الزور فيه، ولا بحكيم من رضي بثناء الجاهل عليه) وعنه عليه السلام:
(الحكماء اشرف الناس انفساً، واكثرهم صبراً، واسرعهم عفواً واوسعهم اخلاقاً).

لقمان الحكيم:

٧- لقمان ينال الحكمة:

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان : ١٢] فهو ممن وصل مرتبة

(١) البحار: ٧٨ / ٢٥٥ / ١٢٩ وص ٣١٢ / ١ و ١٤ / ٣٠٧ / ١٧ و ٧٨ / ٣٧٠

(٢) غرر الحكم: ٦٣٩٧، ٦٤٠٦، ٧٢٠٥، ٨٧٠٦، ٦٩٩١.

(٣) غرر الحكم: ٦٣٩٧، ٦٤٠٦، ٧٢٠٥، ٨٧٠٦، ٦٩٩١.

الحكمة الحقيقية، روي عن رسول الله ﷺ قوله (حقاً أقول : لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكير حسن اليقين، أحب الله فاحبته ومن عليه بالحكمة)^(١). ومن كلماته الحكيمة التي رواها الأئمة المعصومون عليه السلام وهو يوصي ابنه (يا بني ان الدنيا بحر عميق قد هلك فيه عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الايمان، واجعل شراعها التوكل، واجعل زادك فيها تقوى الله، فان نجوت فبرحمة الله ، وان هلكت فبذنوبك).

يا بني: خف الله خوفاً لو اتيت القيامة ببر الثقلين خفت ان يعذبك، وارح الله رجاءاً لو وافيت القيامة بأثم الثقلين رجوت ان يغفر لك).

(واعلم أنك ستسأل غداً اذا وقفت بين يدي الله عز وجل عن اربعة: شبابك فيما ابليته، وعمرك فيما افنيته، ومالك فيما اكتسبته وفيما انفقته، فتأهب لذلك واعده له جواباً، ولا تأس على ما فاتك من الدنيا فان قليل الدنيا لا يدوم بقاءه، وكثيرها لا يؤمن بقاءه، فخذ حذرَكَ وجدَّ في امرِكَ).

ومثل هذه الكلمات لا يكفي ان نقرأها او نسمعها ونمر عليها بل لابد من الاحتفاظ بها ومراجعتها باستمرار وتكفلت كتب بجمع هذه الحكم كموسوعة (ميزان الحكمة).

التأسي بلقمان الحكيم:

٨- هل يمكن ان تكون مثل لقمان الحكيم:

والجواب : نعم، لان ايتاء الحكمة فضل من الله تعالى مفتوح ومعرض

(١) هذه الاحاديث من حكمة لقمان في ميزان الحكمة ٤٤١/٢.

لكل من يستحقه ولذا حُثَّت الآية الكريمة على ان نكون من اهلها، وذلك اذا سرت على المنهاج المؤدي لتحصيلها كالذي وصفه رسول الله ﷺ آنفاً عن لقمان الحكيم علماً وعملاً وقد ورد في روايات توصيف عدد من اصحاب اهل البيت عليهم السلام انهم مثل لقمان الحكيم فقد روي عن الامام علي عليه السلام في وصف سلمان الفارسي (من لكم بمثل لقمان الحكيم، وذلك امرؤ منا اهل البيت، ادرك العلم الاول وادرك العلم الاخر، وقرأ الكتاب الاول وقراء الكتاب الاخير بحر لا ينزف)^(١).

بل عن الامام الصادق عليه السلام (سلمان خير من لقمان)^(٢) وورد مثل ذلك في ابي حمزة الثمالي ويونس بن عبد الرحمن فقد روى الفضل بن شاذان قال : سمعت الثقة يقول: سمعت الرضا عليه السلام يقول : (ابو حمزة الثمالي في زمانه كالقمان في زمانه، وذلك انه خدم اربعة منا: علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وبرهة من عصر موسى بن جعفر عليه السلام، ويونس بن عبد الرحمن كذلك هو سلمان زمانه)^(٣).

هذه هي الحكمة التي فيها خير كثير، فاطلبوها طول عمركم ودوتوا ما ترزقون منها في دفتر خاص لتستفيدوا منها دائماً وتراجعوها وتعتظوا بها وتتخذوها برنامجاً لحياتكم.

(١) بحار الانوار : ١٠ / ١٢٣ ح ٢.

(٢) بحار الانوار : ٢٢ / ٣٣١ ح ٤٢.

(٣) رجال الكشي : ٣٠٢ ترجمة يونس بن عبد الرحمن.

التحلي بالحكمة لا بالعبادة فقط:

٩- الحكمة اساس لتقييم الاشخاص:

صحيح ان الدين اساس تقييم الاشخاص فيعطى قيمة اكبر كلما كان التزامه باحكام الشريعة اذق واكثر إلا ان الدين لا يقتصر على العبادات المعروفة، فاذا اردنا التعامل مع شخص كمصاحبه و مصادقته او تزويجه ومصاهرته، فانه لا يكفي ان يكون ملتزماً بالواجبات الدينية المعروفة كالصلاة والصوم وتجنب الكبائر كشرب الخمر والزنا وان كان في هذا خير كثير، وانما نبحت ايضا عن حكمته وتعقله لان الحكمة عُبر عنها في الكثير من الاحاديث بالعقل، وذلك يعني ان نختبر حسن تصرفه ومعاشرته وتعامله وانه يضع الامور في مواضعها ويتحلى بالحكمة والاخلاق الفاضلة، وقد وردت في ذلك احاديث شريفة، منها ما اشتهر عن اهل البيت عليهم السلام روايتهم لحديث جدهم المصطفى صلى الله عليه وآله (اذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجهوا لا تفعلوا تكن فتنة في الارض وفساد كبير)^(١). فلم يكتف الحديث بان يكون دينه مرضيا بل ان تكون له حكمة في تصرفاته.

(١) وسائل الشيعة : كتاب النكاح : ابواب مقدماته وادابه / باب ٢٨.

القبس القرآني

١٠

(لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ

مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) ^(١) [الرعد : ١١]

الملائكة الحارسة

معنى التعقيب:

التعقيب هو ان يأتي شيء بعد شيء ويتلوه كتعقيب الصلاة بالدعاء والذكر بعدها مباشرة، وأستعير للولد وولد الولد فسُموا اعقاباً لأنهم يتلون ابائهم ويخلفونهم، قال تعالى (لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) (الرعد : ٤١) اي لا يوجد من يملك حق المراجعة والنظر في حكم الله تعالى وفعله ومعارضته والغائه، وهي جملة خبرية تنبئ عن هذه الحقيقة، وبنفس الوقت تفيد انشاء النهي عن الخوض في البحث عن علة التشريعات والجدوى منها وحكمتها اذا لم يرد بها بيان شرعي كالنهي عن الخوض في القدر والذات الالهية.

والاعتقاب: ان يتعاقب شيء بعد آخر كاعتقاب الليل والنهار، فالمعقبات ^(٢)

(١) كلمة القاهها سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) يوم الجمعة ١٥/ذح/١٤٣٥ الموافق ١٠/١٠/٢٠١٤ تزامناً مع احتفال المسيحيين الكاثوليك بعيد الملائكة الحارسة.

(٢) هذا ما اردنا بيانه من وجوه تفسير الآية، ويمكن أن يكون معناها ان هذه الملائكة تتعقب الانسان وتحفظ عليه كل شيء حتى لحظات العيون وخطرات الظنون، فيكون الضمير في (له) يرجع للإنسان ويكون قوله تعالى (مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) متعلقاً بالمعقبات وليس بـ(يحفظونه) بل تكون

في الآية ملائكة تتعاقب على العبد حافظة له، وهي جمع مفردة معقبة، ومعناها الجماعة التي تتعاقب أو انها صيغة مبالغة من معقب كالعلامة أو البحاثنة أو الرحالة.

الرحمة الغيبية:

فالآية تبين لنا حقيقة غائبة عنا ولا نستطيع ان ندركها بأبصارنا وحواسنا لأنها من عالم الغيب، وتعدُّ من نعم الله تعالى على عباده التي لم يُلْتَفَت إليها، وهي ان له تعالى عند كل احد ملائكة تتعاقب عليه في جميع اوقاته لتحفظه بأمر الله تعالى من امر الله الذي قضى بجريان السنن والقوانين التي تحكم عالم الموجودات أن تؤثر فيه، كما ان الله تعالى يغلب رحمته بأمره تبارك وتعالى على عدله الذي هو من امره تعالى (يا من سبقت رحمته غضبه).

ومن هذا القبيل ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام انه كان جالساً الى جدار آيل للسقوط ثم قام عنه لثلا يسقط عليه فقيل له: يا امير المؤمنين عليه السلام: أتفرُّ من

كلمة (يحفظونه) كالبيان التوضيحي وإلا فان كلمة معقبات كافية للدلالة على هذا المعنى، وهذا المعنى لعله انسب بسياق الآيات السابقة ويوحد مرجع الضمائر (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ، عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ، سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ، لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) (سورة الرعد: ٨-١١)، وقد ورد هذا المعنى في آيات اخرى كقوله تعالى (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) (سورة الانفطار: ١٠-١٢)، وقال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) (الأنعام: ٦١) وعملها في طول قوله تعالى (وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ) (سبأ: ٢١)، لان الملائكة موصوفون بانهم (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) الأنبياء: ٢٧.

قضاء الله ؟ قال عليه السلام (أفر من قضاء الله إلى قدره عز وجل) ^(١).

في جريان القضاء والقدر:

اي ان الله تعالى قضى ووضع قوانين كلية تسيّر هذا الكون كاقضاء السقوط من شاهق الى الارض تكسّر العظام والموت، او اقتضاء الغرق في الماء انقطاع النفس والموت، الا ان يتخذ التدابير المانعة من ذلك، او يمتنع اصلاً من المضي في هذه الافعال، فالقوانين المؤثرة هي قضاء الله تعالى، اما قدره فهو تحقيق اسباب جريان هذه القوانين والانسان هو الذي يختار هذا الطريق او ذاك وعندئذٍ يقدر الله تعالى له ما يشاء بحسب المقدمات التي يختارها بنفسه.

يحفظونه من أمر الله:

وفي رواية عن الامام الباقر عليه السلام يفسّر فيها قوله تعالى يحفظونه من امر الله قال عليه السلام (بأمر الله، من ان يقع في ركيّ - وهي البئر - او يقع عليه حائط او يصيبه شيء حتى اذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه، يدفعونه الى المقادير، وهما ملكان يحفظانه بالليل، وملكان بالنهار يتعاقبانه) ومثله ^(٢) حديث عن الامام الصادق عليه السلام وفي نهج البلاغة عن امير المؤمنين عليه السلام (ان مع كل انسان ملكين يحفظانه فاذا جاء القدر خلّيا بينه وبينه).

هذه الحقيقة يستطيع ان يدركها الفطن الواعي ببصيرته ووجدانه عندما يلتفت الى احتمالات الخطر والضرر المحيطة به من لدن تكوّنه حملاً في بطن امه

(١) توحيد الصدوق ص ٣٦٩.

(٢) راجعها في تفسير البرهان : ١٩٤/٥.

وبعد ولادته ونموه طفلاً صغيراً وفي كل مراحل حياته، فلو فكر في حصول خلل ما في تركيب جسمه ووظائف أعضائه أو عندما يركب الطائرة أو السيارة أو يمارس عملاً معيناً ثم يتصور ما يمكن أن يحصل له فإنه يصاب بالذهول والرعب وانهيار الأعصاب لكن الله تعالى سخر الملائكة المتعاقبة لتدفع عنه كل تلك الاحتمالات ويستمر في حياته ويعمر طويلاً، بل قد يتعرض فعلاً لحوادث خطيرة ثم يخرج منها سالماً معافى.

الحفظ المعنوي:

وينبغي الالتفات أيضاً إلى الحفظ المعنوي - إذا صح التعبير - وذلك من خلال تأثير الملائكة الحافظة في الدعوة إلى فعل الطاعة وتزوينها وترغيب الإنسان فيها، وتجنب المعصية وتكرهها للإنسان وهو ما يسمى بالتوفيق واللفظ الذي يجريه الله تعالى على أيدي ملائكته، وقد يكون الأمر أكثر من ذلك بأن تهيب له موضوع الطاعة كأن تجعله يلتقي بشخص محتاج لمساعدته أو تأتي به إلى مكان يستمع موعظة مفيدة تنفعه أو يذهب باتجاه معين ثم يحس بداخله ما يدعوه إلى تغيير مساره فيجد نفسه أنه قد ازداد حسنة أو اجتنب سيئة، وبالمقابل تجنبه موارد المعصية وتحول بينه وبينها أو توجد موانع لارتكابها، حتى لو ارتكبها فإن تلك الملائكة تمنع حصول تداعيات وآثار سلبية لها عليه.

في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (للمؤمن اثنان وسبعون ستراً فإذا اذنب ذنباً انتهك عنه ستر، فإن تاب رده الله إليه وسبعة معه، وإن أبى الا قدماً قدماً في المعاصي تهتك استاره، فإن تاب ردها الله إليه ومع كل ستر

منها سبعة، فان ابى الا قدما قدما في المعاصي تهتك استاره، ويبقى بلا ستر واوحى الله تعالى الى ملائكته ان استروا عبدي بأجنتكم^(١).

فهذه الملائكة موكله من قبل الله تعالى بحفظ الانسان من جريان القوانين الطبيعية التي اودعها الله تعالى في الكون على خلاف مصلحته وخيره رحمة وفضلا من الله تعالى فالإنسان أعجز من ان يواجه وحده كل تقلبات الكون وأحداثه وحوادثه والعوامل المؤثرة فيه وهي كلها من أمر الله تعالى.

درسان مستفادان من الآية:

ونستطيع الان ان نستخلص من الآية درسين مهمين في حياة الانسان:

١- تطمينه من قبل الله تبارك وتعالى بأن مع كل انسان من يحفظه ويرعاه ويدفع عنه كل ما لا يلائم صلاحه، فلا داعي الى القلق والمخاوف والهواجس المرعبة مما يحصل في المستقبل القريب او البعيد، هذا القلق الذي تعاني منه الشعوب في الغرب رغم توفر اسباب الترف والحياة المنعمة وتؤدي ببعضهم الى الانتحار ليتخلص بزعمه من هذا الرعب والخوف ولو التفت الى هذه الحقيقة القرآنية لاطمأن بوجود رب شفيق رحيم ودود يرعاه ويخصص ملائكة لحفظه ورعايته.

٢- في الآية تكريم عظيم للإنسان من خالقه بأن يجعله اداة تنفيذ عملية الاصلاح وتحقيق السعادة التي يريد الله تعالى لخلقه، وتدعوه الى أن يتحمل بنفسه مسؤولية التغيير ولا يترك الأمر للعوامل الخارجية لكي تتصرف في البشر

وتنتهي الى نتائج خارجة عن اختياره، لان الله تعالى كلف الملائكة بأن تمنع من هذه التأثيرات.

دوام حفظ الملائكة بالأعمال الصالحة:

فلإنسان باعتباره عاقلاً مختاراً دور في هذه العملية فيستطيع ادامة عمل هذه الملائكة الحفظة بان يلح في الدعاء مثلاً او يتصدق فيدفع البلاء او ينشئ المؤسسات النافعة أو ينشر العلوم المثمرة والأخلاق الفاضلة أو يقوم بأعمال صالحة فيكفر عن سيئاته التي تجلب له سوء، وقد يعرقل عمل هذه الملائكة الحفظة ويجعلها ترفع يدها عنه كما لو قطع رحمه فتسبب في تقصير عمره، او ارتكب من الذنوب ما ينزل النقم او تسلب النعم او تجس الدعاء ونحو ذلك، او ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فتسبب في تسلط الاشرار، بحسب ما افادته الآيات الشريفة.

لذلك جاء في تكملة الآية (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: ١١) فالمعقبات الحفظة ليس عملهم مطلقاً غير مشروط ولا محدود بل هو مطلق لكل الناس الى مقدار معين ثم يكون مشروطاً باختيار الانسان حتى لا يتساوى المحسن والمسيء، وحتى تظهر آثار من أحسن عملاً، وعاقبة من اساء عملاً على كيانهما ووجودهما، في مجمع البيان عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الآية قال (انهم ملائكة يحفظونه من المهالك حتى ينتهوا به الى المقادير فيخلون بينه وبين المقادير) وفي هذه الحقائق ردّ على من قال بحتمية التاريخ أو الجبر ونحو ذلك من النظريات السالبة لدور الانسان في التغيير.

عيد الملائكة الحارسة لدى الكاثوليك:

مما يجدر ذكره ان المسيحيين الكاثوليك يحتفلون يوم ١٠/٢ بعيد الملائكة الحارسة ونقلت المواقع الالكترونية عن بابا الفاتيكان فرانسيس قوله في قداسه اليومي في الكنيسة الصغيرة الملحقة بمقر اقامته في الفاتيكان (ان هناك ملائكة حارسة، وإن العقيدة الخاصة بالملائكة ليست من صنع الخيال بل هي واقع، وبحسب تقليد الكنيسة فنحن جميعاً لدينا ملاك معنا يحمينا ويساعدنا على فهم الاشياء) وأضاف (ان لا أحد يقطع رحلة الحياة بمفرده ويجب الا يعتقد أحد أنه وحيد) وتساءل موضحاً هذه الحقيقة (كم من المرات سمعنا : عليّ أن افعل هذا وعليّ ألا افعل ذاك فانه ليس صائباً وكن حذراً، نسمع ذلك في احيان كثيرة، إنه صوت ملاكنا الذي يرافقنا).

وأشار الى مدخلة اختيار الانسان في هذه الحقيقة بقوله (ان احتمالات اتخاذ قرارات خاطئة تكون اقل بين الاشخاص الذين يستمعون الى نصائحها) لذلك أقترح على المشككين أن يسألوا أنفسهم (كيف هي علاقتي مع ملاكي الحارس؟ هل استمع اليه؟ هل اقول له صباح الخير؟ هل أطلب منه ان يحرسني اثناء نومي) واسئلته هذه طبعاً تنطلق من المستوى الذي يراه للعلاقة مع ربّه أو مع الملائكة.

واعتقد انه بذلك يرّد بشكل غير مباشر على الذين يبلغ بهم الجزع في الحوادث المؤلمة الى حد إنكار وجود هذه الملائكة الحافظة او انكار وجود الله عز وجل أصلاً، ومثال الاول سلفه البابا بنديكتوس السادس عشر الذي أصر عام ٢٠١٢ على نفي وجود ملائكة تنشد خلال ميلاد السيد المسيح - بحسب تعبيره -.

ومثال الثاني كبير اساقفة كاتربري جاستن ويلبي الذي يتزعم ٨٠ مليون شخص ينتمون الى المذهب الانجليكي المسيحي في العالم فقد كشف في لقاء^(١) مع الصحافية لوسي تيغ للبي بي سي (انه يشك احياناً بوجود الله ويتساءل لماذا لم يتدخل العلي القدير لمنع الظلم) وروى ما خطر بباله حين كان يركض ذات صباح مع كلبه مؤخراً وقال (قبل ايام كنت ابتهل اثناء الركض وانتهى بي المال الى مخاطبة الرب : أنظر ! إن هذا كله أمر حسن ولكن ألم يحن الوقت لأن تفعل شيئاً إذا كنت موجوداً؟) لكنه استدرك واعترف بعجزه وقال: (نحن لا نستطيع أن نفسر كل المسائل في العالم، لا نستطيع أن نفسر ما يتعلق بالمعاناة، لا نستطيع أن نفسر كثيراً من الاشياء) وحين سئل عما يفعله في مواجهة تحديات الحياة أدعى (انه يدعو المسيح ان يساعده وهو يلتقطني)، وأظن ان شكوكه هذه ناشئة من القلق والرعب الذي يسود الغرب بعد أن قويت شوكة الارهاب وانخرط فيه الالاف من مواطنيهم ممّا يشكل تهديداً خطيراً لبلدانهم.

الحل القرآني:

أقول: لقد حل القرآن الكريم كل هذه الاشكالات وأجاب عن التساؤلات لان الملائكة الحافظة موجودة وتؤدي عملها للجميع إلا ان الانسان بسوء اختياره يوقف مساعدتها له في مرحلة معينة بمعاصيه وذنوبه فيجبر على نفسه البلاء، رغم كثرة ما يغفر الله تعالى من الذنوب.

قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(١) نشر اللقاء على المواقع الإلكترونية في شهر ٩ / ٢٠١٤.

(الشورى: ٣٠)، إلا ان سُنّة الامتحان لا بد أن تمضي فيكافأ المُحسن على احسانه والمسيء على أساءته وإلا ستكون المساواة بينهما عين الظلم، ولنأخذ امثلة من واقعهم، مثلاً تجري منافسات على كأس العالم فتفوز دول وتخسر اخرى فيحزن جمهورها ويبكي وقد ينتحر بعض المتعصين، فهل يصح ان نقول ان من الظلم السكوت عن هذه الالام وعلينا ان نعطي كأس البطولة لجميع الدول حتى لا يتألم احد.

ونفس الشيء يحصل لطلبة الجامعات والمدارس ولا يوجد عاقل يطالب بمساواة الجميع واعطائهم كلهم درجات النجاح لكي لا يتألم احد، وهذا ما خفي على اسقف كانتربري والتفت اليه بابا الفاتيكان وطلب من الناس اتباع نصائح الملائكة الحارسة.

(خلق السماوات بغير عمد ترونها)^(١)

[لقمان: ١٠]

سَقْفًا مَّحْفُوظًا:

ذكرت الآية عدداً من النعم الالهية ومعجزات الخلق قال تعالى (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) لقمان / ١٠.

خلق الله السماوات بكل تفاصيلها الهائلة الممتدة بغير حدود كالسقف للأرض الضئيلة التي نسبتها اليها كالعدم وهذه حقائق فلكية يعرفها حتى غير المختصين ممن له اطلاع على عجائب الكون. قال تعالى: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ) الأنبياء \ ٣٢، ومحفوظاً يمكن ان يكون معناها حافظاً اذ قد ياتي اسم المفعول بمعنى اسم الفاعل كقوله تعالى: (حِجَابًا مُسْتُورًا) اي ساتراً، وقد ثبت علمياً ان غلاف الجو الغازي المحيط بالارض يقيها من اخطار الشهب والنيازك الساقطة عليها من جهاتها المختلفة.

والسقوف تحتاج الى اعمدة لتستند عليها لكن السماوات لم تستند الى اعمدة مرئية كالأعمدة المتعارفة وانما ثبتت واستمرت في وجودها واداء وظائفها، وفق مستندات غير مرئية، في رواية حسين بن خالد عن الامام الرضا عليه السلام انه قال:

(١) كلمة مرتبطة بالخطاب التالي عن قوله تعالى (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ).

(سبحان الله! اليس الله يقول (بغير عمد ترونها) قلت: بلى، قال: ثمَّ عمد ولكن لا ترونها)^(١) وهي قوانين نظمَّ الله تعالى بها حركة الكون كقانون الجاذبية والكثافة والسرعة والكتلة ونحو ذلك، فهذه حقيقة علمية اشارت اليها الآية.

من عجائب خلق الكون:

وجعل تعالى على الارض جبالا راسيات تشبيهاً بالمرساة التي تثبت السفينة في البحر وتحافظ على توازنها وتقودها الى الاستقرار على الساحل، وكذلك الجبال تحافظ على توازن الارض واستقرار حركتها وحفظها من الميلان والاضطراب، ولولاها لكانت الارض كالأرجوحة او كالبالون المنفوخ عندما يندفع الهواء منه بقوة فتتقاذفه الغازات من موضع الى اخر بلا استقرار وكذلك يحصل للأرض بسبب الغازات الهائلة في باطنها، او كانت الارض كالمياه التي تتعرض للمد والجزر باستمرار بفعل تأثيرات جاذبية القمر، فكانت الجبال سبباً لجعل (الأرض مهاداً) النبأ / ٦ لأنها تعمل كسلسلة مترابطة الجذور مثل حديد التسليح للكونكريت، وهذه حقيقة علمية ثانية.

في معنى: وبث فيها من كل دابة

(وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) ونشر على الارض وفي المياه التي تغطي سطحها هذا التنوع الهائل من المخلوقات التي تدب فيها بحركة دائبة، ففيها من احادية الخلية الى الانسان ذي التركيب المعقد مما يعطي جمالية وتوازناً وتلبية للأذواق، وليظهر الله تعالى قدرته وعلمه وحكمته، وليقيم الحجة على من يتصور عجز

الخالق عن ايجاد شكل من الاشكال او نوع من الانواع^(١)، وكُنَّا نقرأ في علم الحيوان ان عدد انواع الطيور فقط (٩٠٠) الف نوع بحسب ما توصّلوا اليه آنذاك. فهذا التنوع معجزة من معجزات الخالق وحقيقة علمية يذكرها ولكل من هذه الانواع خصائصه وتركيبه الذي يناسب دوره في هذه الحياة، لتدحض ما زعمه دارون في نظريته (اصل الانواع)^(٢)، اذ ليست هذه الانواع مراحل متدرجة مرّت بها المخلوقات وارتقت فيه من نوع لآخر حتى وصلت الى ارقاها وهو الانسان، بل هي مخلوقة بهذا التنوع وبقيت على هذا التنوع ولم ينقلب احدها الى آخر.

معنى: وأنزلنا من السماء ماء

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) تعمر به الحياة (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ) [الأنبياء: ٣٠] وهياً تعالى السماء والارض والمياه والرياح والحرارة وكل ما له دخل بنزول المطر بكيفيات تنظّم هذه النعمة وتديمها وهذه القوانين لا تدع اي

(١) في علل الشرائع: ١/ ١٤ بسنده عن الامام الرضا عليه السلام وقد سئل: لِمَ خلق الله سبحانه وتعالى الخلق على انواع شتى ولم يخلقهم نوعا واحدا، قال عليه السلام: (لئلا يقع في الاوهام انه عاجز ولا يقع صورة في وهم ملحد الا وقد خلق الله عز وجل عليها خلقا لئلا يقول قائل: هل يقدر الله عز وجل على ان يخلق صورة كذا وكذا، لانه لا يقول له من ذلك شيئا الا وهو موجود في خلقه تبارك وتعالى فيعلم بالنظر الى انواع خلقه انه على كل شيء قدير).

(٢) اختصر عالم الاحياء المجهرية المشهور البروفيسور (ميشيل دانتون) في كتابه (التطور: نظرية في مازق) رده على نظرية دارون في قوله (في عالم الجزئيات والاحياء المجهرية لا يوجد هناك كائن حي يعدّ جدا لكائن اخر، ولا يوجد هناك كائن اكثر بدائية، او اكثر تطورا من كائن اخر) باعتبار كل كائن (ميسر لما خُلق له) بحار الانوار - ج ٥ ص ١٥٧.

عاقِل يحتمل ان القضية عشوائية ووجدت صدفة^(١) وهذه حقيقة علمية رابعة في الآية.

(فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) لقمان/١٠ وهذه الزوجية في النباتات وحاجتها الى التلقيح كالإنسان والحيوان بالطرق المختلفة المعروفة حقيقة علمية اخرى، ووُصِف النبات بانه كريمٌ لعطائه الواضح فهو غذاء الحيوان والانسان على كثرة افرادهما، ولأن الله تعالى نسبه اليه فنال التكريم بهذه النسبة، ولاظهار كمال العناية بهذه القضية انتقل بالضمير في هذا المقطع من الغائب الى المتكلم.

الخلق والتدبير والقيومة:

ولعل هذه العناية الاضافية لأن هذه العجيبة - انزال المطر وانبات الارض - امتزج فيها الخلق مع التدبير والقيومة التي هي من شؤون الربوبية وهي محل خلاف المشركين الذين لا ينكرون الخالق لله تعالى وحده ولا يدعون لآلهتهم ذلك (وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) لقمان/٢٥، وانما يزعمون ان الهتهم تدبر الكون وان الخالق اوكل اليها شؤون التصرف في المخلوقات (أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) يوسف/٣٩ فيحتج عليهم بان تلك الالهة لو كان لها تدبير لكان عليها ان تخلق ادوات ووسائل هذا التدبير كإنزال الماء من السماء وانبات الارض، واذا عجزوا عن الخلق فهم عاجزون عن التدبير، فلا مدبر ولا رب ولا خالق ولا اله الا الله تبارك وتعالى.

(١) قدمنا بعض التفاصيل عنها في محاضرة سابقة بعنوان (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) الملك /٣٠.

فهذه حقائق علمية عديدة ومعجزات هائلة في الخلق جمعتها اية واحدة
فكان مجيئ اية (هَذَا خَلَقُ اللَّهِ) تلقائيا وطبيعيا بعد الآية المذكورة.

(هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه)^(١)

[لقمان: ١١]

معنى الخلق:

(هَذَا خَلَقُ اللَّهِ) أي هذه مخلوقات الله تعالى فـ (خلق) اسم مصدر بمعنى المفعول، في تفسير القمي (هَذَا خَلَقُ اللَّهِ) أي مخلوق الله، لأن الخلق هو الفعل، والفعل لا يُرى وإنما أشار إلى المخلوق، وإلى السماء والأرض والجبال وجميع الحيوانات فأقام الفعل مقام المفعول^(٢).

ماذا وجد من فقدك:

(فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) من الآلهة والشركاء التي يدعونها، وهذه الدعوة تتضمن عدة معانٍ:

١- تحدي المشركين والملحدين والكفار ليقدموا ما صنعتهم الهتهم التي يعبدونها من دون الله، فإذا عجزوا - وهم عاجزون قطعاً حتى عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب منه وهم يعلمون بعجزهم - فليذعنوا بألوهية الله تبارك وتعالى

(١) من حديث سماحة المرجع الشيخ العقوبي (دام ظله) مع حشد من أطباء الاختصاص واساتذة في كلية الطب والصيدلة من عدة مدن عراقية يوم السبت ١٤/محرم الحرام/١٤٣٦ المصادف ٢٠١٤/١١/٨.

(٢) تفسير البرهان: ٧ / ٢٧٨.

وليثوبوا الى رشدهم وليحترموا عقولهم، فالآية فيها تحدي وتعجيز وانتزاع للإقرار منهم.

٢- اظهر حب الله لخلقه وتكريمه تعالى اياهم واحترامه لهم باعتبارهم صنعا جميلا له تبارك وتعالى حتى انه سبحانه يتباهى بهم امام الآخرين فيقول (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) كما ان الصنّاع المبدعين يتباهون بما صنعوا امام اهل المهنة والزبائن.

٣- تذكير عباده بنعمته العظيمة ومعجزاته في خلقه التي يغفلون عنها لطول الفتهم لها واعتيادهم عليها ولجهلهم او أي شيء اخر فتراهم يقفون مبهورين امام جهاز يصنعه الانسان ويتقن صنعه لكنهم يمرّون معرضين على هذا الخلق العجيب.

٤- الفات نظرهم الى تجليات صفاته الحسنی في صنعه من القدرة والعلم والحكمة والعظمة والإنعام ونحو ذلك ليزدادوا معرفة بربهم (سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (فصلت / ٥٣).

الذين ظلموا أنفسهم:

وهنا يأتي الحكم النهائي الذي يصدره كل عاقل منصف على من لم يُدْعن بهذه الحقائق وليتوجه الى خالقه الحقيقي (بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) لقمان/ ١١، الذين ظلموا انفسهم بعدم اتباع الحق (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان/ ١٣) رغم كل هذه الحجج الدامغة (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) (الأنعام / ١٤٩)،

فعبدوا وخضعوا لآلهة من دون الله تعالى سواء كانت مادية صنعوها من الحجر أو الخشب أو التمر أو اعتبارية صنعوها من شهواتهم وحماقاتهم أو صنعها الآخرون من جبايرة وطواغيت أو أسواق مالية أو الفن أو الرياضة ونحو ذلك من الرموز التي تعبد وتطاع من دون الله تعالى، فمن أضل من هؤلاء، ومن هو أحمق وأجهل منهم (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف ١٧٩).

العلم والإيمان جناحا المعرفة:

بعد هذا العرض المختصر لما نفهمه من الآية الكريمة نقول انكم - معاصر الأطباء والمتخصصين في العلوم الطبية والعلاجية - اقدر الناس على فهم المعاني التي ذكرتها لهذه الآية من الانبهار والتحدي بخلق الله تعالى والافات النظر الى عظيم نعم الله تعالى لأنكم وقفتم على التفاصيل المذهلة في جسم الانسان وفي كل ذرة من ذراته حتى خاطبه الشاعر:

أتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ويكون ايمانكم وتدينكم حينئذٍ ذا قيمة اكبر لأنه عن معرفة ووعي وبرهان

قرأت كتاباً في فلسفة جسم الانسان صدر في اوائل سبعينيات القرن الماضي أبان المواجهة بين الايمان والالحاد وكان عنوانه (الطب محراب الايمان) وهي اطروحة دكتوراه في هذا الاختصاص وذُهِلَتْ من عجائب خلق الانسان وبنفس الوقت اصابني الرعب لان اي اختلال في موازين هذه القوى

والهرمونات او اداء اعضاء لوظائفها - وهي عبارة عن مصانع معقدة ضخمة - فانه يؤدي الى كارثة صحية تجعل الحياة بائسة لولا لطف الله تبارك وتعالى.

فهنيئاً لكم هذه النعمة العظيمة اذ بعد تحصيلكم لهذا العلم الشريف وُقِّمتم لممارسته هذه المهنة النبيلة ذات الوزن الكبير في ميزان الاعمال الصالحة لان فيها انقاذ حياة الناس والتخفيف من آلامهم وادخال السرور عليهم وتفريج الكرب عنهم وهي من اعظم القربات الى الله تعالى وثوابها عند الله عظيم في الدنيا والاخرة مع اخلاص النية والعمل لما عند الله تبارك وتعالى.

تجارة مربحة:

هذا ولكن الامام الحسين عليه السلام يدلُّنا على تجارة اربح من تجارتكم العظيمة هذه، وتستطيعون الجمع بينهما من خلال حديثه الآتي، قال عليه السلام لرجل: (ايهما احبُّ اليك، رجل يروم قتل مسكين قد ضعُف تنقذه من يده، او ناصب يريد اضلال مسكين من ضعفاء شيعتنا تفتح عليه ما يمتنع به ويفحمه ويكسره بحجج الله تعالى) قال عليه السلام: (بل انقاذ هذا المسكين المؤمن من يد هذا الناصب، ان الله تعالى يقول (مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا) المائدة ٣٢ اي ومن احيائها وارشدها من كفر الى ايمان فكأنما احيا الناس جميعا من قَبْلَ ان يقتلهم بسيوف الحديد)^(١).

فهذه المعرفة وهذا الايمان الذي اكتسبتموه من مشاهدة وبرهان مع ما تضيفون اليه من معارف دينية واخلاقية وفكرية تستطيعون نقلها للآخرين

(١) بحار الانوار: ٢ / ٩ ح ١٧ عن تفسير العسكري: ٣٤٨ / ح ٢٣١.

فتجعلون منها وسيلة للهداية والاصلاح وتحصين اخوانكم من الانحراف فتسيرون بذلك على خطى الانبياء والمرسلين والائمة (صلوات الله عليهم اجمعين).

ان مجتمعنا خصوصا جيل الشباب يتعرضون لهجمات متنوعة من الداخل والخارج مليئة بالشبهات والفتن والضلالات لإبعادهم عن الدين القويم والصراف المستقيم فلا بد من ان تتعبوا انفسكم وتسلحوا بالعلم والمعرفة ونشرها لتحصين شبابنا من الانحراف الفكري والاخلاقي.

تأتيني رسائل عديدة من الشباب عبر الايميل يتحدثون فيها عما يتعرضون له اثناء ايفادهم خارج العراق من مؤثرات وغسيل دماغ بأساليب علمية ينبهر بها المتلقي فيتبع اجنداتهم، وهم مخادعون يعطونه نصف الحقيقة، ويوهمونه انها تنفي وجود الخالق او تؤدي الى عدم الحاجة الى الدين ونحو ذلك ولو اعطوا الحقيقة كاملة لوجدوها لا تنافي الدين على اقل تقدير وربما ستجدها مؤيدة للشواهد الدينية بل ان تعاليم الدين سبقت العلم الى الكثير من الحقائق التي اكتشفها لاحقا وقد رأينا كيف صوروا نظرية اصل الانواع او الانفجار العظيم او علم الدايانتكس على انها تنفي وجود الخالق مع انها على العكس تماما ولكن تحتاج الى اخذ المعلومة كاملة.

(وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ ... لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا)^(١)

[الفتح: ٢٥]

قال تعالى (وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (الفتح - ٢٥).

السياقات التاريخية للآية الكريمة:

الآية من سورة الفتح التي سجّلت الفتح المبين الذي منّ الله تعالى به على نبيه الكريم ﷺ وعلى المسلمين بصلح الحديبية الذي انقلبت فيه موازين القوى ومعادلة الصراع بين المؤمنين والمشرّكين حيث كسر الله تعالى شوكة المشركين بقيادة قريش وشتت شملهم واصبحوا يُغزون في عقر دارهم وكانوا قبل عام من ذلك يحشدون عشرة الاف من الاحزاب و يحاصرون المدينة وأهلها، فصاروا يطلبون من النبي ﷺ الصلح والرجوع عن مكة ذلك العام، مما مهد الطريق لانتشار الاسلام في جزيرة العرب وفتح مكة، وكل ذلك تحقق بدون قتال، قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (الفتح-٢٤)، ودع عنك ذكر بعض

(١) كلمة القاها سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) يوم الجمعة ٢٦-صفر -

١٤٣٦ الموافق ١٩-١٢-٢٠١٤ وعرضت من قناة النعيم الفضائية.

اصحاب النبي ﷺ الذين لم يفهموا هذا الفتح المبين فاعترضوا على رسول الله ﷺ وشككوا في مصداقيته كما ورد في كتب العامة.

معنى الآية الكريمة:

وجواب (لولا) في الآية محل البحث غير مذكور ولكنه يعرف من هذه الآية السابقة عليها، أي لولا وجود هؤلاء لما كفَّ الله تعالى أيديكم وأيديهم عن القتال الذي كان سينتهي حتماً بانتصار المسلمين كما في الآية السابقة عليهما (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (الفتح-٢٢).

فيكون معنى الآية انه لولا وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات ما زالوا يقيمون بين المشركين يخفون اسلامهم تقية واستضعافاً او لمصالح معينة لكونهم عيوناً للنبي ﷺ على المشركين وانتم لا تعرفونهم، لأوقع الله تعالى القتال بينكم وبين قريش وقد اقتحمتهم عليهم ديارهم والنصرُ لكم، لكن الله تعالى كفَّ أيديكم وأيديهم عن القتال، حمايةً لكم ولأولئك المؤمنين، لأنكم بسبب جهلكم بهم فيخشى عليكم من إصابتهم بقتل أو جرح فتصيبكم بسبب ذلك (معرّة) أي ضرر وعار في الدنيا أو الآخرة، لأن المشركين سيعيرون المسلمين ويقولون أن هؤلاء مجرمون قساة لم يرحموا حتى جماعتهم المؤمنين، وسيقولون أيضاً أن النبي ﷺ لم يراعي حرمة بيت الله الآمن فقاتل على أرض الحرم.

ولو تزيل هؤلاء المؤمنون أي انفصلوا وتباينوا عن مجتمع المشركين لوقع العقاب على الكافرين خاصة (لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا) من دون محذور، كما ان الفريقين مترايلون يوم القيامة فيحل العذاب بالكافرين.

والغرض الآخر الذي لوحظ في تجنب القتال وكفّ الأيدي عنه هو قوله تعالى ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (الفتح: ٢٥) أي لإعطاء مزيد من الوقت والفرصة حتى يخرج المؤمنون من وسط قريش ويأووا إلى كهف رسول الله ﷺ الرحيم، أو حتى يهتدي من يشاء الله من هؤلاء المشركين والمعاندين، وهؤلاء لا تعرفون عنهم شيئاً أكيداً، فلو تزيل هؤلاء أي تحقق الغرض بهداية من يريد الله تعالى هدايته وانفصالهم عن المشركين لعذبنا الذي كفروا فالكفّ عن القتال يحقق مصلحتين:

- ١- دفع الخطر عن المؤمنين غير المعروفين ودفع المعرة عن المسلمين.
- ٢- إعطاء الفرصة لهداية المزيد من الأعداء للإيمان.

من معاني الرحمة في الآية:

وهذه الرحمة لا تختص بالقوم الموجودين في ذلك الزمان، بل يشمل من سيأتون لاحقاً كما ورد عن أهل البيت (عليهم السلام) في عدة روايات^(١)، وفي إحداها قال الراوي للإمام الصادق (عليه السلام): ما بال أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يقاتل فلاناً وفلاناً؟ قال (عليه السلام) (لآية في كتاب الله عز وجل (لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً) (الفتح-٢٥) قال: قلت: وما يعني بتزاييلهم؟ قال (عليه السلام) (ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين، وكذلك القائم (عليه السلام) لن يظهر أبداً حتى تخرج ودائع الله عز وجل، فإذا خرجت ظهر على من ظهر من أعداء الله عز وجل فقتلهم)^(٢).

(١) ذكرها في تفسير البرهان: ٧١/٩.

(٢) عن كمال الدين وتمام النعمة للشيخ الصدوق: ٦٤١.

سنة الله في عباده:

وهذه سنة الهية ثبتها القرآن الكريم في قصة النبي نوح عليه السلام، لذلك فإنه عليه السلام لم يستنزل العذاب على قومه إلا بعد أن حصل عنده اليأس من ولادة شخص مؤمن، قال تعالى (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا، إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) (نوح ٢٦-٢٧) ولكن العذاب لم ينزل إلا عندما أخبره الله تعالى بهذه الحقيقة وعندئذ أيقن النبي نوح عليه السلام بنزول العذاب، قال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ) (هود ٣٦-٣٧).

دروس من الآية:

والآن بعد أن فهمنا أكثر من وجه لتفسير الآية نستطيع استنباط عدة دروس

من الآية:

١- ان الغرض الذي يجب أن يكون ماثلاً دائماً أمام كل القادة والعاملين في السلم وفي الحرب وفي كل عمل هو إدخال الناس في الرحمة الإلهية (لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) لأن الغرض من الخلق رحمتهم (إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (هود-١١٩) فالرحمة المُشار إليها في الآية يمكن أن يكون المقصود بتحصيلها المؤمنين المستضعفين المتخفين بإيمانهم، أو المؤمنين الموجودين في أصلاب المشركين ولو بعد عدة أجيال، أو لنفس المشركين بأن يُوفقوا للإيمان، وقوله تعالى (من يشاء) ليس اعتباطياً وإنما مبني على أهلية الشخص وقابليته وحسن اختياره، لأن الله تعالى حكيم والحكيم يضع

الاشياء في مواضعها.

فليست الحرب في الاسلام لتوسيع النفوذ وبسط السلطة وجني المزيـد من المكاسب والمغانم وإنما لشمول الناس بالنفحات الالهية فإذا تحقق ذلك بالسلم والكف عن القتال فقد تحقق الغرض ولا معنى للحرب، فليفهم المعترضون على تشريع الاسلام للقتال.

٢- إن الآية تعطينا تفسيراً لصبر أمير المؤمنين عليه السلام على الظلم الذي لحق به وبالصديقة الزهراء عليها السلام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وعجز الكثيرون عن فهم موقفه عليه السلام لذا بادروا الى إنكار أصل الموضوع مع تسليم المصادر بوقوعه، لكن أمير المؤمنين عليه السلام كان يعلم بما علمه الله تعالى من أن في أصـلاب هؤلاء من يكونون موالين عاجلاً أو آجلاً ولو قتلهم فإنه سيقطع نسلهم ويحرم أولئك من الكمال.

٣- وتعرفنا أيضاً على سرٍّ من أسرار طول غيبة الامام المهدي عليه السلام وهو استفراغ الوسع في إخراج المؤمنين من أصـلاب الكافرين والمنافقين وتوفير فرصة الهداية لكل البشر كما ان النبي نوح عليه السلام لبث طويلاً في قومه (ألف سنةٍ إلّا خمسين عاماً) (العنكبوت-١٤) للوصول الى هذه النتيجة فلا نستغرب من طول غيبة الامام عليه السلام - وان ضاقت صدور المؤمنين بذلك - لأنه مُدّخر لإقامة دولة العدل الالهي، واذا كان النبي المعصوم المزوّد بالعلم اللدني يعجز عن معرفة هذا الوقت فيظن انهم لا يلدون الا فاجراً كفاراً فكيف يعرفه الجهلة، وفي هذا جواب للمشككين والمتسائلين.

٤- ان الله تعالى يدفع بالمؤمنين عن غيرهم (وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ
وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ.... لَعَذَّبْنَا) وفي رواية عن الامام الصادق عليه السلام: (إن الله يدفع بمن
يصلي من شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا، ولو اجتمعوا على ترك الصلاة لهلكوا.
وإن الله ليدفع بمن يزكي من شيعتنا عمن لا يزكي من شيعتنا، ولو اجتمعوا على
ترك الزكاة لهلكوا. وإن الله ليدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج، ولو اجتمعوا
على ترك الحج لهلكوا وهو قول الله عز وجل: (وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)^(١).

وقد قلت في الخطاب الفاطمي في نيسان من العام الماضي ان تخاذل
الكثيرين عن نصره القانون الجعفري ومعارضة البعض الآخر حتى أجهضوه كانت
سبباً في التقدير الإلهي لنزول بلاء عام لولا نصره البعض للقانون وحماسهم للدفاع
عن إقراره وتثقيف الأمة على المطالبة به، وبعد شهرين من ذلك نزلت بلاءات لم
نكن نعهدها من سقوط عدة محافظات بيد داعش وتهجير الملايين وتدمير المدن
وأخذ النساء سبايا ووقوع مذابح بالآلاف جملة واحدة وكادت تسقط بعض
المدن المقدسة لولا أن الله تعالى رفع جزءاً من البلاء ببركة تلك النصره، فأقرأوا
جيداً السنن الإلهية وتأثيرها في الحياة لئلا تتكرر الأخطاء والخطايا الكارثية.

ولا زالت الفرصة موجودة لانهم قرروا في حينها تشكيل لجنة علمائية للنظر
في القانون وآلية اقراره وقد مرّت مدة كافية لإنجاز هذا الامر والله المستعان.

٥- إن الكف عن القتال كان رعاية لجمع من المؤمنين أن يصيبهم

(١) البرهان ١٤٥/٢: نقلاً عن تفسير العياشي ١٣٥/٤٤٦.

ضرر جهلاً بغير علم (لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ) وهذا يكشف حكمة المرجعية الرشيدة في توقفها عن الاذن بالتشكيلات الشعبية المسلحة إلا في ساحات المواجهة والدفاع عن الدين والنفس والعرض والمال، واشترطت أن يكون العمل العسكري منضبطاً ومحدوداً بإشراف قيادات مهنية وكفوءة ومخلصة ونزيهة وأن ينال المتطوعون تنقيفاً كاملاً حول واجباتهم الدينية والوطنية وتدريباً جيداً وتسليحاً يناسب المعارك التي يدخلونها، أما اطلاق الدعوة للناس عامة من دون وضع التدابير والخطط لتحقيق هذه الشروط وتنظيم العمل والسيطرة عليه، فإنه تقع هذه المحاذير التي ذكرتها الآية الشريفة، حيث تتناول وسائل الاعلام هذه الايام وقبلها اخباراً عن وقوع انتهاكات وجرائم بحق الابرياء من قبل المندسين والجهلة والمتعصبين والنزقين الذين لم يتعرفوا على آداب وأخلاق العمل العسكري وأهدافه وقوانينه الشرعية والمهنية، فالجهد الشعبي غير المنظم يلزم منه الوقوع في هذه الكوارث، فكيف وهم لا يعلمون ولا يميزون المسلمين الابرياء (لم تعلموهم) (بغير علم).

٦- عدم اليأس من صلاح الناس وهدايتهم مهما رتعوا في الكفر والشرك فمن الممكن شمولهم بالرحمة الالهية فقد دخل المشركون بعد ذلك في الاسلام طوعاً أو طمعاً أو لأي سبب آخر، وعلى العاملين أن يستمروا في محاولاتهم فإن كل شيء ممكن عند الله تعالى (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ) (الغاشية ٢١-٢٢) وان الاسلام قادر على استيعاب حتى اعنى الناس واكثرهم همجية ووحشية كالمغول الذين اكتسحوا العالم الاسلامي

وأوغلوا فيه قتلاً وتدميراً، وما اسرع ما دخلوا في الاسلام واصبحوا جزءاً من المجتمع المسلم وآمن كثير منهم بولاية أهل البيت عليه السلام.

وقد وجهت في عدد من لقاءاتي مع المسؤولين بأن يكون من اولوياتنا في مواجهة داعش والقاعدة والتنظيمات الارهابية الأخرى هدايتهم وإقناعهم وإلقاء الحجج عليهم وإزالة الشبهات والأوهام عن اذهانهم والغشاوة عن بصائرهم لان أكثرهم مضللون تعرضوا لغسيل الدماغ وقد تناقلت وسائل الاعلام خلال المدة الماضية رجوع كثير منهم الى بلدانهم والتبري من داعش والقاعدة بعد ان اطلعوا على التصرفات المشينة والوحشية لقياداتهم والتقطت عدة رسائل نصية وبريدية لمقاتلين اجانب في العراق وسوريا تبين شعورهم بانهم قد خُدعوا واتخذهم الذين جندوهم كبش فداء لاغراضهم الشيطانية.

فيمكن الاستفادة من مواقع التواصل الاجتماعي للحوار معهم وسلوك الطرق الممكنة للوصول الى عقولهم وقلوبهم وفضح الاجندات المعدة له، كما فعل امير المؤمنين عليه السلام مع أسلافهم من الخوارج عندما حاججهم وناظرهم قبل خوض معركة أمير المؤمنين قتال ثلاثا عددهم (ستة الاف من تسعة) وتركوا عقيدتهم وهو إنجاز عظيم، والشواهد الحاضرة كثيرة أيضاً حيث أن كثيراً من الوهابيين والسلفيين استبصروا بعد الاطلاع على حجج وبراهين أهل البيت عليه السلام عندما تلقى اليهم بالحكمة والموعظة الحسنة من دون استفزاز في بعض البرامج والحوارات الرصينة التي تعرضها الفضائيات فلا نقلل من اهمية هذا التوجه ولنباشر به جميعاً، ولنعطه الجهد الذي يستحقه.

(ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض)^(١) [القصص: ٥]

المستضعفون وخلافة الأرض

أنتم المستضعفون بعدي:

لما عقد المنقلبون على الاعقاب عزمهم على نيل كتاب الله تعالى وراء ظهورهم ومخالفة وصية رسول الله (ﷺ) في الخليفة من بعده وإقصاء أمير المؤمنين (عليه السلام) عن مقامه، وواجهوا النبي (ﷺ) بذلك الكلام القاسي الذي فيه إعلان الحرب على الله تعالى ورسوله (ﷺ) في رزية يوم الخميس عندما أراد أن يؤكد الوصية ويكتب لهم كتاباً لن يضلوا بعده أبداً، وقال قائلهم (إن الرجل ليهجر)، جمع النبي (ﷺ) أهل بيته خاصة ونظر إليهم وبكى وقال لهم (أنتم المستضعفون بعدي)^(٢).

الأحداث المحزنة:

وظاهر الحديث وبقرينة الظروف التي صدر فيها أنه إخبار بأمرٍ محزن ومؤلم بأن زعماء الانقلاب سيظلمونهم ويعتدون عليهم بألوان الإيذاء، ولا

(١) الخطاب الفاطمي السنوي العاشر الذي القاه سماحة المرجع العنقوبي دام ظله على جموع المعزّين بذكرى استشهاده الصديقة الزهراء (عليها السلام) يوم ٣/٢/١٤٣٦ المصادف ٢٤/٣/٢٠١٥.

(٢) تفصيل الواقعة في بحار الأنوار: ٤٦٩/٢٢ عن كتاب (إعلام الوري بأعلام الهدى: ١٤٠-١٤٣)

و (الإرشاد: ٩٦-١٠٠) وأورد الحديث الشيخ الصدوق في عيون أخبار الرضا (2/72): [باب ٣١

يتورعون عن قتلهم وفعل اي شيء يتطلبه مشروعههم، وفي الحديث إشارة إلى أن فعل القوم بأهل بيت النبي (ﷺ) سيثابه فعل فرعون ببني إسرائيل حينما استضعفهم كما في قوله تعالى (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (القصص/٤) وهكذا فعل القوم بآل بيت رسول الله (ﷺ) فقد كان شعارهم الذي صرّحوا به في يوم عاشوراء بعد أن كان مخفياً (لا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية). روى في تفسير القمي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (لقي المنهال بن عمرو علي بن الحسين (عليهما السلام) فقال له: كيف أصبحت يا بن رسول الله، فقال: ويحك أما آن لك أن تعلم كيف أصبحت، أصبحنا في قومنا مثل بني إسرائيل في آل فرعون يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا)^(١).

واستشهد أمير المؤمنين (عليه السلام) بقول هارون أخي موسى (عليهما السلام) (إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي) (الأعراف/١٥٠) عندما أجبروه على بيعه أبي بكر فقال: إن أنا لم أفعل فمه؟ قالوا إذاً والله الذي لا إله إلا هو نضرب عنقك، قال: إذاً تقتلون عبد الله وأخا رسوله) فالتفت إلى قبر النبي (ﷺ) وخاطبه بقول هارون لأخيه موسى في الآية الشريفة^(٢).

الأمل بوراثمة المستضعفين:

ولما كانت الآيات القرآنية لا تختص بزمان دون زمان وإنما تعالج حالات

(١) تفسير القمي: ١١٠/٢.

(٢) الدرر السنية: الفصل الثاني عشر.

وظواهر وتبين سنناً قابلة للتكرار في كل زمان إذا توفرت أسبابها وظروفها، فإن الآية التي تليها وهي قوله تعالى (وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُتِمِّكَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) (القصص ٥-٦) وتعطي للحديث معنى آخر ملؤه التفاؤل والأمل وفيه وعد بالنصر والتمكين في الأرض ووراثتها ومن عليها واستعادة الحق لأهله وجعل الأئمة والقادة منهم لأن الإرادة الإلهية تعلقت بذلك (ونريد) فلا تتخلف (وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ) (الروم ٦)، فوصف النبي (ﷺ) أهل بيته بالمستضعفين فيه إشارة الى انطباق الآية عليهم (عليه السلام) ولعلمهم مقصودون أكثر من موسى وهارون (عليهما السلام) بالوعد الإلهي لورود كلمة (منهم) فيها وليس (منه) أو (منهما) فيما لو كان المقصود موسى (ﷺ) أو هو وأخاه هارون، بل أن لفظ الحديث يفيد حصر الوصف بهم (عليه السلام) كما لا يخفى على المتأمل في الحديث، ويجعلهم أيضاً المقصودين بالآية الشريفة.

هذه سنة الهية ثابتة، في عباده المستضعفين واعدائه المستكبرين قال تعالى (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرُشُونَ) (الأعراف ١٣٧).

وكان الأئمة (عليهم السلام) يصرّحون بهذا المعنى في عدة روايات ليطمئنوا شيعتهم ويزرعوا الأمل فيهم ويدفعوهم الى العمل المثمر وليردعوا أعداءهم عن الظلم، ففي معاني الأخبار للصدوق بسنده عن المفضل قال سمعت أبا عبد الله

عليه السلام يقول (إن رسول الله ﷺ نظر إلى علي والحسن والحسين (عليهم السلام) فبكى، وقال: أنتم المستضعفون بعدي) قال المفضل فقلت له: وما معنى ذلك يا ابن رسول الله قال معناه: أنكم الأئمة بعدي إن الله عز وجل يقول (وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة^(١).

وفي مجمع البيان.. صحت الرواية عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) أنه قال (والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها - أي امتناعها - عطف الضروس^(٢) على ولدها، ثم تلى الآية.

وفي كتاب الغيبة للطوسي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في تفسير الآية قال (هم آل محمد يبعث الله مهديهم بعد جهدهم فيعزهم ويذل عدوهم)^(٣).

والآية جارية بعد الأئمة (عليهم السلام) في شيعتهم، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (من أراد أن يسأل عن أمرنا وأمر القوم - أي خصومهم - فإننا وأشياعنا يوم خلق الله السماوات والأرض على سنة موسى وأشياعه، وإن عدونا وأشياعه يوم خلق الله السماوات والأرض على سنة فرعون وأشياعه فنزلت فينا هذه الآيات)^(٤).

(١) معاني الأخبار: ٧٩ باب ٣١ ح ١.

(٢) وهي الناقة سيئة الخلق تعض حالبها فإذا كانت كذلك حامت عن ولدها، وقيل الضروس الناقة يموت ولدها أو يذبح فيحشى جلده فتدنو منه وتعطف عليه.

(٣) نور الثقلين: ١١٠/٤.

(٤) بحار الانوار: ١٧٠/٢٤ ح ٨.

وقال سيد العابدين علي بن الحسين (عليه السلام): (والذي بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً، ان الأبرار منا أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى وشيعته، وان عدونا وأشياعهم بمنزلة فرعون وأشياعه) ^(١).

فالخصم قد تكون له جولة يغلب فيها وتكون بيده السلطة ويحكم قبضته على أولياء الله تعالى، ويستضعفهم وقد تطول مدة فرغته ولكن الدولة والنصر والغلبة يكون في النهاية لأهل الحق الذين استضعفوا ويذهب ما سواه جفاءً كالزبد.

لماذا سموا بالمستضعفين؟

وإنما سموا مستضعفين لأن أعدائهم يتوهمون فيهم الضعف بعد أن يسلبوهم كل أسباب القوة الظاهرية من السلطة والمال والنفوذ ويحاصروهم ويطوقوهم فيستكبرون عليهم ويظلمونهم، وهم ليسوا ضعفاء في ذاتهم بل انهم يملكون أسباب القوة، لكن لهم دين وورع وأخلاق وخوف الله تعالى يجعلهم يقدمون المصالح العليا للدين والمجتمع على المصالح الشخصية، ويمنعهم عن اتباع أساليب المكر والخداع لتحقيق مآربهم، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (ولكن الله سبحانه جعل رسله أولي قوة في عزائمهم، وضعفةً فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعةٍ تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى) ^(٢).

(١) مجمع البيان: ٣٧٥/٤.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢.

وعنه (عليه السلام) قال في الثناء على أحد أصحابه المخلصين (كان لي فيما مضى أخ في الله وكان ضعيفاً مستضعفاً، فإن جاء الجدّ فهو ليث غاب، وصلّ واد) ^(١).

ما كان لهم الخيرة:

أيها الأحبة المفجوعون بمصيبة بضعة النبي ﷺ وروحه التي بين جنبيه: لقد أرادت السيدة الزهراء (عليها السلام) بمواقفها الرسالية أن تهدي الأمة الى المنهج الذي يوصلهم الى نيل هذا المنّ الإلهي ليتخذ منهم قادة العالم ويمكنهم في الأرض ويجعلهم الوارثين باتباعهم علياً والأئمة من بعده والسير على هداهم، قالت (سلام الله عليها) في بعض كلماتها (أما والله لو تركوا الحق على أهله واتبعوا عترة نبيّه لما اختلف في الله اثنان ولورثها سلف عن سلف وخلف بعد خلف حتى يقوم قائمنا التاسع من ولد الحسين (عليه السلام)، ولكن قدموا من أخره الله، وأخروا من قدمه الله، حتى إذا الحدوا المبعوث وأودعوه الجذث المجدوث إختاروا بشهوتهم وعملوا بآرائهم، تباّ لهم أولم يسمعوا الله يقول (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (القصص ٦٨) بل سمعوا ولكنهم كما قال الله سبحانه (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج ٤٦) هيهات بسطوا في الدنيا آمالهم، ونسوا آجالهم فتعسّأ لهم وأضل أعمالهم، أعوذ بك ياربّ من الحور بعد الكور) ^(٢).

(١) نهج البلاغة، الحكمة ٢٨٩.

(٢) موسوعة المصطفى والعترة للشاكري: ٣٦٣/٤ عن عوالم المعارف: ٢٢٨/١١، الجذث: القبر، والمجدوث: المحفور، والحور بعد الكور أي النقصان بعد الزيادة.

البركة في التوحد خلف القيادة الصالحة:

فالصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام تدلّ الأمة على ان وراثتهم الارض وتمكينهم فيها حتى تكون يدهم العليا وغيرها من البركات تتحقق بوحدتهم خلف قيادتهم الحقّة وطاعتهم لها والتجرد عن الأهواء والتعصبات والانفعالات والتحزّبات والانانيات، وبذلك يحبطون خطط المستكبرين في استضعاف الناس من خلال تمزيق وحدتهم وجعلهم جماعات وأحزاباً ويضرب بعضهم بعضاً، قال تعالى (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) (القصص ٤) اي فرقاً مختلفة فيفقدون قوتهم في صراعاتهم الداخلية ويسهل استضعافهم لانهم لم يقيموا الدين في حياتهم وتخاذلوا على تطبيقه وتركوا فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا) (الروم ٣٢) (أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ) (الأنعام ٦٥) .

حركة الأمة نحو وراثته الأرض:

وتبين السيدة الزهراء عليها السلام، ان حركة الامة نحو وراثته الارض والتمكين فيها

لا بد ان يقف على راسها القائد الجامع للشروط قالت (عليها السلام) في خطبتها على نساء المهاجرين والأنصار وهي تذكر بركات اتباعهم أمير المؤمنين (عليه السلام) (ولأوردتهم منهلاً - وهو محل ورود الماء - نيمراً - الماء العذب السائغ النامي للجسد - صافياً رويّاً - كثير - فضفاضاً - واسعاً - تطفح ضفتاه، ولا يترنق - لا يتكدر - جانباه، ولأصدرهم بطاناً - أي أرجعهم مرتوين مملوئين - ونصح لهم سرّاً وإعلاناً) (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الأعراف ٩٦) (وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ) (الزمر ٥١) (١).

للتمكن في الأرض درجات:

ولا بد ان نعلم ان التمكين في الارض ووراثتها له درجات متفاوتة لا يقتصر على تسلم السلطة والحكم فهذه وسيلة لا غاية وان التمكين الحقيقي هو ظهور وانتشار مشروعهم الالهي واقتناع الناس به فهذا هو المهم لان غرض الرسالات السماوية اصلاح الناس وهدايتهم وارشادهم الى السعادة والفلاح قال تعالى (وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور ٥٥).

في تفسير العياشي عن أبي الصباح الكناني قال: (نظر أبو جعفر الى أبي عبد الله (عليه السلام) فقال: هذا والله من الذين قال الله (وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) فالامام الصادق (عليه السلام) كان من اهل هذه الاية ولم يكن جزءا من السلطة لكنه (عليه السلام) استطاع بحكمته وتسديد الله تعالى له بسط مشروعه المبارك.

التركيز نحو السنن الإلهية بشروطها:

هذا ولكن علينا أن نأخذ قضية تمكين المستضعفين من أهل الحق كسائر القضايا بحدودها وشروطها ونضعها في موضعها الصحيح من منظومة المعارف والقوانين الإسلامية والسنن الإلهية لأنها من مقتضيات العدل والرحمة الإلهية، أما

مجرد تعرضهم للإستضعاف وألوان العذاب لا يجعل صاحبها موعوداً بالنصر والتمكين.

فقد وُصِفَتْ مجاميع أخرى بالاستضعاف لكنها أُنذِرت وحُدِّرت لتقصيرهم وتكاسلهم وظلمهم أنفسهم ولأنهم رضوا بحياة الخنوع والذل والاستضعاف والاستكانة، وربما داهنوا اهل الباطل ومضوا معه، قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (النساء/٩٧).

وَوُيِّخَ مستضعفون آخرون لأنهم كانوا قاصرين ولم يبحثوا عن طريق المعرفة بالله تعالى والفقہ في الدين والقيادة الحقة، قال تعالى (إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) (النساء/٩٨-٩٩).

خصائص المستضعفين:

أما الذين وُعدوا بالنصر والتمكين ووراثه الأرض فلهم خصائص وخصال توفرت فيهم لأن الظلم والعذاب والأضطهاد الذي تعرضوا له لم يدفعهم الى التنازل عن مبادئهم وأخلاقهم والتزامهم بالحق، بل حافظوا على وجودهم وعقيدتهم وأخلاقهم والالتزام باتباع قيادتهم وما زادهم الاستضعاف الا هدى وصلاًحاً ونضجاً.

وقد وردت أوصاف الذين يُمكنون في الأرض في عدة آيات منها قوله

تعالى (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (الحج/٤١)، بعد قوله تعالى في وعدهم بالنصر (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (الحج/٣٩).
فتمكينهم في الأرض تكون له بركات وآثار تكشف عن صدق نياتهم وإخلاصهم في أهدافهم وثباتهم على الاستقامة التي أمرهم الله تعالى بها وعدم انخداعهم بالدنيا البراقة التي تتزين لهم إذا مكن لهم في الأرض وهذه الخصائص هي:

١- (أَقَامُوا الصَّلَاةَ) فهم لا يكتفون بأداء الصلوات المفروضة عليهم كتكليف شخصي، وإنما يبذلون جهدهم لحث الناس جميعاً على الالتزام بها والمواظبة عليها وجعل الصلاة وجوداً اجتماعياً مؤثراً في حياة الناس ورادعاً لهم عن الفحشاء والمنكر ويشعر الجميع بمسؤوليتهم عن إقامته والمحافظة عليه، وأوضح مصداق لهذا الوجود صلاة الجمعة التي لا تؤدى إلا جماعة وبحضورية كبيرة من الناس مما يجعل لها كياناً مؤثراً في حياتهم، وهذا ما جرّبه المجتمع العراقي عندما أقيمت فيه صلاة الجمعة المباركة.

٢- (وَآتَوُا الزَّكَاةَ) بأن أخرجوا ما في ذمهم من حقوق شرعية وأقنعوا الآخرين بفعل ذلك وحشّوهم عليه وساعدوهم في إيصال هذه الأموال إلى مستحقيها وانشأوا بها المشاريع الاقتصادية التي تؤدي إلى رفاه الناس وتوفير فرص العمل المناسبة والحياة الكريمة لهم.

٣- (وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ) فلم يتركوا أهل المنكر

يفعلون ما يشاؤون بل وعظوهم وزجروهم واتخذوا الإجراءات الكفيلة بردعهم حتى لو اقتضى الأمر معاقبتهم، ولم يجاملوا أو يداهنوا كما يفعل الكثير من المتصدين اليوم تحت عناوين مخادعة كالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والمجتمع المدني وفصل الدين عن الدولة والحدثة والعصرنة والتقدم ونحوها من الخدع والأباطيل.

وأمرؤا بالمعروف وهو كل أمر مستحسن شرعاً وعقلاً وأقره العرف، ونشروه بين الناس وعرفوهم به وأيقظوهم من غفلتهم وأرشدوهم إلى ما يصلح دنياهم وآخرتهم وعلموهم أحكام الدين وفصائل أهل البيت (عليه السلام) ومناقبتهم وسيرتهم العطرة، واقنعوهم باتباع القيادة الحقّة.

هؤلاء هم من ينصرهم الله تعالى ويعزّهم ويؤيدهم ويمكن لهم في الأرض.

كالتى نقضت غزلها من بعد قوة:

إن كثيراً ممن مكنهم الله تعالى ليتليهم وينظر في سيرتهم تنكروا لتلك الشروط والصفات المطلوبة فأنحرفوا وأفسدوا، فأوعدهم الله بعذابه (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ) (محمد: ٢٢-٢٣).

كالذي نشهده اليوم من تخلي الكثيرين ممن وصل إلى السلطة عن أهدافهم وشعاراتهم والخصائص التي أشرنا إليها، حتى آل الأمر إلى هذا الواقع التعيس الذي يعاني منه الكثيرون، وهذا كفر عظيم بالنعمة.

لكن بوادى النهضة والانبعث تفجرت من جديد هذه الايام وكانت الهجمة

الوحشية لخوارج العصر ومن يقف وراءهم الضارة النافعة التي وُحِّدَت الأمة
وابرزت مكان من قوتها فتحققت الانتصارات التي اذهلت القريب والبعيد.
ايها الاحبة:

علينا ان نعرف بالعجز عن شكر الله تعالى على التوفيق لاقامة الشعائر
الفاطمية وتشيع السيدة الزهراء عليها السلام للمرة العاشرة وهذا لا ينال الى بنظرة كريمة
منها (سلام الله عليها) اذ لم تأذن لاي احد في تشيعها الا لبضعة افراد من الموالين
المخلصين ونأمل ان تكون هذه النهضة خطوة حقيقية على طريق اقامة دولة الحق
والعدل (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) (الإسراء ٨١).

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ^(١) [التوبة: ١٠٩])

تأسيس بناء الإنسان على التقوى

قال تعالى (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [التوبة: ١٠٩].

بنيان التقوى ورضوان الله تعالى:

تُبَيِّنُ الآية قاعدة أخرى من قواعد السلوك المعنوي والبناء الصالح للإنسان والمجتمع، وقد عُرِضَتْ بشكل استفهام لطلب المقارنة والتمييز بين بنيانين، لكنه ليس استفهاماً حقيقياً لاستحالته في حق الله تعالى ولوضوح الجواب، بل هو استفهام استنكاري لتوبيخ الجهلة وأهل الغفلة والمتعصين والمنافقين الذين لا يميزون بينهما، وهو استفهام تقريرى لترسيخ الاسس المتينة للبنيان الصحيح.

وجاءت الآية بعد المقارنة السابقة عليها (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضُرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفْنَ

(١) الكلمة التي وجهها سماحة المرجع العنقوبي (دام ظله) الى آلاف الطلبة الجامعيين من مختلف الجامعات العراقية ضمن فعاليات اقيمت لهم على قاعة النجف الكبرى بمناسبة ذكرى استشهاد الصديقة الطاهرة الزهراء (عليها السلام) مساء يوم الاثنين ٢/جمادى الآخرة/١٤٣٦ المصادف

إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً يَسْمَعُوا كَلِمَتِي لَعَلَّهُمْ يُحْذَرُونَ (التوبة ١٠٧-١٠٨).

ولا شك أن المسجد الحق الذي تقوم فيه هو الثاني لأن حقيقة المسجدية متوفرة فيه وأهداف المسجد متحققة منه ولأن فيه رجالاً يسعون للتطهر والكمال واللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ بعكس الأول الذي ظاهره المسجدية وشعاره ديني الا أن كل أهدافه هي حرب على الدين وأهله.

وهنا يأتي الاستفهام الاستنكاري والتقرير الذي بدأنا به فأن البنيان المثمر الراسخ الرصين هو ما أُسس على ركيزتين: التقوى ورضوان الله تعالى، فالأساس الاول التقوى المأخوذة من الاتقاء والاجتناب والاحتماء تعني تجنب كل شيء سيء وخبيث سواء على مستوى النيات أو الأعمال فلا رياء ولا سمعة ولا حب الجاه والدنيا ولا مصادر غير مشروعة للمال وأساليب مأكرة في العمل، والأساس الثاني هو الرضوان الذي يعني اشتراك كل العناصر الإيجابية من نظافة الأيدي وسلامة النيات والصدق في العمل وابتغاء الخير والإحسان.

ويقابله ببيانٌ فاشلٌ في مهب الريح وبالٌ على أصحابه يشبهه القران الكريم بمن بنى على (شفا) أي حافة (جرف) وهي حافة النهر أو البئر التي جرف الماء ما تحتها فهو (هارٍ) أي متصدع مشرف على السقوط والانهيال في أي لحظة لأنها حافة منحورة متآكلة فيسقط في هذا الوادي المرعب العميق.

ولا يختلف اثنان في أن البنيان الأول هو الثابت الجيد الذي يطلبه العقلاء

فعلیهم أن يتوجهوا الى مثله، ويتجنبوا الثاني.

مسجد ضرار:

والآيات وإن نزلت في حالة قائمة في زمن النبي ﷺ وهما مسجد ضرار^(١) الذي بناه جمع من المنافقين في قضية معروفة للأهداف المذكورة في الآية / ١٠٧ المتقدمة وقد أمر النبي ﷺ بإحراقه، وفي مقابله مسجد قبا أو مسجد النبي ﷺ الذي أسس على التقوى إلا أنها - كما هو شأن سائر الآيات القرآنية - عامة شاملة لكل بيان لذا قلنا انها تؤسس لقاعدة عامة من قواعد السلوك، روى في مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام في تأويل الآية قوله عليه السلام (وكل عبادة مؤسسة على غير التقوى فهي هباء منثور)^(٢).

ركائز النجاح القرآني:

وفي ضوء هذا المعنى الواسع للآية الكريمة تكون النتيجة أن كل حالة أو مؤسسة أو مشروع فردي أو جماعي يراد له أن يكون صالحاً ومثمراً ومتيناً ويدوم عمله لا بد أن يشتمل على ركنين:

- ١- أن يكون الغرض الذي أسس من أجله والهدف الذي يصبو الى تحقيقه نبيلاً سامياً والنية التي تدفعه اليه حسنة مستندة الى تقوى الله تبارك وتعالى وطلب رضوانه (أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ).

(١) حكى بعض المطلعين ان موقع مسجد ضرار الى اليوم لا يتقبل الاعمار والبناء ويقول من هناك انه كلما غُمِّرَ احترق وتهدم والله العالم.

(٢) نور الثقلين: ٢٦٨/٢.

٢- أن يكون القائمون على هذا البنيان والمدبرون لأمره والعاملون فيه مؤمنين مخلصين يحبون الخير والتطهر والكمال ويسعون اليه (فيه رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا).

وإلا فان البناء ينهار ولا يحقق شيئاً بل يكون وبالاً على أصحابه في الدنيا والاخرة وإن رفع شعارات وأسماء دينية لخداع الناس وسوقهم لتحقيق المصالح الشخصية فلا يصح أن يكون الانسان مغفلاً وينخدع بالعناوين الفارغة من المحتوى الصحيح.

المنهج الإصلاحى فى القرآن الكريم:

وينبغى ملاحظة نقطة مهمة فى المسيرة الإصلاحية للشريعة المقدسة وهى أنها تقدّم البديل الصالح حينما تهدم الحالة الفاسدة (لَا تَقُمْ فِيهِ - اى مسجد ضرار - والبديل أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ - وهو المسجد المؤسس على التقوى) وهو منهج ربانى اعتمدته الشريعة منذ أول كلمة نطق بها الرسول الكريم ﷺ (لا اله الا الله) فهى فى الوقت الذى تبطل الآلهة المزيفة المصطنعة تُقيم عبادة التوحيد لله تبارك وتعالى، فلتتعلم انا حينما نريد هدم حالة معينة فاسدة اجتماعية او ثقافية او عقائدية علينا ان نؤسس ونبنى البديل الصالح، فحينما نريد معالجة الفساد الاخلاقى والانحراف الجنسى علينا ان نيسر امور الزواج ونساعد عليه وهكذا.

بناء مستقبل الشباب:

أيها الأحبة من الشباب وطلبة الجامعات الذين وفدتم الى النجف الأشرف لتعزية أمير المؤمنين ﷺ باستشهاد زوجه بضعة النبي ﷺ.

استحضروا هذا المعنى وأنتم تتلون هذه الآية الشريفة واجعلوها نبراساً وبوصلةً لحياتكم لأنكم بصدد وضع حجر الأساس لعدد من مشاريع البناء:

المشروع الاول: بناء النفس والذات والمستقبل المعنوي والعلاقة مع الله تعالى التي هي أساس الحياة الآخرة الباقية لأن الفتى الذي يبلغ سن الرشد ويلتحق بالبالغين هو في بداية حياة جديدة يُشرف فيها بالتكاليف الالهية وتفتح امامه فرص التكامل والقرب الالهي عليه ان يلتفت الى بناء حياته على تقوى من الله ورضوان، ويكون كما أراد الإمام السجاد عليه السلام في دعائه (واجعل الحياة زيادة لي في كل خير والوفاة راحة لي من كل شر) لذلك أعطت الأحاديث الشريفة قيمة كبيرة لمن ينشأ من أول أمره ويؤسس بنيان نفسه على طاعة الله تعالى، عن النبي صلى الله عليه وآله قال (سبعة في ظلّ عرش الله عز وجل يوم لا ظل الا ظله: إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل...) ^(١) وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله (فضل الشاب العابد الذي تعبّد في صباه على الشيخ الذي تعبّد بعدما كبرت سنّه كفضل المرسلين على سائر الناس) ^(٢) وعنه صلى الله عليه وآله قال (إن أحب الخلائق الى الله عز وجل شاب حدث السن في صورة حسنة جعل شبابه وجماله لله وفي طاعته، ذلك الذي يباهي به الرحمن ملائكته، يقول: هذا عبدي حقاً) ^(٣).

المشروع الثاني: إن الطالب الجامعي الذي يُنهي دراسته ويتوجه الى العمل

(١) الخصال: ٣٤٣ ح ٨

(٢) كنز العمال: ٤٣٠٥٩.

(٣) كنز العمال: ٤٣١٠٣.

والكسب عليه أن يفهم أنه يبني مستقبله ويحدد بوصلة حياته القادمة فلا بد أن يحدد اختياره لنوع الوظيفة والعمل ويضع برنامج عمله وفق هذه الاسس المتينة للبناء.

المشروع الثالث: إنكم مقبلون على الزواج إن شاء الله تعالى بعد المشروع الثاني والزواج وُصفَ في بعض الأحاديث الشريفة أنه بِنان، عن أبي جعفر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (مَا بُنِيَ بِنَاءٌ فِي الْإِسْلَامِ أَحَبُّ إِلَيَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ التَّزْوِيجِ)^(١) فالذي يريد أن يبني حياة زوجية سعيدة صالحة مثمرة عليه أن يبنها من أول خطوة عندما يبحث عن الزوجة أن يجعل أساس اختياره التقوى ورضوان الله تعالى في صفات الزوجة ومعدنها وفي نيته من مشروع الزواج، وليس البحث عن الامور الدنيوية الزائلة، وهو ما نطقت به الأحاديث الشريفة، كقوله صلى الله عليه وآله (عليك بذات الدين)، والمرأة يوجه لها نفس الخطاب قال صلى الله عليه وآله: (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه)^(٢).

المشروع الرابع: ما بعد الزواج وهو إنجاب ذرية طيبة صالحة تكون عاقبتهم الى خير عليه وذلك بأن يؤسس بنيانهم ويلتفت الى تربيتهم من أول أيامهم على الخير وطاعة الله تعالى والأخلاق الفاضلة وتجنب الرذائل فإن بناءه سيكون رصيناً ثابتاً مستقيماً حتى ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله (من تعلم في

(١) وسائل الشيعة: كتاب النكاح، ابواب مقدماته وآدابه، باب ١ ح ٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٠٣ ص ٣٧٢ ح ٣.

شبابه كان بمنزلة الرسم في الحجر^(١) وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال (العلم من الصغر كالنقش على الحجر)^(٢) أما إذا لم يكن أساسه كذلك وحصل اعوجاج فيحتاج الى مشقة كبيرة لإصلاحه وقد يتعذر ذلك كما هو واضح.

فليتفت أحبنا الشباب وأولياء امور الفتیان والصغار الى هذا المعنى.

وهكذا تتوسع الحالة الى الذي يتصدى لقيادة دينية أو سياسية في مساحة صغيرة أو مساحة واسعة ويريد أن يبني مجتمعاً صالحاً فانه لا بد أن يكون أساس بنيانه تقوى الله تعالى وطلب رضوانه، روي في الحديث الشريف (صنفان من امتي ان صلحا صلحت وان فسدا فسدت: العلماء والامراء)^(٣).

فيه رجال يحبون أن يتطهروا:

وهنا علاقة تكاملية متبادلة بين البنيان والبناني فكما أن حال الباني المعنوي المستند الى التقوى ورضوان الله تعالى مؤثر في صلاح البنيان واستقامته وديمومته، كذلك فإن البنيان الصالح المبارك - كالمشاهد المقدسة - مؤثر في صفاء نفوس رواده وسمو حالتهم المعنوية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا)، كما أن البناء المستند الى الرياء والنفاق وخبث الباطن يؤثر في نفوس وقلوب مرتاديه، فلا بد للإنسان أن يلتفت الى الركن الثاني فيختار صحبة الصالحين ولا يكتفي بالركن الأول، وحينئذ يحظى بمحبة الله تبارك وتعالى (والله يحب الْمُطَهَّرِينَ).

(١) بحار الانوار: ٢٢٢/١ ح ٦.

(٢) بحار الانوار: ٢٢٤/١ ح ١٣.

(٣) الخصال: ص ٣٦-٣٧ ح ١٢.

إحباط المشاريع الهدامة:

وعلى أي حال فهذه قضية خطيرة أثارها القرآن الكريم لا نستطيع بهذه العجالة بيان كل تفاصيلها، بحيث أن النبي ﷺ يأمر بعض أصحابه أن يحرقوا مسجد الضرار لإحباط هذا المشروع المنافق الخطير الذي يمزق وحدة المجتمع المسلم مع أنه في ظاهره مشروع ديني، وهذا الكلام له بيان آخر.

دور الأسرة المسلمة في البناء الاجتماعي الصالح:

لكن ما أريد أن أقوله أننا في كل تفاصيل حياتنا في عملية بناء ابتداء من بناء أنفسنا الى أسرتنا الى مؤسساتنا الى مجتمعنا الى البشرية كلها فلا بد من الالتفات الى الاسس الرصينة التي تقوم هذا البناء وتحسنه ليؤدي أهدافه بشكل تام. وكما هو واضح فإن في كل الحالات المتقدمة وأنواع البنيان المذكور فان المرأة هي المدير التنفيذي - كما يُقال - لتلك المشاريع وهي المهندس المباشر لتنفيذ مراحل البناء واستقامته وانما سُميت اماً لأنها الاصل في هذا الوجود، ولذا ورد عن السيدة الزهراء عليها السلام قولها: (الزم رجلها - أي الام - فان الجنة تحت اقدامها)^(١).

أما الرجل فهو المهندس المصمم لتلك المراحل والمخطّط لها والمقوم لمسيرتها.

وقد كانت السيدة الزهراء عليها السلام أكمل مثال للنجاح في بناء كل هذه المشاريع، فعلى صعيد الذات هي من الخمسة أهل الكساء أكمل الخلق وقد خُلِقَ

(١) موسوعة المصطفى والعرة للشاكري: ٣٦٥/٤.

الوجود لأجلهم: فاطمة وأبوها وبعلمها وبنوها (صلوات الله عليهم أجمعين) وهي محور هؤلاء الخمسة.

وعلى صعيد الاسرة فاسرتها أسعد وأطيب وأظهر اسرة هي وأمير المؤمنين وفي ظل رعاية أبيها رسول الله ﷺ.

وعلى صعيد الذرية فهي أصل الذرية الطيبة الطاهرة المعصومة ومنها ذرية رسول الله ﷺ، وعلى صعيد العطاء المثمر المبارك سمّاها الله تعالى (الكوثر) وجعلها هبة الله تبارك وتعالى لرسول الله ﷺ (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) (الكوثر ١) والكوثر تعني الخير الكثير.

هذه الحقيقة القرآنية تكشف عن أهمية نشر فروع الحوزة العلمية في المحافظات المختلفة للرجال والنساء وتكتسب شرفها وأهميتها من وظيفتها في بناء الانسان والمجتمع على أساس التقوى ورضوان الله تعالى من خلال نشر المعارف القرآنية والأحكام الشرعية والأخلاق الفاضلة فابنوا مشروعكم على هذه الاسس الرصينة من أول يوم الى آخره وارفدوه دائماً بالنخبة الصالحة الطيبة من الشباب ليكون لكم صدقة جارية بكل كلمة تدل على هدى أو ترد عن ضلالة.

وأدعوكم الى التنوع في آليات عملكم وعدم التوقف عند طريقة معينة على طول المدة لان من طبيعة الانسان والحياة التغيير والتجديد.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)^(١)

[محمد: ٧]

من السنن الإلهية:

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (محمد ٧) تبين الآية إحدى القواعد والسنن الإلهية، وهي ثنائية متلازمة عبر القرآن الكريم المعبر عنها بجملة شرطية، الشرط فيها (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ) والجزاء (يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) وهي متلازمة تكررت في القرآن الكريم كقوله تعالى (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج ٤٠).

معنى نصره الله تعالى:

ولا بد أن نفهم أولاً معنى نصره الله لأن الله تعالى غني عن العالمين ولا يحتاج الى معونة ونصرة احد بل الكل محتاج اليه، وفي نهج البلاغة قول امير المؤمنين عليه السلام (فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ دُلٍّ وَلَمْ يَسْتَقْرَضْكُمْ مِنْ قُلٍّ اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ

(١) الكلمة السنوية التي اعتاد سماحة المرجع العنقوبي (دام ظله) القاءها على مواكب العزاء التي تنطلق من النجف الاشرف الى حرم الامام الحسين عليه السلام سيراً على الاقدام لزيارته الشريفة يوم النصف من رجب واحياء شعائر وفاة العيلة زينب عليها السلام وتنطلق المسيرة يوم الخميس

وَالْأَرْضَ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا^(١) فنصرة الله بنصرة رسوله ﷺ وأوليائه وحججه الذين يدعون الى طاعته ويقيمون الدين ويعملون لتطبيق منهج الله تبارك وتعالى في الأرض وتحقق نصرة الله بنصرة دينه وتحكيم شريعته واحكامه في واقع الحياة، قال تعالى (كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ) (الصف ١٤) فنصرة الله تعالى تعني نصرة السائرين الى الله تعالى والهادين الى الله تعالى والعاملين لإعلاء كلمة الله تعالى، فهي نصرة لهؤلاء قال تعالى (وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) (الحشر ٨) وإنما نسبها الى الله تعالى لأكثر من نكتة:

١- لإعطائها أهمية بنسبتها الى الله تعالى ولو نُسِبتْ النصرة الى رسوله ﷺ أو أوليائه فقط لكانت أقل زخماً لذا قرن الله تعالى نصرة رسوله ﷺ بنصرته تبارك وتعالى (وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) (الحشر ٨).

٢- للتنبيه الى شرط القبول وإعطاء الجزاء بأن تكون النصرة وسائر الأعمال خالصة لله تعالى اي ان الجزاء يتحقق حينما تكون نصرة اولياء الله تعالى نصرة لله، هذا الذي يقال في الاصول ان تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلية، فقد ينصر الشخص رسول الله ﷺ أو الإمام ويخرج معه لكنه لهدف آخر غير خالص كالرياء أو الشهرة أو تحصيل منفعة دنيوية أو تعصباً لمدينته أو قبيلته ونحو ذلك فهذه النصرة لا قيمة لها عند الله تعالى.

في صحاح العامة عن أبي موسى قال (سئل رسول الله ﷺ عن الرجل

يقاتل شجاعة، و يقاتل حميةً ويقاتل رياءً، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال:
(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله))^(١).

موارد من الالتفاتات حول الآية:

ونلفت النظر الى جملة امور قد لا يلتفت اليها الكثيرون ممن يتداولون هذه
الآية ويجعلونها عنواناً لبياناتهم وخطاباتهم:

١- إن نصره الله تعالى مفتوحة على كل المجالات وإن كان أرقاها
والذي كانت الآيات بصدده هو القتال في سبيل الله لكن نصره الله تعالى
تتحقق بما لا يحصى من الطرق فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نصره الله
تعالى وغضب له إذا عُصي، وكذا دعوة الناس الى الله تعالى وهدايتهم
وإصلاحهم، وتحقق أيضاً بأي مشروع فيه رضا الله تعالى وصلاح العباد، وبأي
حوار تردّ به الإشكالات الموجهة الى الدين أو فيها انتقاص من قاداته العظام،
وحينما تؤيد مسعى لتطبيق قوانين الله تعالى وأحكامه في حياة الناس كمشروع
القانون الجعفري فهذه نصره الله تعالى، وتحقق أيضاً بأي خدمة تقدمها للناس
المحتاجين لأنك بذلك تدفع عنهم الاعتراض على قضاء الله وقدره فهو نصره الله
تعالى ودفاع عنه كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام لما سُئل عن لبسه القميص
المرقّع البالي وتوزيعه المساعدات بنفسه على بيوت الفقراء والايّتام قال: لكيلا
يتبيّح بالفقير فقره)^(٢) أي لكيلا يغلبه الفقر ويقهره فيؤدي الى الاعتراض على الله

(١) أخرجه الشيخان وابو داود والترمذي والنسائي.

(٢) نهج البلاغة ٢: ٢٠٤.

تبارك وتعالى.

وهكذا تتعدد أشكال نصره الله تعالى ويتحقق معها الجزاء وهو أن ينصركم الله ويؤيدكم في سائر شؤونكم ويزيد من توفيقكم ويهيئ لكم الاسباب والمقدمات للتقدم ومزيد من الانتصارات، وكلما ازدادت نصره لله تعالى، زاد الله من نصرته لك وتسديدك.

٢- إن الكثيرين يستشهدون بالآية الى قوله تعالى (ينصركم) ويعتقدون ان هذا كافٍ وان هذا هو موضع الحاجة ولا يلتفتون الى ما هو أهم من النصر وهو الثبات عليه الذي ذكرته فإن النصر قد يتحقق لكنه لا يدوم لعدم توفير إمكانية المحافظة عليه، أو لأنهم بعد أن انتصروا تغيرت نواياهم وانحرفت فلم يعودوا مستحقين للنصر، وتزول عنهم نعمة الانتصار ويكون بلا قيمة، كالجيش الذي يهجم على العدو ويأخذ مواقعه لكنه لا يستطيع الامساك بالأرض فيتراجع عنها ويعود العدو اليها وربما يستغل العدو هذا التراجع ويستفيد من زخم العودة ليتقدم أكثر في عمق هذا الطرف الذي انتصر اولاً، وكمثال من التاريخ نذكر ما حصل للمسلمين في معركة أُحُد فانهم انتصروا في بداية المعركة لكنهم لما عصوا اوامر رسول الله ﷺ واتبعوا اهوائهم والتفتوا الى جمع الغنائم لم يدم ذلك النصر وانقلب الى هزيمة وخسروا شهداء كثيرين، لذا كان التوجيه الرباني بعد ان فتح الله تبارك وتعالى مكة للنبي ﷺ وللمسلمين ونصرهم على قريش بحسب سورة النصر ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾ [النصر : ١ - ٣]

فعليك ان تسبح الله وتنزهه عن اي وهم وظن بانك صاحب القدرة في تحقيق النصر وتستغفره من كل ما يفقدك هذا النصر ويزيل اسبابه، وهكذا التاريخ حافل بالمنقلين على الاعقاب.

فقيمة الانتصار في الثبات عليه وإدامته بإدامة الأسباب الموجبة له، ولا شك أن هذا التثبيت هو من مصاديق الجزاء (ينصركم) وأحد مفرداته فيكون من قبيل ذكر الخاص بعد العام كما يقال وانما ذكر تثبيت الاقدام مع انه داخل في عنوان (ينصركم) لأكثر من نقطة:

أ- إلفات النظر اليه والاهتمام به.

ب- ولتمييزه عن ثبات آخر يسبق النصر لا بد أن يحققه العبد الناصر لربه بشجاعة وإصرار ليتحقق الانتصار على العدو كقول طالوت لما بارز جالوت الطاغية (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) (البقرة ٢٥٠) فتلاحظ ان ثبات الاقدام كان مقدمة للنصر، فيوجد ثبات يسبق النصر وتثبيت يلحقه.

٣- إن كل هذه الألوان من النصرة بما فيها القتال المؤدي الى الموت إنما هي على مستوى (الجهاد الأصغر)، والأسمى من ذلك تطبيق هذه المعادلة على (الجهاد الأكبر) أي على صعيد مجاهدة النفس ومنعها من اتباع الاهواء والشهوات وتطبيعها على طاعة الله تبارك وتعالى والورع والتقوى وتجرد عما سوى الله تبارك وتعالى حتى تكون احب الى الشخص من نفسه ومن كل ما سوى الله تبارك وتعالى، وفي الحديث الشريف (أعدى أعداءك نفسك التي بين

جنبيك^(١) فهي تهشّ الى المعصية ويزينها الشيطان فمقاومتها نصرة لله تبارك وتعالى على ادعائه الشيطان وأوليائه والنفس الأمارة بالسوء، وحينئذ ينصرّك الله تعالى ويزيدك قوة وعزيمة ويرقيك في درجات التكامل، من دعاء الصباح لأمر المؤمنين عليه السلام (وَإِنْ خَذَلَنِي نَصْرُكَ عِنْدَ مُحَارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ، فَقَدْ وَكَلَنِي خِذْلَانُكَ إِلَى حَيْثُ النَّصَبِ وَالْحِرْمَانِ)^(٢)، فاذا اعانك الله تعالى ونصرّك على نفسك ونجحت في الامتحان وحقت تقدماً في هذه الاشهر المباركة او المشاهد المشرفة او بحضورك مجالس الصالحين وفي المساجد وصلوات الجمعة والجماعة وغيرها فثبت عليه وادمه ولا تضيّعه بسبب شهوة او غضب او تزيين من شياطين الانس والجن، فان السقوط في الهاوية حينئذ يكون مريعاً والعياذ بالله تعالى.

ايها الاخوة:

أنتم بفضل الله تبارك وتعالى بإقامتكم لهذه الشعيرة المباركة: السير على الأقدام من حرم أمير المؤمنين عليه السلام الى حرم الإمام الحسين عليه السلام لزيارة الإمام الحسين عليه السلام في النصف من رجب ولإحياء وفاة عقيلة الهاشميين السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله: وبإدامتكم لها منذ بضع سنوات: تنصرون الله تبارك وتعالى بعدة أشكال تتضح من خلال ما ذكرناه سابقاً فأسأل الله تعالى أن ينصرّكم ويثبت أقدامكم.

(١) عدة الداعي ص ٣١٤.

(٢) مفاتيح الجنان: ٩٤.

(وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ)^(١)

[النور : ٢٢]

درس من حياة الإمام السجاد عليه السلام :

في هذه الليلة الأخيرة من شهر رمضان المبارك نأخذ درساً من فعالية كان يقيمها الامام السجاد عليه السلام في مثل هذه الليلة، وفيها تطبيق وتجسيد لآية في القرآن الكريم، والأئمة المعصومون عليه السلام كجدهم رسول الله ﷺ كان خلقهم القرآن، والآية قوله تعالى (وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) النور: ٢٢.

لنتعلم تحصيل المغفرة:

فالآية تعلمنا اسلوباً لتحصيل المغفرة الالهية والعفو والصفح، وإن كان الله تعالى متصفاً في ذاته بأنه غفور رحيم ويبتدئ عباده بمغفرته ورحمته وإن لم يكن منهم استحقاق، لكنه تعالى يزيدهم من فضله فيعلمهم أنهم إن أحبوا أن يغفر الله لهم وكل إنسان يحب ذلك إذ ما من عاقل مستعد لملاقاة الله تعالى بعمله من دون

(١) تقرير لكلمة سماحة المرجع العنقوبي دام ظله في جمع من مصلى ديوان فاطمة الزهراء عليها السلام في حي الجامعة في النجف الاشرف وجمع من الشباب والطلبة اللذين شاركوا في إقامة العشر الاواخر من شهر رمضان الى جوار أمير المؤمنين عليه السلام ٠٠ يوم الاحد ٢٩ رمضان ١٤٣٥ المصادف

فضل الله تعالى وكرمه فعلیهم أن يتعاملوا بينهم بالعفو والصفح ويتجاوز بعضهم عن بعض ليحتجوا بذلك على الله تعالى احتجاج انس ومودة وشفقة واستعطاف. وهذه المعاني عبر عنها الامام السجاد عليه السلام في دعاء ابي حمزة (اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَ فِي كِتَابِكَ أَنْ نَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمْنَا وَقَدْ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا فَاعْفُ عَنَّا فَإِنَّكَ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ مِنَّا وَأَمَرْتَنَا أَنْ لَا نَزُدَّ سَائِلًا عَنْ أَبْوَابِنَا وَقَدْ جِئْتُكَ سَائِلًا فَلَا تَرُدَّنِي إِلَّا بِقَضَاءٍ حَاجَتِي)^(١).

في العفو والصفح:

وقد جسد الامام السجاد عليه السلام هذه الآية في فعالية كان يجريها في آخر ليلة من كل شهر رمضان، فقد روى السيد ابن طاووس في كتاب الاقبال بإسناده الى الامام الصادق عليه السلام مضمونها باختصار ان الامام السجاد عليه السلام كان يشتري العبيد والاماء خلال السنة ويؤدبهم ويفقههم وكان لا يضرب عبداً ولا امة وإذا أذنب احد منهم كتب ذنبه في صحيفة وتاريخها ولم يعاقبه. حتى إذا كانت آخر ليلة من شهر رمضان، دعاهم وجمعهم حوله، ثم أظهر الكتاب ثم قال: يا فلان فعلت كذا وكذا ولم أودبك اذكر ذلك؟ فيقول: بلى يا ابن رسول الله، حتى ياتي على آخرهم ويقرّرهم جميعاً.

ثم يقوم وسطهم ويقول لهم: أرفعوا أصواتكم وقولوا: يا علي بن الحسين إن ربك قد أحصى عليك كل ما عملت، كما أحصيت علينا ما عملنا، ولديه كتاب ينطق عليك بالحق، لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا احصاها، وتجد كل

(١) مفاتيح الجنان: ٣٤٩ من دعاء ابي حمزة الثمالي.

ما عملت لديه حاضراً كما وجدنا كل ما عملنا لديك حاضراً، فأعفُ وأصفح كما
ترجو من المليك أن يعفو عنك، فأعفُ عنا تجده عفواً، وبك رحيماً، ولك غفوراً،
ولا يظلم ربك أحداً، كما لديك كتاب ينطق بالحق علينا لا يغادر صغيرة ولا
كبيرة مما اتيناها إلا أحصاها.

وهو ينادي بذلك على نفسه ويلقنهم، وهم ينادون معه وهو واقف بينهم
يبكي وينوح ويدعو بمضمون ما نقلناه من دعاء أبي حمزة، ثم يقبل عليهم ويقول:
قد عفوت عنكم فهل عفوتم عني ومما كان مني اليكم، فيقولون: قد عفونا عنك
يا سيدنا وما أسأت.

فيقول لهم: قولوا اللهم أعفُ عن علي بن الحسين كما عفا عنا فأعتقه من
النار كما أعتق رقابنا من الرق فيقولون ذلك، فيقول اللهم آمين رب العالمين
اذهبوا فقد عفوتُ عنكم وأعتقت رقابكم رجاء للعفو عني وعتق رقبتني فيعتقهم.
فإذا كان يوم الفطر منحهم جوائز تصونهم وتغنيهم عما في أيدي الناس،
وما من سنة إلا وكان يعتق فيها في آخر ليلة من شهر رمضان ما بين العشرين نفساً
الى أقل أو أكثر^(١).

دروس من العفو والصفح:

أقول في الرواية دروس عديدة:

(منها) تواضع أئمة أهل البيت عليهم السلام وسمو اخلاقهم وترفعهم عن الانتقام
والرد على الاساءة مضافاً الى اننا تعرفنا من خلالها على احدى الوسائل التي نشر

(١) المراقبات للملكي التبريزي: ١٩٩-٢٠٠.

الامام السجاد عليه السلام علوم اهل البيت عليهم السلام ومناقبهم وأخلاقهم ومظلوميتهم لأن هؤلاء العبيد كانوا ينتشرون في الامصار وينقلون ما شاهدوه من سيرة الامام السجاد عليه السلام .

هذه كلها اشارات مختصرة، والمهم هنا تطبيق الآية الكريمة على هذا الفعل، فقد كان الامام عليه السلام يستطيع أن يقوم بهذا العمل سرّاً بينه وبين ربه فيعفوا عمن أساء اليه ويطلب من الله تعالى العفو إلا ان الامام عليه السلام كان يجري العمل علناً ليوصل هذا الدرس الى الآخرين ولينقل عبر الاجيال مضافاً الى أن (العمل بالقلب كما انه عبادة له فإجراء ما فيه على الجوارح ايضاً عبادة للجوارح فعند الاتيان بالجوارح تتحقق العبادة بها ايضاً، وانها تؤثر في القلب تأثيراً خاصاً ورقة لا يؤثره مجرد الامر القلبي ويصير سبباً لعمل آخر مؤثر ايضاً فيمتد الفيض الدائم، لان للجوارح ايضاً حظاً من نور العمل فيؤثر عملها في القلب نوراً زائداً على نور عمله)^(١).

هذا الادب هو ما يريده الله تعالى ورسوله والائمة الاطهار (صلوات الله عليهم اجمعين) منّا، اذ لا شيء يستحق التباغض والتقاطع بين المؤمنين وخصوصاً اذا كانوا ذوي رحم، وليس من المعقول اننا نرجو رضا الله تبارك وتعالى ومجاورة اوليائه في الجنان ونحن نقطع الرحم وآصرة الايمان لأجل كلمة سيئة قالها او تقصير صدر منه او تجاوز على بعض حقوقه، او تنازع بينهم على مال.

(١) المراقبات للملكي التبريزي: ٢٠٢.

سياق الآية الكريمة:

والملفت للنظر ان الآية التي ورد فيها الامر بالعفو والصفح جاءت في سياق جريمة كبرى ارتكبها البعض في حق رسول ﷺ اذ اتهموا زوجته مارية القبطية بالفاحشة وانها ولدت ابراهيم من خدين لها لا من زوجها رسول الله ﷺ وهي الحادثة المعروفة بحديث الافك، فرغم عظم الجريمة وعظم من وقعت عليه وهو اكرم خلق الله وخاتم الأنبياء، ورئيس الدولة، وقد اشارة الآيات الى ذلك (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) النور: ١٩ وقال تعالى عنها (إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) النور: ٢٣ ومع ذلك فقد جاء معها الامر بالعفو والصفح في الآية محل البحث، فكيف لا نعفو ولا نصفح نحن عن توافه الامور التي نتعرض لها في حياتنا.

(ولا تنازعوا فتفشلوا)^(١) [الأنفال : ٤٦]
التنازع يؤدي الى الفشل

درس في الالفّة والاخوة من البعثة النبوية المباركة:

قال تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) [الأنفال : ٤٦].

الآية تنهى المؤمنين عن التنازع والتخاصم فيما بينهم وتحذرهم، بأن عاقبة
هذا التنازع هو الفشل والضعف والانهزام لأنهم سينشغلون بهذا الصراع الداخلي
عن الاستعداد لمواجهة الأعداء وسينهك قواهم وسيفقدون الثقة بأنفسهم ويحطم
شخصياتهم ويذهب بحرمتهم وكرامتهم لأن كلا من الطرفين المتنازعين يريد أن
يتغلب على الآخر بأي ثمن فيبذل طاقته في تسقيط الآخر والبحث عن عيوبه
ونقائصه وإظهارها للآخرين لكي يثبت أحقيته وغلبته، فيسقط الجميع بهذا
الانتقاص المتبادل ويفشلون.

(١) كلمة وجهها سماحة المرجع العقبوي (دام ظله) عبر شاشة التلفزيون الى المؤتمر العام
لفضلاء وخطباء ومبلغي محافظة بغداد المنعقد يوم السبت ٢٥ شعبان ١٤٣٦ الموافق ٢٠١٥/٦/١٣
وكان سماحته قد تحدث ببعض مضامينها في لقائه مع الزوار بمناسبة البعثة النبوية الشريفة يوم
٢٧ رجب ١٤٣٦ الموافق ٢٠١٥/٥/١٦.

في معنى ذهاب ريحهم:

ويؤدي الفشل الى ذهاب ريحهم أي عزّتهم وقوتهم وغلبتهم وتسير الامور على غير ما يريدون، وفي التعبير عن القوة بالريح رمزية وكناية دقيقة عن هذا المعنى لأن الريح هي التي ترفع الأشعة وتعطي القدرة لاندفاع السفن في البحار فإذا توقفت الريح فإن السفن تعجز عن الحركة ولم يتحقق الوصول الى الهدف المطلوب، كذلك فإن الريح تجعل الأعلام والألوية ترفرف مرتفعة في ساحة الحرب فتشعر بالقوة فإذا ذهبت الريح انتكست الأعلام وخارت القوى.

حقائق قرآنية تؤسس للنظام الحضاري:

هذه واحدة من الحقائق القرآنية التي تؤسس لنظرية سياسية واجتماعية لأنها تشخص سبب انهيار الدول وتفكك المجتمعات والشواهد التاريخية كثيرة في كل العصور ولعل أوضحها هزيمة المسلمين في الاندلس وانحسار دولة الإسلام عن تلك الأرض الاوربية بعد سلطة دامت حوالي ثمانمائة عام حينما انقسم المسلمون تبعاً للامراء وملوك الطوائف وتنازعوا وأصبح بعضهم يتآمر على بعض ويستقوي بالأعداء على اخوته.

ولا يختص الفشل وذهاب الريح والقوة بالجانب المادي وما يتعلق بالدنيا، بل تذهب القوة المعنوية أي روح الايمان وطمأنة القلب أيضاً، فتخسر الامة ريحها ورؤوحها ورؤوحها لان التنازع يوقع صاحبه في الكبائر من اجل تحقيق الغلبة فيتورط في الغيبة والكذب والبهتان والافتراء والتجسس على خصمه ليضعفه وهذه كلها من الكبائر الموبقة، ويررّ لنفسه المداينة والسكوت عن الباطل عند من يريد الاستقواء به على خصمه وينشغل تفكيره بالمجادلات والمنازعات عن

ذكر الله تعالى وعن الصلاة وهو من فعل الشيطان بهم وهكذا يذهب في منزلق خطير نحو الهاوية.

وهذه الامور مجرّبة ومعروفة في كل المنازعات مهما صغرت دائرتها او اتسعت كالخلاف بين الزوجين أو بين العائلة الواحدة على الميراث مثلا او النزاع بين عشيرتين أو حزبين سياسيين أو بين جماعتين أو بين مقلدي المرجعيات الدينية المتعددة، او بين طائفتين وغير ذلك، وهكذا يستهلك المجتمع الواحد قوته وامكانياته في هذه النزاعات ويفسح المجال واسعا لخصمه ليستحوذ على حقوقه التي فرط فيها .

روى الامام الباقر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال (من لاحى - اي خاصم ونازع - الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته، ثم قال صلى الله عليه وآله لم يزل جبرائيل ينهاني عن ملاحات الرجال كما ينهاني عن شرب الخمر وعبادة الاوثان) ^(١)، وروي عنه صلى الله عليه وآله قوله: (لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يدع المراء وان كان محقا) ^(٢) و عنه صلى الله عليه وآله قال (من ترك المراء وهو محق بُني له بيت في اعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بُني له بيت في ربض الجنة) ^(٣) - اي ما حولها خارج عنها - وعن الامام الصادق عليه السلام قال (اياك والمراء فانه يحبط عملك، واياك والجدال فانه يوبقك، واياك وكثرة الخصومات فانها تبعدك عن الله) ^(٤)

(١) امالي الطوسي : ٥١٢ المجلس ١٨ الحديث ١١١٩.

(٢) ميزان الحكمة : ١١٧/٨.

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

وعن الامام الهادي عليه السلام قال (المراء يفسد الصداقة القديمة ويحلل العقدة الوثيقة -كالعلقة الزوجية او القرابة-، وأقل ما فيه أن تكون فيه المغالبة، والمغالبة أَسُّ اسباب القطيعة)^(١).

الحل الإسلامي لمشكلة النزاع:

وبالعودة الى الآية الكريمة فإنها تعطي الحل لحسم النزاع وانهاؤه وهما أمران كفيلان بازالة اسباب النزاع ومنعه من أصله، وبتركهما يحصل التنازع وهما:

١- التحاكم الى علماء الشريعة في كل اختلاف والتسليم والاذعان لحكمها سواء كان لمصلحته أو على خلافها، ولذا ابتدأت الآية بالأمر بطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وطاعة القيادة الحقّة التي جعلها الله تعالى حجة على عباده، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء : ٥٩] فالالتزام بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (صلى الله عليه وآله وسلم) والرجوع الى القيادة الحقّة هما الضمان من وقوع التنازع او الانجرار اليه بسبب الاختلافات فالآية تشير الى سبيل تحقيق وحدة المسلمين ومنع تشرذمهم وهو ما عبرت عنه الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام بقولها (وجعل امامتنا نظام للملة وامانا من الفرقة).

وبتعبير آخر إن الخلاف بين الناس يمكن أن يحصل بسبب اختلاف الفهم أو النوايا او بسبب تدخل الآخرين والعوامل الخارجية ونحو ذلك، وهو بهذا

المقدار يبقى ضمن الاطار الطبيعي مادام المختلفون عازمين على أن يعودوا الى حكم الشريعة وحاكمها والقيادة الشرعية الرسالية ليفصل بينهم وعليهم التسليم له وان يكون مبتغاهم دائما معرفة الحق واتباعه، فالتنازع المذموم انما يقع من نقطة الابتعاد عن حكم الشريعة وأوامر القيادة الرسالية الحقّة والتشكيك فيها والتمرد عليها، ومن نقطة اتباع الاهواء والانانيات والتعصب بحيث يجعل هواه وارادته هي المتبعة والحاكمة في الاختلاف وحينئذ يقترن به الشيطان ويسوّل له ان الرضوخ للحق هو هزيمة واهانة واذلال بينما الصحيح هو ان الحق احق ان يتبع وطالبه هو الغالب دائما.

٢- الالتزام بالصبر لأن الاحتكام الى الشرع والعمل بالتوجيهات الشرعية على خلاف هوى النفس يحتاج الى مجاهدة ومصابرة فيامرنا الله تعالى بالصبر ويعدنا باحسن الجزاء وهو ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ معهم مطلقاً أي في كل الأحوال وفي الدنيا والاخرة، وكفى بهذه المعية حافزاً ودافعاً للصبر على القيام بما يريده الله تبارك وتعالى.

الفشل والانهزام:

والآية صريحة بان التنازع يؤدي الى الفشل، لكن المستفاد من غير موضع عكس ذلك أي أن الفشل هو سبب التنازع ، قال تعالى فيما يتعلق بواقعة أخذ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ١٥٢] وقال تعالى في معركة بدر ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [الأنفال : ٤٣] فالعلاقة بين الفشل والتنازع جدلية تلازمية

حيث يؤدي كل منهما الى الاخر بمرتبة من المراتب، وقد اتضحت صورة اداء التنازع الى الفشل.

اما ان الفشل يؤدي الى التنازع فواضح ايضاً لسببين على الاقل:

١- ان التنازع لم يحصل الا عندما استسلم لهواه واطماعه وفشل في مجاهدة نفسه والالتزام بما يريده الله تبارك وتعالى كالذي حصل في معركة أُحُد حينما اتبعوا أهواءهم وعصوا وصايا رسول الله ﷺ وتركوا مواقعهم لكي يشاركون إخوانهم في جمع الغنائم (مَنْ بَعْدَ مَا أَرَأَيْكُمْ مَا تُحِبُّونَ) فحصل الفشل ثم التنازع كما في آية سورة آل عمران المتقدمة.

٢- إن الفاشل لا يريد أن يعترف بفشله ولا يحمل نفسه المسؤولية حتى يعالج الاسباب وانما يلتجأ الى التنازع ليغطي فشله بالتخاصم والتنازع مع الآخرين واطهار انهم فاشلون، اي انه بدل ان يرتقي الى مستوى الناجحين يعمل الى انزال الناجحين الى مستواه الفاشل، وأتذكر هنا مثلاً طريفاً من الواقع فحينما كنا صبياناً وكان بعض أصدقائنا يلعبون كرة القدم فإذا فاز فريقهم عادوا فرحين مستبشرين، وإن خسروا رجعوا يتلاومون ويُحمّل بعضهم الآخر مسؤولية الخسارة ويبحث كل واحد عن خطأ وتقصير الآخرين.

نموذج معاصر للفشل من أثر التنازع:

وهكذا في كل المجالات واسوء مثال لهذه الحال السياسيون المتصدرون للمشهد فانهم بسبب فشلهم الذريع في اداء مسؤولياتهم امام الشعب وانشغالهم بمصالحهم الشخصية وسرقة قوت الشعب فانهم يغطون على فشلهم بالمخاصمات

والجدل العقيم وتبادل الاتهامات من دون ان يحلّوا اي مشكلة ، ويؤدي بهم هذا التنازع الى فشل جديد وهكذا.

فالأزمة في العراق اليوم ليست ازمة مالية كما يعلنون لان مدخولات العراق الحالية تناهز ٥٠ مليار دولار أو أكثر وهي كافية لمثل سكان العراق، ولا أن سببها وجود الاجندات الخارجية ولا غيرها وان كان لكل منها شيء من التأثير، وانما سبب خراب العراق وانهيار الدولة حتى اصبحت نهباً للعابثين والطامعين والحاquدين هو فشل المتصدين وسوء ادارتهم وتنازعهم فيما بينهم على تحقيق مآربهم الشخصية والفئوية، فغطّوا فشلهم بالتنازع وادّى تنازعهم الى الفشل.

ولدى التأمل فان قوله تعالى ﴿فَتَقَسَّلُوا وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ﴾ يكشف بالعلاقة العكسية ومن بعض الوجوه عن أن المجتمع والبلد الذي يعاني من التنازع وذهاب القوة والمنعة تحكمه قيادات فاشلة لا تستحق منح الثقة بها.

إن من أعظم النعم التي منّ الله تعالى بها على الامة بالبعثة النبوية الشريفة هو التاليف بين القلوب ونبد الخلافات والنزاعات قال تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (آل عمران : ١٠٣) وقال تعالى (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال : ٦٢ / ٦٣).

فلنستذكر هذه النعمة العظيمة ولنحرص عليها كما أمرنا الله تبارك وتعالى،
ولنتعاهد في هذا اليوم المبارك على عدم الوقوع في التنازع والتقاطع والتخاصم
قدر الامكان بفضل الله تبارك وتعالى.

(١) (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[الرعد : ١١]

لا بد من السعي:

من الأدعية المستحبة في كل يوم من شهر رمضان دعاء (اللهم أدخل على أهل القبور السرور) ويتضمن عدة فقرات جليلة، أحبت التوقف عند أحدها وهي (اللهم أصلح كل فاسد من أمور المسلمين)، ومن الواضح أن إصلاح الفساد لا يتحقق بمجرد ترديد هذه الكلمات وان كان في نفس قراءة الادعية ثواب وان الدعاء مخّ العبادة كما في بعض الاحاديث، لكن بعض المطالب تحتاج الى سعي كمن يريد الرزق الحلال لا يكفيه أن يردد: (اللهم ارزقني) بل عليه أن يسعى في مناكبها وبيتغي من فضل الله تعالى، ومن يريد الذرية الصالحة عليه أن يتخذ زوجة صالحة، وهكذا، الا اذا شاء الله شيئا بدون ذلك كولادة عيسى عليه السلام من غير أب.

كيف نصلح أحوال المسلمين؟

فإصلاح الفساد في أحوال المسلمين وهكذا فقرات الأدعية لا بد لكل منها من سعي يناسبها [وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا] (الإسراء: ١٩)، فكيف نصلح أحوال المسلمين الفاسدة التي لا تسرّ الصديق ويشفق لها العدو، ولم تبق حرمة إلا انتهكت، وماذا علينا أن نفعل

(١) الخطبة الثانية لصلاة عيد الفطر السعيد يوم ٢٠١٥/٧/١٨.

لتحقيق هذا الغرض؟.

يجيب عن ذلك رسول الله ﷺ في حديث رواه عنه الشيخ الصدوق في الخصال يحدد فيه سبب فساد أحوال المسلمين وصلاحهم، قال فيه: (صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي وإذا فسادا فسدت أمتي، قيل: يا رسول الله، ومن هما؟ قال ﷺ: الفقهاء والأمرأء)^(١).

عندما نعالج الفساد من رأسه:

فالصلاح والفساد في أمور المسلمين يرجع إلى طريقة أداء هذين الصنفين وصفاتهم الذاتية، فنفس الجهة التي يأتي منها الفساد يأتي منها الصلاح؛ لذا قيل: (لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال) أي علينا أن نشخص الجهة المسؤولة عن الفساد فتبدأ عملية الصلاح من هذه الجهة، فمثلاً التكفير وما تتبعه من القتل الوحشي والتدمير الشامل بدأ من فتاوى علماء التكفير فإذا أرادوا محاربة الجماعات الإرهابية التكفيرية حقيقة فعليهم أن يبدأوا بهؤلاء المشرعين لفتاوى التكفير فيصلحون عقولهم ويطهرون قلوبهم من اغلال التعصب والحقد والانانية ويعيدوا تقييم تأريخهم والاشخاص الذين يقدسونهم ممن أسسوا لهذه الثقافة، وستغير الأمور عندما يلتفتون الى القيادة الصالحة الحقّة التي ربّت الامة على رفض التكفير، روي عن الامام علي عليه السلام انه سئل عن الذين خرجوا على إمامته الحقّة وقتلوه: (أمر كون هم ؟ قال : من الشرك فرّوا ، فقالوا : أفمنافقون ؟ قال : إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً قيل : فما هم يا أمير المؤمنين ؟ قال : إخواننا

(١) الخصال للشيخ الصدوق: باب الاثنين، ح ١٢.

بغوا علينا فقاتلناهم بغيهم علينا^(١) مشيراً الى الآية الكريمة (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) (الحجرات ٩).

كما أن هذه الكلمة (لا ينتشر الهدى الا من حيث انتشر الضلال) يمكن فهمها على أساس الأدوات أي أن نفس الأداة التي سببت الفساد كالتلفزيون أو القوانين الظالمة المخالفة للشريعة أو مناهج التعليم علينا أن نصلحها لتساهم في صلاح الأمة.

لا بد في الإصلاح من علاج البيئة المنتجة للفساد:

ويمكن ان نفهم هذه الكلمة على اساس الحالات والاضاع التي انتجت الفساد فنعالجها كالفقر أو الجهل أو التخلف أو العصبية، أو الاستبداد السياسي أو الانهيار الاقتصادي أو عدم الامن والاستقرار فاذا اريد نشر الهدى والصالح فلا بد من اصلاح هذه الاوضاع والبيئة المنتجة، قال تعالى: (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (قريش ٣-٤).

ومحل الشاهد أن صلاح الأمة يكون بصلاح هذين الصنفين كما أن فسادها بفسادهما.

معنى فساد العلماء:

أما الصنف الأول فقد بيّنت الروايات أن فساد العلماء لا يتمظهر بشرب الخمر وممارسة الزنا ونحو ذلك فانهم لا يفعلون ذلك حفاظاً على مكانتهم الاجتماعية وإنما بحبهم الدنيا والتملق لأهلها والصراع على الجاه والزعامة

(١) البداية والنهاية : ٣٠٠/٧.

ومجاملة اهل الباطل وكتمان الحق والبغي والحسد والتكبر والتعالي وتغليب انانياتهم والتخلي عن مسؤولياتهم في اقامة الدين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتِ لَإِثْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (المائدة ٦٣) وعدم الانفتاح على الناس والاستماع الى همومهم وقضاء حوائجهم ومساعدتهم وانصافهم فيما لهم وما عليهم، روى الإمام الصادق عليه السلام عن امير المؤمنين عليه السلام قوله من حديث (اعرفوا.. اولي الامر بالامر بالمعروف والعدل الاحسان)^(١) فاذا تخلى العلماء عن مسؤولياتهم اصبحت الامة خاوية روحياً وميته معنوياً وفاقدة البصيرة والرشد يتلاعب بها الاشرار، وتوجد شواهد كثيرة من التاريخ لفساد تسبب فيه العلماء، فالإمام الحسين عليه السلام قتل بفتوى شريح القاضي الذي افتى بجواز محاربة الامام عليه السلام لانه خرج على ولي الامر، والامام الجواد عليه السلام قتل بتحريض من قاضي قضاة الدولة العباسية ابن ابي داود للمعتصم بعد اخذه برأي الامام عليه السلام في قطع يد السارق.

معنى فساد الأمراء:

أما الصنف الثاني، فمما لا يحتاج إلى بيان دور الزعامات السياسية في فساد البلاد من خلال الاستئثار بالمال العام واعتبار ما يقع تحت يده غنيمة، وهدره في امور عبثية ومشاريع وهمية وتغليب المصالح الشخصية على المصالح العامة وسوء التخطيط والإدارة بالاعتماد على ناس غير مؤهلين وانشغال البلاد والعباد بصراعاتهم السياسية، وإن كل الكوارث التي حلت بالبلاد هي نتيجة هذه

(١) اصول الكافي: كتاب التوحيد: ٥١ باب انه لا يُعرف الا به، توحيد الصدوق: ٢٨٦.

الصراعات على المغنم والامتيازات حتى وإن ألبست بعناوين دينية أحياناً. وهؤلاء الحكام لم يصلوا إلى مواقعهم إلا بدعم وتأيد جمع من الناس سواء من خلال الإدلاء بأصواتهم لهم في الانتخابات أو بنصرتهم وتمكينهم من السلطة في الانقلابات العسكرية وإدامة حكمهم وسلطتهم، أو بأي نحو وصلوا به الى السلطة ولو تخلى الناس عنهم والتفوا حول الصالحين الأكفاء لما وصل حال المسلمين إلى هذه الدرجة التعيسة، روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: (لولا أن بني أمية وجدوا لهم من يكتب ويجبي لهم الفياء ويقاقل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم ما وجدوا شيئاً إلا ما وقع في أيديهم)^(١).

الذنوب التي تسبب تسلط الأشرار:

فهذه هي المسؤولية المباشرة المنظورة التي يتحملها الناس إزاء هذا السبب من الصلاح والفساد، لكن الروايات دلّت على ان بعض الذنوب والتقصيرات هي العلل الحقيقية لتسلط الأشرار والفاستدين والظالمين، فنبهنا المعصومون عليهم السلام لها حتى نمنع أصل تسلطهم وتسلّمهم الحكم، ولا نصل إلى مرحلة تمكّنهم من الحكم والسلطة ثم نفكر في كيفية إصلاح الحال، أي أن الإصلاح يكون على طريقة (الوقاية خير من العلاج)، وإزالة الاسباب من أصلها

ومن تلك الذنوب والتقصيرات المسببة لتسلط الاشرار والفاستدين:-

١- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد روي في الكافي

(١) وسائل الشيعة: كتاب التجارة/ ابواب ما يتكسب به/ باب ٤٧، ح ١.

والتهديب عن الإمام الرضا عليه السلام قال: (لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهينَّ عن المنكر، أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم)^(١).

وروى الشيخ المفيد في المقنعة والطوسي في التهديب عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر والتقوى، فإذا لم يفعلوا ذلك انتزعت منهم البركات وسلط بعضهم على بعض ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء).

٢- عدم الاستفادة من توجيهات العلماء العاملين: روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (سيأتي زمان على الناس يفرّون من العلماء كما يفرّ الغنم من الذئب، فإذا كان ذلك ابتلاهم الله بثلاثة أشياء: الأول يرفع البركة من أموالهم والثاني سلّط الله عليهم سلطاناً جائراً والثالث يخرجون من الدنيا بلا إيمان)^(٢).

٣- إفراغ الدين من مضمونه الحقيقي والاكتفاء بالشكليات الظاهرية منه، وتخلّي علماء الدين والربانيين عن مسؤولياتهم الحقيقية وهذا شكل من اشكال فساد العلماء الذي يؤدي الى فساد الأمة، في حديث عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (سيأتي على أمتي زمان لا يعرفون العلماء إلا بثوب حسن ولا يعرفون القرآن إلا بصوت حسن، ولا يعبدون الله إلا في شهر رمضان، فإذا كان كذلك سلّط الله عليهم سلطاناً لا علم له ولا حكم له ولا رحم له)^(٣).

(١) وسائل الشيعة: أبواب الأمر والنهي، باب ١، ح ٤، ١٨.

(٢) بحار الأنوار: ٤٥٤/٢٢ عن جامع الأخبار: ١٢٥-١٢٦، ف ٢٢.

(٣) بحار الأنوار: ٤٥٤/٢٢ عن جامع الأخبار: ١٢٥-١٢٦، ف ٨٨.

إذن فتردي أخلاق الامة وضعف همتها وانحدار مستوى الوعي لديها سبب
لتصدي هذين الصنفين الفاسدين، وفسادهما يؤدي الى مزيد من الفساد في احوال
الامة .

لذا اشتهرت الكلمة المعروفة (كيفما تكونون يولى عليكم)، فصلاح احوال
المسلمين يبدأ من اصلاح انفسهم وتمسكهم بدينهم وزيادة وعيهم في اختيار
قياداتهم الدينية والسياسية وحينئذ تنصلح امورهم وتتغير احوالهم نحو الافضل
بأذن الله تعالى.

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)^(١) [الفرقان : ٤٤]

إباحة زواج المثليين نموذجاً

عظمة تشريعات الإسلام:

نشرت قناة بي بي سي على صفحتها^(٢) تقريراً لمحرّرها لشؤون الصحة جاء فيه ((مع التقدم في العمر يصبح الحيوان المنوي أكثر عرضة للأخطاء الوراثية بشكل يزيد من خطر الإصابة بالتوحد والانقسام وغيرها من الأمراض)) ونقل ذلك عن كيفن سميث الاستاذ بجامعة ابرتاي في دندي في المملكة المتحدة وقال: ((إن الزيادة الطفيفة في خطر الإصابة بالأمراض له تأثير كبير على مستوى الامة بكاملها وأنه يجب أن يثير الأمر قلقنا على نطاق المجتمع، فالتأثير حقيقي وواضح ويجب أخذ سن الابوة بشكل أكثر جدية، وتأثيره على الجيل القادم من الأطفال)).

عندما اطلعتُ على هذا الخبر إنقذت في ذهني عدة امور:

١ - عظمة تشريعات الإسلام والأسرار الكامنة فيها إذ يكشف هذا الخبر

(١) حديث سماحة المرجع العنقوبي (دام ظله) مع حشد كبير من الزوار الذين وفدوا لتعزية سماحته بمناسبة ذكرى استشهاد امير المؤمنين (عليه السلام) مساء يوم الاربعاء ٢١ رمضان ١٤٣٦ المصادف ٢٠١٥/٧/٨.

(٢) بتاريخ: ٢٠١٥/٦/٢٥ - ٨ رمضان ١٤٣٦.

عن جانب من الحكمة في الحث على الزواج المبكر لتحقيق إنجاب سليم قوي مضافاً الى المصالح الاخرى كتحصين النفس والاستقرار ورفع مستوى الوعي بالمسؤولية وتحقيق المُعين على الدنيا والاخرة ونحو ذلك، ورد عن الإمام الباقر عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما بُنيَ في الإسلام أحبُّ الى الله عز وجل من التزويج)^(١) فالمساهمة في بناء الزوجية أحب الى الله تعالى من سائر مشاريع البناء الاخرى حتى المساجد، لأنه مشروع دائم العطاء والتوسع جيلاً بعد جيل حتى يأتي عصر الظهور وإذا بك تقدّم الآلاف لنصرة الإمام عليه السلام ببركة ذلك الزواج. فلا يقصّر أحد في تشجيع مشاريع الزواج وتيسير امورها والإنفاق عليها من الحقوق الشرعية وغيرها.

٢- حماقة الغرب وضحالة تفكيره بالرغم مما يظهر من جبروت علمي وتكنولوجيا، فماذا طرح من حل ليتجنب هذا الاحتمال في ضعف الانجاب وإصابته بالأمراض إذا تأخر الزواج بدل أن يستجيب لنداء الفطرة والدين ويدعو الى الزواج والانجاب المبكرين، نقل التقرير عن عالم الأحياء المذكور ((إن الشباب في سن ١٨ يجب أن يجمّدوا حيواناتهم المنوية ويستخدموها لاحقاً، لتجنب مخاطر الإنجاب في الكبر)) وقال: ((إن بنوك الحيوانات المنوية يجب أن تكون متوفرة))، والغريب أن ينشر هذا المقترح في دورية اسمها "الأخلاق الطبية".

وخير تعليق على هذا المقترح ما نقله التقرير عن ألن باسي استاذ أمراض

(١) وسائل الشيعة: كتاب النكاح، ابواب مقدماته، باب ١ ح ٤.

الذكورة في جامعة شيفيلد بقوله ((هذه واحدة من أسخف الاقتراحات التي سمعتها منذ وقت طويل)) ووجه استخفافه:

أ- ((لأن الحيوانات المنوية لمعظم الرجال لا تتجمد بشكل جيد وهو أحد أسباب قلة المتبرعين بالحيوانات المنوية، لذا فمن يجمد حيواناته المنوية في سن الـ ١٨ ويعود ليستخدمها لاحقاً سيتطلب من زوجته الخضوع لعملية تلقيح صناعي أو أكثر)).

ب-الكلفة الاقتصادية حيث قدرت اجرة حفظ الحيوانات المنوية بـ ١٥٠ - ٢٠٠ جنيه استرليني في العام.

ت- ما نقله عن الاستاذ آدم بالين رئيس الجمعية البريطانية للخصوبة من أن خصوبة الحيوانات المنوية أقل من الجديدة مما يعني الاعتماد على التلقيح الصناعي، أي أنه يجعل من الإنجاب عملية اصطناعية مما يعطي إحساساً كاذباً بالأمان إذ أن التكنولوجيا لا تضمن إنجاب طفل.

٣- وتذكرت منقبة لأمر المؤمنين عليه السلام فيها سبقٌ علميٌّ له عليه السلام وهو باب مدينة علم رسول الله صلى الله عليه وآله والمنقبة ترتبط بهذا الاكتشاف العلمي فقد روى الإمام الصادق عليه السلام قال (أتى عمر بامرأة تزوجها شيخ ، فلما أن واقعها مات على بطنها، فجاءت بولد فادعى بنوه أنها فجرت ، وتشاهدوا عليها ، فأمر بها عمر أن تُرجم، فمر بها علي عليه السلام فقالت : يا بن عم رسول الله إن لي حجة. قال: هاتي حجتك، فدفعت إليه كتاباً فقرأه، فقال : هذه المرأة تعلمكم بيوم تزوجها، ويوم واقعها، وكيف كان جماعه لها، ردوا المرأة. فلما أن كان من الغد دعا بصبيان

أتراب ودعا بالصبي معهم، فقال لهم: العبوا حتى إذا ألهاهم اللعب قال لهم: اجلسوا، حتى إذا تمكنوا صاح بهم، فقام الصبيان وقام الغلام فاتكأ على راحتيه، فدعا به علي عليه السلام وورثه من أبيه وجلد إخوته المفترين حداً حداً. فقال له عمر: كيف صنعت؟ قال عليه السلام: عرفت ضعف الشيخ في اتكاء الغلام على راحتيه^(١).

ولا يزالون يقاتلونكم:

هذا هو الإسلام في سمو تشريعاته وعظمة أئمتيه وقادته ويدرك أعداؤه ذلك ويدركون النعمة العظيمة التي يتنعم بها المسلمون ويعلمون تفاهتهم وحقاقتهم وجاهليتهم وان حاولوا تلميع صورتهم بالنفخ والتهريج للتقدم التقني فلذلك ما انفكوا عن الكيد للإسلام والمسلمين وشن الحروب عليهم ليسلبوهم هذه النعمة العظيمة قال تعالى: (وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا) (البقرة ٢١٧) تارة بالحروب العسكرية واخرى بالتشويه والتسقيط والاستهزاء والخداع واخرى بنشر الفساد والانحراف واخرى بصنع نماذج منقّرة مقرّزة تسمّى بالإسلام مثل داعش والقاعدة ليستحي المسلمون من التحدث بالإسلام كل ذلك للضغط على المسلمين حتى يتخلوا عن نعمة الإسلام العظيمة حسداً لكم، والحسد تمنّي زوال نعمة من مستحق لها، وربما من كان مع سعي في إزالتها وقال تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ

(١) الكافي: ٧ / ٤٢٤ / ٧، تهذيب الأحكام: ٦ / ٣٠٦ / ٨٥٠ كلاهما عن أبي الصباح الكناني،

من لا يحضره الفقيه: ٣ / ٢٤ / ٣٢٥٤ عن الأصبغ بن نباتة، المناقب لابن شهر آشوب: ٢ / ٣٦٩

كلاهما من دون إسناد إلى المعصوم.

أَنْفُسِهِمْ) (البقرة ١٠٩) وقال تعالى (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) (النساء ٥٤) والفضل هو الإسلام والقرآن والنبي واله المعصومون عليهم السلام وبركاتهم الكثيرة.

الانحطاط العظيم:

وربما سمعتم بآخر مظاهر انحطاطهم وهو إصدار المحكمة العليا في الولايات المتحدة حكماً يوم الجمعة ٢٠١٥/٦/٢٦ يقضي بمنح الحق للمثليين جنسياً في كافة الولايات المتحدة، وهو الحكم الذي وصفه رئيسهم اوباما بأنه انتصارٌ لأمريكا وانتصارٌ للحب. وتدّعي امريكا انها القوة العظمى في العالم وان باستطاعتها الهيمنة عليه وقيادته ويوجد عدد كبير من المنبهرين بالقوة الامريكية المقتفين لآثارها، لذا احتفل الملايين في عدة دول بهذا الانتصار.

أرايتهم كيف يتبجحون بما تستنكف حتى الحيوانات الهمجية عن فعله وممارسته ناهيك عن منافاته للفطرة الإنسانية والغريزة المودعة؛ فهبطوا الى ما دون البهيمية وعادوا الى الجاهلية الرعناء (أَنْتَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) (النمل ٥٥) فكانوا مصداقاً لقوله تعالى (إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (الفرقان ٤٤) متذرّعين بالحرية وهي حقٌ مقدّس منحه الله تعالى لعباده لكنها لا تعني الفوضى العارمة في اتباع الشهوات والخروج عن القوانين العقلائية. فشوّها بسلوكهم الشائن هذا العنوان الجميل، وهل من الحرية أن يُترك المصاب بمرض فتاك معدي يتحرك في المجتمع كيف يشاء ويلوّث الآخرين ويصيبهم بمرضه، أم يُحجّر عليه ويُعالج حتى يشفى، علماً أن الأمراض

الأخلاقية والاجتماعية أشد فتكاً من الأمراض الجسدية.

إن هذا القرار عارٌّ على من أصدره ومن رضي به ومن أيده بسكوته عن استنكاره، وإننا لنشعر بالحياء والخجل أمام خالقنا العظيم ونحن نرى جملة من المحسوبين علينا نحن البشر يتجرأون على حدوده بهذا الانتهاك الفظيع، ونسبِّح ربنا وننزهه عما يفعل الظالمون.

فتمسكوا بإسلامكم أيها الأحبة وحافظوا على التزامكم وارفعوا رؤوسكم شامخين واشكروا الله تعالى على ما هداكم إليه.

(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ)^(١)

[يوسف: ٢٤]

درس من عفاف النبي يوسف ﷺ :

قصة النبي الكريم يوسف الصديق ﷺ معروفة لديكم بما تناوله القرآن الكريم ومنها قوله تعالى (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) (يوسف ٢٤) تعقيباً على إنقاذه من مكائد زوجة عزيز مصر، والفحشاء يُراد بها جريمة الزنا، أما السوء فقليل أن المراد به الهم بالمعصية والعزم عليها قبل فعلها.

وجاء هذا الصرف استجابة لدعائه الذي ذُكر في موضوع آخر (وَالْأَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (يوسف ٣٣-٣٤).

(لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ):

والتعبير الاعتيادي عن هذه الحالة أن يقال (لنصرفه عن السوء والفحشاء) لأن ظروف المعصية والجريمة كانت موجودة وليست مصروفة ولكن الله تعالى

(١) كلمة سماحة المرجع العنقوبى (دام ظله) مع جمع كبير من طلبة الجامعات الذين يقضون العشر الاواخر من شهر رمضان في النجف الاشرف عندما زارهم الى مقر اقامتهم يوم الاثنين

صرفه عن هذه المعصية وعصمه من الوقوع فيها، وهذه العصمة من التسديدات الالهية والنعم العظيمة.

لكن القرآن الكريم وصف حالاً أسمى من هذه فقال تعالى (لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ) أي صرفنا عنه أجواء المعصية ومقدماتها وموجباتها فكأنه لم يتعرض لظروف معصية أصلاً حتى يجتنبها، لأنه يعيش في عالم آخر وفي أجواء أخرى غير عالم المعصية هذا الذي يرى في الظاهر وإنما وصفناها بأنها حالة أسمى لأنها ليست فيها تعرض للمعصية أصلاً ولا فيها تكلف اجتنبها وصرفه عنها حيث لا يجد الانسان فيها شيئاً سيئاً حتى يجتنبه.

في تفسير ما هم به يوسف ﷺ هو الميل الغريزي، ورد:

وهذا الالغاء التام للتأثر بالحدث كأنه ليس ممكناً وغير قابل للتصور خصوصاً في مثل الحالة التي تعرض لها النبي يوسف ﷺ (وَرَأَوْنَاهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) (يوسف ٢٣) ولذا لم يجد بعض المفسرين ممن يعتقد بعصمة النبي يوسف ﷺ ضيراً من تفسير الهم بقوله تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) (يوسف ٢٤) بالميل النفسي الغريزي الطبيعي^(١) لمن يتعرض لمثل هذه المواقف أي أن غريزته اشتته

(١) حكى هذا الرأي عن كثيرين كالسيد المرتضى في (تنزيه الانبياء/٧٨) قال "وأما همّه فما طبع عليه الرجال من شهوة النساء" وتبعه على ذلك الشيخ الطوسي رحمته الله فإنه ذكر للهم عدة معاني منها العزم ومنها الإخطار ومنها الشهوة وميل الطباع" ثم قال "وإذا احتمل الهم هذه الوجوه نفينا عنه رحمته الله العزم على القبيح وأجزنا باقي الوجوه لأن كل واحد منها يليق بحاله (التبيان ١٢١/٦)" وقال

مثله ابن إدريس في (منتخب التبيان: ٢٢/٢-٢٣) وقال الطبرسي في (مجمع البيان: ج ٥-٦/٣٥٤): "ثالثها أن معنى قوله (هم بها) اشتهاها ومال طبعه الى ما دعتة اليه" ثم قال "وقد يجوز أن تسمى الشهوة همّاً على سبيل التوسع والمجاز ولا قبح في الشهوة لأنها من فعل الله تعالى" وقال به آخرون ومنهم العلامة المجلسي قَالَ قال من ضمن كلام له "فالهم عبارة عن جواذب الطبيعة، ورؤية البرهان عبارة عن جواذب العبودية" (بحار الانوار: ٣٣٢/١٢)، وقال الملا صدرا في تفسيره "والبرهان هو ما عنده من الصوارف العقلية الزاجرة للنفس عن فعل القبيح، أو المراد من (الهم) الميل الشهوي الحيواني الموجود في الطبائع البشرية ولولا الزاجر الشرعي لما انتهى عن كل ما يمكنه من القبائح، ولولا المعرفة الكاملة للقوة العقلية المنورة بحقيقة التقوى لوقع منه فعل ما لا ينبغي أحياناً، وليس المراد الهم بالمعصية والقصد اليها....." وقيل هو من باب المشاركة أي شارف أن يهم) (تفسير القرآن الكريم: ١١٩/٣ و ٢٦٧/٦-٢٦٨)، وقال مثله البيضاوي في تفسيره وقال صاحب "في ظلال القرآن" (فذكر -القران- طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً وهو أقرب الى الطبيعة البشرية والى العصمة النبوية، وما كان يوسف سوى بشر، نعم إنه بشر مختار، ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات، فلما رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه بعد اللحظة الطارئة عاد الى الاعتصام والتأبى) (في ظلال القرآن: مج ٤/٧١٢) أقول: لم يرغب عن الصديق يوسف عليه السلام برهان ربه حتى يعود اليه ونقل عن الزمخشري في الكشاف "فإن قلت: كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد اليها، قلت: المراد أن نفسه مالت الى المخالطة، ونازعت اليها عن شهوة الشباب و..... ميلا يشبه الهم به والقصد اليه، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم وهو يكسر ما به ويردّه النظر في برهان الله".

وانجذبت باعتبار أن الأنبياء بشر^(١) لهم غرائزهم وشهواتهم وميولهم فتجذب نفسياً طبعياً ولا إرادياً الى مثيرات الغريزة كانجذاب الجائع الى الطعام تلقائياً، ولكنه ﷺ حبس نفسه وامتنع ولم يرتق ميله النفسي الى مستوى العزم والتوجه الى الفعل فضلاً عن القيام بالفعل نفسه لما رآه من برهان ربه كما في الآية الشريفة، وتفسير الهم بهذا المقدار لا ينافي العصمة.

لكن هذا التفسير غير صحيح، لوجوه:

١- لأن الهم لا يطلق على مجرد الميل النفسي الطبيعي بل على قصد الفعل والعزم عليه وقد يشترط فيه ظهور هذا العزم من خلال الإتيان بشيء مما يكشف عنه كمن يهم بالضرب فيتوجه الى الطرف الآخر ويتأهب للفعل وهذه كلها لا يمكن نسبتها الى النبي الكريم يوسف ﷺ كما اقروا في كلماتهم السابقة قال في الميزان ((الهم هو القصد الى الفعل مع مقارنته لبعض الأعمال الكاشفة عن ذلك من حركة الى الفعل المراد أو شروع في بعض مقدماته كمن يريد ضرب رجل فيقوم اليه وأما مجرد ميل الطبع ومنازعة القوة الشهوانية فليس يسمى همّاً البتة والهم بمعناه اللغوي مذموم لا ينبغي صدوره من نبي كريم، والطبع وإن كان غير مذموم لخروجه عن تحت التكليف لكنه لا يسمى همّاً)) ، فلا بد ان تكون المعاني التي ذكروها للهم هنا من باب التجوّز كما اعترف الطبرسي في مجمع البيان لتزيه النبي يوسف ﷺ عما لا يليق بساحة عصمته.

(١) قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ) (الكهف ١١٠) (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) (إبراهيم ١١).

وبتعبير آخر ان تفسير الهم بالميل الطبيعي وهو معنى مغاير لما فسرّوا به همها خلاف الظاهر ولا يصار اليه الا بدليل.

٢- إن الهم -بأي معنى من المعاني- لم يصدر من النبي يوسف عليه السلام أصلاً حتى نجتهد في تفسيره بما يناسب عصمة الانبياء، لانه رأى برهان ربّه فلم يهّمّ لكن جواب لولا تقدم عليها فيوجد تقديم وتأخير في الآية، نظير قوله تعالى (إِنْ كَادَتْ تُتْبِدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا) (القصص ١٠).

وقد أشكل علماء النحو على هذا الوجه لأنهم يمنعون من تقدم جزاء لولا عليها قياساً على إن الشرطية لانها من ادوات الشرط، وهذا الالتزام المتزمت بقواعد النحو التي استنبطوها اوقعهم في هذا التقصير مضافا الى تشبث البعض في الروايات المكذوبة من اسرائيليات وغيرها، لكن القران الكريم حاكم على قواعد اللغة العربية لانه مصدرها ومرشدها وليس العكس، خصوصاً وانه قد وردت رواية عن الإمام الرضا عليه السلام تفسّر الآية بهذا المعنى رواها الشيخ الصدوق في العيون وفيها (فقال له المؤمن: يا بن رسول الله اليس من قولك: ان الانبياء معصومون، قال: بلى، قال: فاخبرني عن قول الله تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) فقال الرضا عليه السلام: لقد هَمَّتْ به ولولا ان رأى برهان ربه لهمّ بها لكنه كان معصوماً، والمعصوم لا يهّمّ بذنب ولا يأتيه)^(١).

(١) عيون اخبار الرضا: باب مجلس آخر للرضا عليه السلام عند المؤمن في عصمة الانبياء.

أقول: والشاهد على ان الهم الثاني لم يحصل^(١) وانه جواب لولا:

أ- الاتيان بالهمين منفصلين ليكون الثاني وحده جواب لولا ، ولو حصل الهم من يوسف لما احتاج الى التفصيل بينهما، ونكتة تقديم الجزاء هي ما قلناه من تصوير الحالة بان مقتضي الهم تام ومكتمل لولا لطف الله تعالى مع ما في التعبير من حلاوة البيان لمجاورة الهمين.

ب- ان (هم بها) اذا لم تكن جواب لولا بقيت بلا جواب، واذا قيل ان الجواب مقدّر يكشف عنه ما تقدّم قلنا ان التقدير خلاف الاصل وان تقدير الجواب هكذا يؤدي الى تناقض لان (هم بها) السابقة تثبت الهم وتقديرها في جواب لولا ينفيه. لذا فمحاولة السيد الطباطبائي قدس سره وغيره المحافظة على معنى نفي الهم عن الصديق يوسف عليه السلام مع المحافظة على هذه القاعدة النحوية بأن يُقال أن جواب لولا متأخر عنها لكنه محذوف لدلالة قوله السابق (وهم بها) عليها فتكون الفقرة السابقة (وهم بها) ((ليس جزاء لها بل هو مقسم^(٢) به بالعطف على مدخول لام القسم في الجملة السابقة اعني قوله (ولقد همت به) وهو في معنى الجزاء استغنى به عن ذكر الجزاء فهو كقولنا ((والله لأضربنه إن يضربني، والمعنى: والله إن يضربني أضربه))، فلولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهم

(١) وقد اعترفت زوجة العزيز بأن الهم حصل منها وحدها (وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)

يوسف ٣٢.

(٢) باعتبار أن اللام للقسم فالمعنى أقسم لقد همت به لقضاء وطرها.

والاقتراب دون الارتكاب والاقتراف^(١). محل نظر، مضافا الى ان فيه إقراراً بحصول الهم من يوسف بأي معنى كان والمفروض نفيه.

٣- وينسجم ما ذكرناه من فهم الآية على انها تقديم وتأخير مع ما قدمناه من تفسير الآية فإنه حتى الميل النفسي بالمقدار الطبيعي الغريزي لم يحصل لا لنقص بايولوجي أو سايكولوجي أو فسيولوجي في جسمه وإنما لأمرين على الأقل:

أ- لأنه كان والهأ بربه مستغرقاً بحبه ولم يكن يرى غيره تبارك وتعالى لا المرأة أمامه ولا غيرها فذوبان النبي يوسف في عشق ربه وفناءه فيه لا يقارن بانجذاب النسوة الى جمال يوسف حتى ذهبن عن السكين وقطع ايديهن، فيوسف اولى بالذهول عن المرأة وغيرها بحيث أنساه ولهه ((الاسباب كلها حتى أنساه نفسه فلم يقل: إني أعوذ منك بالله أو ما يؤدي معناه، إنما قال (مَعَاذَ اللَّهِ) وكم من الفرق بين قوله هذا وبين قول مريم للروح لما تمثل لها بشراً سوياً (إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) (مريم ١٨)))^(٢).

وقد ((استغرق في حب ربه واخلص وصفى ذلك نفسه فلم يترك لشيء في قلبه محلاً غير حبيبه فهو في خلوة مع ربه وحضرة منه يشاهد فيها جماله وجلاله وقد طارت الاسباب الكونية على مالها من ظاهر التأثير من نظره))^(٣).

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٣١/١١ وقد نقل في ١٣٨/١١ هذا المعنى عن الزمخشري في كشافه.

(٢) الميزان في تفسير القرآن. ١٢٦/١١.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٢٥/١١.

ب- إن الغرائز والشهوات يستثيرها تزوين الشيطان - وهذه هي وظيفته - وعندما تُسَلَبْ قدرة الشيطان على التزوين فإن هذه الشهوات تفقد سبباً رئيسياً لإثارتها مع وجودها في النفس الانسانية، وقد اعترف الشيطان بأنه لا سبيل له على المخلصين وليست له القدرة على إغوائهم فقد حكى الله تبارك وتعالى قوله (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ) (ص ٨٢-٨٣) وقد قال الله تعالى في الآية محل البحث عن النبي يوسف عليه السلام (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ) (يوسف ٢٤) فهو من مأمّن من تزوين ابليس وشياطينه، ولا تتحرك غريزته وشهوته نحو الحرام لعدم وجود التزوين.

مضافا الى وجود الصوارف عنها - وهو برهان ربه - كما ان الجائع لا يشتهي الطعام عند وجود صوارف كالخوف والقلق والانشغال بمن يحب ونحو ذلك، فالغرائز فيها مقتضي التحرك نحو ما يلبي شهواتها الا أن ذلك مشروط بوجود المقتضي وهو التزوين وبعدم وجود الصارف وكلا الشرطين مفقودان هنا.

في كيفية الحصانة من ضغط الشهوات والمغريات:

أما كيفية حصول هذه الحصانة من ضغط الشهوات والمغريات وتحرره من أسرها والسقوط في هاويتها وعدم تأثره بمثيراتها أصلاً فبالالتفات الى امور صرّح بها الصديق يوسف عليه السلام (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (يوسف ٢٣)، وقد كانت مكتملة عنده لأنه نبي معصوم ولذا ورد في الحديث الشريف (إن برهان ربه كانت النبوة)^(١).

أ- والاستعاذة به واللجوء الى حصنه المنيع فالإنسان بمفرده عاجز عن تجاوز الامتحانات السهلة فضلاً عن الصعبة لكنه يستمد التسديد والمعونة والعصمة من الله تالي (لا حول ولا قوة الا بالله). وفي دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام (وَإِنْ خَذَلَنِي نَصْرُكَ عِنْدَ مُحَارَبَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ فَقَدْ وَكَّلَنِي خِذْلَانُكَ إِلَى حَيْثُ النَّصَبُ وَالْجُرْمَانُ).

ب- يقينه أنه مربوب أي مملوك مدبر من قبل الله سبحانه لا يملك لنفسه شيئاً الا ما يريده ربه منه ((فلم يقل: لا أفعل ما تأمروني به ولم يقل: لا أرتكب كذا، ولم يقل: أعوذ بالله منك وما شابه ذلك حذرا من دعوى الحول والقوة واشفاقا من وسمة الشرك والجهالة)^(١).

ت- الالتفات الى نعم الله العظيمة التي لا تُعد ولا تُحصى ورعايته وتربيته الرحيمة المستمرة (إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ) (يوسف ٢٣) منذ أن ولد وعاش في كنف أبيه النبي يعقوب عليه السلام وجعله من ذرية إبراهيم وإسحاق ونجاته من كيد إخوته الباغين الحاسدين ومن الجب ونقله الى مصر وتمكينه في بيت عزيز مصر وآتاه الله العلم والحكمة وغيرها مما لا يُعد ولا يُحصى ((فكان عليه السلام مملوء الحس مستغرق النفس في مشاهدة الطاف ربه الخفية يرى نفسه تحت ولاية الله محبوراً بصنائعه الجميلة لا يرد الا على خير، ولا يواجه الا جميلاً))^(٢).

ث- استحضار سوء عاقبة مرتكب المعصية في الدنيا والآخرة (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

(١) الميزان: ١٢٧/١١.

(٢) الميزان: ١٢٣/١١.

الظَّالِمُونَ)، وفي هذا الفعل ظلم لربه وظلم لنفسه وظلم لعزير مصر الذي اكرمه.

في معنى برهان ربه:

فهذه الامور التي كانت حاضرة في وجدان النبي يوسف عليه السلام وجليه في قلبه الطاهر هي برهان ربه الذي أشرق في نفسه بكل وضوح وجلاء -والبرهان من بره يبره إذا ابيض دون مخالطة أي كدورة فأطلق على كل دليل محكم قوي يدل بوضوح على المطلوب - فلم تتطلع نفسه الى المعصية ولم تمل اليها فضلاً عن الوقوع بها (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) فلولا أنه كان واجداً لبرهان ربه لصدر منه الهم بالمعصية والميل اليها باعتبار الظروف القاهرة في تلك الحال، فهنا تقدم جواب لولا على شرطها لنكتة مجاورة التعبير بالهم او للإشارة الى ان ظروف الوقوع في المعصية قد اكتملت بقوة، وتقديرها لولا انه رأى برهان ربه لهم بها، ولكنه عليه السلام كان يعتقد أنه في محضر ربه في أعلى درجات اليقين فلم يهَم أصلاً، وقد تقدمت الرواية عن الامام الرضا عليه السلام في هذا المعنى.

فمع هذا الحضور الجليّ اليقيني الذي عبّر عن مثله امير المؤمنين عليه السلام بقوله (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه)^(١) كيف يتصور هم يوسف بأي معنى للهم حتى النزوع الغريزي الطبيعي لأنه يحتاج الى ظروف طبيعية ليتوجه ولعدم وجود موانع وصوارف.

هل يصل غير المعصوم الى الحصانة اليوسفية؟

والسؤال هل يتمكن غير المعصوم من الوصول الى هذه الدرجة من

(١) تفسير مواهب الوهاب ٢: ٣٦. وكذا في كتاب علم اليقين: ٤٩/١.

الحصانة والعناية الالهية التي احاطت النبي يوسف عليه السلام، والجواب: نعم بالتأكيد من خلال الالتفات الى الامور المتقدمة، قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (الأعراف ٢٠١) فالان عرفنا ما معنى (تذكروا) اي التفاتوا الى هذه الامور التي ذكرها الله تعالى ليوسف عليه السلام وهذا هو مضمون البرهان الذي راه من ربه، قال تعالى مبيناً انفتاح الفرصة للجميع (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (النحل ٩٩). فالمؤمن المخلص يتذكر ربه المنعم عليه دائماً ويعيش في حضرته المتعالية ويعلم العاقبة السيئة لمن يتبعد عنه تبارك وتعالى، وحينئذ يدركه هذا البرهان ويعينه عند التعرض للامتحانات وانما يتحصل ذلك البرهان بالازدياد بالطاعات التي تنفعه في لحظات الامتحان الصعبة، كمن يدخر المال ليوم فقره وفاقه، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال ٢٩).

والتجربة شاهدة على ذلك حيث يحكي البعض عن تعرضه لمثل هذه الاغراءات والمكائد لكنه لا يجد في نفسه أي حركة في اتجاهها أو أي (هم) لفعلها لا لنقص في قواه البدنية والشهوية وإنما لأن الشيطان كان مغلولاً عنه فلم يزيّن له المعصية، والنفس وحدها من دون تزيين لا تتوجه نحو الفعل.

ولكي اوضح مدخلة التزيين اشير الى حالة معروفة لدى الكثيرين، مثلاً رجل عنده زوجة ولا يشعر بإثارة نحوها وقد يكون في بداية زواجه منها، لكنه يقع في هوى امرأة أجنبية اخرى وهو يعترف بأن زوجته قد تكون أجمل والطف وأرق مشاعر ومتحبة ومتوددة اليه ونحو ذلك، فلماذا هذا التناقض في الميول؟

والجواب انه تزيين الشيطان للثانية دون الاولى لأنه يريد أن يوقع الانسان في المعصية ويخرّب بيت الزوجية المبارك الذي ما بُني بناء في الاسلام مثله.

ولا بد أن نشير الى أن هذا الالتفات الاعتقادي القلبي وحده لا يكفي ما لم يقترن بالعمل قال تعالى مبينا علة استحقاق يوسف عليه السلام لهذه المراتب السامية (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (يوسف ٢٢) وقال تعالى على نحو القاعدة العامة، ولا تختص بالمعصومين (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (النحل ١٢٨).

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا

إليك [الأعراف: ١٥٦]

التوسل بالأعمال الصالحة لاستجابة الدعاء^(١)

قصة في تأثير العمل الصالح:

روت عدة مصادر من الشيعة والسنة عن النبي ﷺ انه قال (بينما ثلاثة رهط يتماشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل ، فينما هم فيه انحطت صخرة فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أفضل أعمال عملتموها فسلوه بها - وفي مصدر آخر : تذكرون احسن اعمالكم فادعوا الله عز وجل بها وفي مصدر ثالث : انظروا اعمالا عملتموها صالحة لله - لعله يفرج عنكم .

قال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان كبيران وكانت لي امرأة وأولاد صغار فكنت أرعى عليهم ، فإذا أرحت عليهم غنمي بدأت بوالدي فسقيتهما ، فلم آت حتى نام أبوي فطبيت الاناء ثم حلبت ، ثم قمت بحلابي عند رأس أبوي والصبية ينضاعون عند رجلي ، أكره أن أبدأ بهم قبل أبوي ، وأكره أن أوقظهما من نومهما ، فلم أزل كذلك حتى أضاء الفجر اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج لهم فرجة فرأوا منها السماء.

(١) حديث سماحة الشيخ المرجع العتيقي (دام ظله) مع الطلبة الاوائل في الامتحان المركزي لفروع جامعة الصدر الدينية في المحافظات وحشد من طلبة جامعة ميسان ووفود أخرى يوم

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لي بنت عم فأحببتها حبا كانت أعز الناس إلي ، فسألته نفسها ، فقالت : لا حتى تأتيني بمائة دينار ، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فأتيتها بها ، فلما كنت بين رجلها قالت : اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمتم عنها ، اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا فيها فرجة ، ففرج الله لهم فيها فرجة.

وقال الثالث : اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق ذرة ، فلما قضى عمله عرضت عليه فأبى أن يأخذها ورغب عنه ، فلم أزل أعتمل به حتى جمعت منه بقرا ورعاتها، فجاءني وقال : اتق الله وأعطني حقي ولا تظلمني ، فقلت له : اذهب إلى تلك البقر ورعاتها فخذها فذهب واستاقها ، اللهم إن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما بقي منها ففرج الله عنهم فخرجوا يتماشون^(١).

الدروس والعبر:

أقول: يمكن استخلاص عدة دروس وعبر من هذه الحكاية:

١- إن هذه الحادثة وأمثالها تولد الاطمئنان القلبي العملي بجملة من الاعتقادات التي تؤمن بها نظرياً لكننا عملياً لا ندعن بها ولا نتوجه إليها، والإيمان النظري لا يكفي ليكون محرّكاً عملياً حتى يطمئن القلب بها وذلك عندما تقع عملياً من باب (أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي).

فهذه الواقعة ترسخ عدة عقائد:

(١) بحار الانوار : ٤٢١/١٤ عن آمالى الشيخ الطوسي : ٤٠٨، ورواها الطبراني في كتاب الدعاء الحديث ١٧٨ بسنده عن علي ابن ابي طالب عليه السلام واخرجه البخاري في باب (التوسل بالأعمال الصالحة عند الدعاء).

(منها) عقيدة ان الله على كل شيء قدير فكم واحد منا يقع في مثل المأزق وهو مطمئن الى ان الله تعالى قادر على أن يزيل هذه الصخرة بمجرد تعلق إرادته بذلك (كن فيكون) أما عامة الناس فانهم يعتقدون باستحالة ذلك لاحتياج الأمر الى أجهزة وآليات لرفع الصخرة وعمال من أين تأتي بهم وهكذا، لكن الحقيقة إن ارادة الله تعالى إذا تعلق بإزالتها استجابة لدعاء هؤلاء فأنها تزول، ولا نستكثر ذلك على الخالق المقتدر فنحن البشر المخلوقون الضعفاء إذا تعلق إرادتنا بأن نقفز يرتفع الجسد الذي قد يزيد وزنه عن ١٠٠ كغم مباشرة من دون أي مؤثر خارجي سوى الارادة، فلماذا لا يتحقق كل ما تتعلق به ارادة الله تعالى وبيده كل شيء وكل شيء خاضع له (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس ٨٢/).

و(منها) عقيدة إن مع العسر يسرا وهذا ما حصل لهم بالصبر والدعاء والتوسل.

و(منها) إن (من يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) وقد جعل الله تعالى لهم مخرجاً بتقواهم.

و(منها) ان الله عند حسن ظن عبده إذا أحسن الظن، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال (والذي لا إله إلا هو، لا يحسن ظن عبد مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبد المؤمن، لأن الله كريم بيده الخيرات، يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخلف ظنه ورجاءه، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه)^(١)،

(١) بحار الأنوار: ٣٦٦/٧٠ ح ١٤.

فالرواية تدعونا الى حسن الظن دائماً ورجاء الخير من الله تبارك وتعالى وسيحقق الله تعالى ذلك لعباده.

٢- حسن أدب هؤلاء الثلاثة مع ربهم وصحة عبوديتهم ومعرفتهم بالله تبارك وتعالى، إذ أنهم مضافاً إلى ما حملوه من المعرفة بالله تبارك وتعالى التي ذكرناها في النقطة الأولى لم يقدموا بين يدي ربهم أي عمل يمتنون به على الله تبارك وتعالى ولا طالبوا باستحقاق لهم عند ربهم ولم يزكوا أنفسهم وأعمالهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٩] وغاية ما قالوا (اللهم إنك إن كنت تعلم إنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك)، ومن معرفتهم التفاتهم الى

هذه الوسيلة للفرج والوصول الى المراد.

٣- إن من أسباب استجابة الدعاء التوسل إلى الله تبارك وتعالى والتقرب اليه بعمل صالح قد أحسنه وأخلص النية فيه من دون اتكال على العمل أو العجب به أو الجزم بصلاحه واستحقاقه للعطاء فإن هذه كلها محبطات للعمل ومن دون اقتراح على الله تبارك وتعالى ولكن من باب التقرب إلى الله تعالى بشيء يحبه. فالأول توسل الى الله تعالى بالإحسان الى والديه والآية تقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] خصوصاً مع الوصية المؤكدة بالوالدين (وبالوالدين إحساناً).

والثاني توسل الى الله تعالى بعمل المتقين الورعين والآية تقول (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [التوبة: ٤].

والثالث طهر نفسه من مظالم العباد وحقوقهم عنده وتاب الى الله تعالى توبة صادقة، والله تعالى يقول (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) [البقرة: ٢٢٢].
من أراد نفع الدنيا ليخلص عمله:

وهذا أحد تطبيقات قول الصديقة الزهراء (عليها السلام) (من أصدع إلى الله خالص عبادته، أهبط الله إليه أفضل مصلحته) فمن رغب أن يختار الله تعالى له أفضل الخيارات وأصلحها له وأكثرها نفعاً في الدنيا والآخرة فليبالغ في إخلاص عمله من الشوائب.

وقد جرّبت ذلك في حياتي فإن بعض الذي أعرف لهم أعمالاً صالحة أحسنوا فيها للآخرين وقعوا في شدة أو بلاء أو حاجة فسألت الله تبارك وتعالى بما أعرف عنهم من تلك الأعمال ففرّج الله تعالى عنهم وقضى حوائجهم ببركة إحسانهم.

إن اتخاذ هذه المقدمة كوسيلة لاستجابة الدعاء من الآداب القرآنية كقوله تعالى (وَاَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) [الأعراف: ١٥٦] والله تعالى يحب التوابين فجعلوا الرجوع الى الله تعالى والتوبة اليه مقدمة للدعاء.

ومنها الآيتان ١٩٣، ٥٣ من سورة آل عمران ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وورد هذا المعنى في الأدعية المباركة مثل (اللهم إنني أطعك في أحب

الأشياء اليك وهو التوحيد ولم أعصك في ابغض الأشياء اليك وهو الشرك فاغفر لي ما بينهما) وهنا تصريح بالتوسل بأحب شيء الى الله تبارك وتعالى.
والخلاصة أن علينا أن نحسن في اعمالنا ونخلصها الى الله تبارك وتعالى لنحظى بحبه وقبوله وتكون سبباً لاستجابة الدعاء إن شاء الله تعالى.

(ولمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ)^(١) [الأحزاب: ٢٢]
التحديات التي يواجهها العراق المعاصر

هذه الآية من سورة الأحزاب تصف لنا جانباً من ثبات وشموخ النبي ﷺ وأصحابه الآخذين بسنته المباركة، حيث يصف الله تعالى أعداء الإسلام وإحاطتهم بالمدينة وحصار أهلها للانقضاض عليهم والرعب والهلع الذي أصاب المسلمين، قال تعالى: (إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زُلْزَالًا شَدِيدًا) (الأحزاب ١٠-١١) هكذا تحزّب عشرة الاف مقاتل من المشركين واحلافهم من اليهود وعشائر العرب وحاصروا المسلمين في المدينة متوعدين اياهم بالقتل والتدمير فماذا كان موقف المؤمنين إزاء هذه الأجواء التي تنخلع لها القلوب، قال تعالى: (كَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) (الأحزاب ٢٢) ومن ملاحظة السياق والمضمون يظهر أن المراد بما وعدهم الله بقوله تعالى في سورة البقرة - وهي من أوائل السور نزولاً في المدينة (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَكَمَّا

(١) من حديث سماعة المرجع يعقوبي (دام ظله) مع الوجبة الثانية من الطلبة والشباب الذين يقضون فترة المعاشة الصيفية مع الحوزة العلمية في النجف الاشرف ومجموعة ناشطين في مؤسسات المجتمع المدني يوم الثلاثاء ١٨ شوال ١٤٣٦ الموافق ٢٠١٥/٨/٤.

يَا تِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (البقرة ٢١٤)

فتلاحظ أن آية الأحزاب أكدت تحقق ما وعدت به آية سورة البقرة من اشتداد البلاء حتى يُزلزل المؤمنون ويفقدون الأمل بنزول النصر، لكن الله تعالى يطمئنهم ويبشرهم بأن نصر الله قريب.

وهذا ما حصل فقد تبدلت بعد واقعة الأحزاب موازين القوى وتحولت لصالح المسلمين، فوقع صلح الحديبية بعد عام أي في السنة السادسة وهو ما وصفه الله تعالى بالفتح المبين وفي السابعة أدى النبي ﷺ عمرة القضاء ثم فتح مكة في الثامنة وانتهت سطوة المشركين ونفوذهم.

إن هذا الدرس من سورة الأحزاب لا يختص بالنبي ﷺ وأصحابه الذين كانوا معه فالقران خالد مستمر بإداء دوره الى يوم القيامة فيشمل كل حالة مماثلة، اذ قال الله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (البقرة ٢١٤) اي انها سنة جارية في كل القادة والأمم جميعاً.

لنكن بمستوى تحديات عصرنا تشخيصاً وعلاجاً:

ولذا يجد الواعي أن من السمات البارزة في مسيرة كل الأئمة الطاهرين عليه السلام ومنهم الإمام الصادق عليه السلام ونحن نعيش ذكرى استشهاده، وهم قادة الإسلام الذين وهبهم الله تعالى للبشرية هو مواكبتهم لتحديات عصرهم، ولا أقول أنهم كانوا بمستوى تحديات عصرهم بل فوق ذلك لأنهم محيطون بعصرهم وما سبقه وما لحقه، ولكن الذي نريد أن نفهمه نحن هو أن نكون بمستوى تحديات عصرنا

تشخيصاً وعلاجاً.

تحديات العراق المعاصر:

ويمكن أن ننظم استطلاعاً للرأي العام واستبياناً لتصوير الناس عن هذه التحديات والمشاكل التي يواجهها العراق المعاصر ونعني به عراق ما بعد احتلال عام ٢٠٠٣، وسيكون هذا الاستطلاع مصدراً مفيداً للتعرف عليها لأنه سيجمع رؤى متعددة ومن زوايا مختلفة للامور، وإن كان الكثير منها ملفتاً اليه وواضحاً.

تحدي الاحتلال وتخريبه للمنظومة الثقافية والأخلاقية:

وما دمنا شخّصنا الموضوع بأنه عراق ما بعد الاحتلال، إذن فالاحتلال هو أول هذه التحديات وقد قلنا في عدة خطابات منذ الأيام الاولى للاحتلال أنه لا يقتصر على الاحتلال العسكري لأن مجيء القوات المحتلة ومكثها انما هو أداة ووسيلة لفرض واقع جديد له عدة أبعاد منها الهيمنة على القرار السياسي ودمج العراق في نظامهم العالمي الجديد، وتبعية الاقتصاد لنظامهم الحر كما يصفون والاستحواذ على خيراته، والافساد الأخلاقي وتبديل الثقافة والتقاليد التي يبنى عليها سلوك الفرد والمجتمع، والانسلاخ من القيم والمبادئ، وتصل حتى التغيير الديمغرافي لأجل مصالح معينة وبقيت هذه الأخطار تنخر في جسد العراق وشعبه حتى بعد رحيل القوات العسكرية للمحتلين.

تحدي الإرهاب:

وجاء مع هذه التحديات التي جلبها الاحتلال الإرهاب الذي اتخذ من مقاومة الاحتلال غطاءً للخداع المغفلين حتى يلتحقوا به وينفذوا جرائمه،

ووفر هذا التحديان بيئة مناسبة لانخراط الكثير من الشباب في جماعات العنف التي تمارس القتل والخطف والابتزاز والسرقه والاعتداء على الممتلكات العامة.

فساد المتسلطين:

ورغم خطورة هذه التحديات الا أن الأخطر منها - كما وصفت في الخطاب الفاطمي عام ١٤٢٩^(١) هو فساد المتسلطين الماسكين بمفاصل الدولة واستئثارهم بالمال العام وسرقته تحت عناوين وهمية وتهريبه الى خارج العراق وقد تفننوا بهذا بشكل لا نظير له في التاريخ ولا في الجغرافيا كما يقولون .

ورافق هذه المسارات تدمير ممنهج لمؤسسات الدولة المدنية والعسكرية لإضعافها وجعلها عاجزة عن القيام بمسؤولياتها في حفظ النظام وحماية المواطنين وحقوقهم والنهوض بالبلاد والقيام بالمشاريع التنموية ومحاسبة المفسدين، ليغطوا بذلك على فشلهم وفسادهم وشغلوا الناس بنزاعاتهم وصراعاتهم ونشر غسيلهم التي لا يُرجى منها أي خير سوى لي بعضهم ذراع بعض وابتزازه وقضم كمية أكبر من كعكة العراق كما يصفونها، فكان هذا الفساد هو الممّون للإرهاب والعامل المساعد على انتشاره وتجذره، وأسوأ ما خلفه الاحتلال وجاء به سياسيو العصر الجديد.

التحدي الخطير في تبعية أغلب السياسيين لأجندات أجنبية:

وكان التحدي الخطير الآخر تبعية أغلب الطبقة الحاكمة لأجندات أجنبية

(١) راجع خطاب المرحلة ١٦١ (اعداء الشعب ثلاثة: الاحتلال، الارهاب، فساد الحكومة) المجلد

٦ من كتاب خطاب المرحلة. ص ١٣٩.

ينفذونها على حساب العراق ومصالح أهله أما لأنه يعتقد أن هذه الدولة تحميه وتمكّنه وتدعمه أو لأن الكثير منهم كانوا في خارج العراق ويعتاشون على مساعدات تلك الدول ويحمل بعضهم جنسية تلك الدول أو جواز سفرها ولا زالت عائلته مستقرة فيها فهو يدين بالولاء لها وهمّة تسخير ما يستطيع من موارد العراق لمصلحة تلك الدول حتى وهو في أعلى المواقع في قيادة البلاد.

حينما نتكلم نحن ويسكت الآخرون:

وقد نبهنا الى هذه الأخطاء والاطار قبل عشر سنوات وطالبنا بإصلاحها وقدما الخطط الكفيلة بذلك إلا أنني كنت الوحيد الذي أتكلم أما الآخرون - من الزعامات الدينية والسياسية - فكانوا سكارى بمغانم السلطة والدنيا التي حصلوا عليها بعد الاحتلال واجتمعوا على معاداتي وتسقيطي وإقصائي لأنهم لا يريدون ارتفاع صوت من يوقظ الناس من جهلهم وغفلتهم.

ونبها أيضاً من أول يوم الى الغزو الاخلاقي لإفساد المجتمع من خلال إغراقه بالتقنيات الحديثة لوسائل التواصل الاجتماعي والانترنت وإباحة كل شيء من دون فترة أو تشفير وهو مالا تجده حتى دول الغرب المتحللة التي تتخذ الاجراءات لتحصينهم من بعض ما يعرض من الانتاج المدمر لكل القيم أما العراق فمستباح لكل شيء، واوردنا في عدة خطابات عشرات المضار لإباحة هذه الوسائل.

تجهيل العقول وتسطيحها:

ومن مشكلات العراق المعاصر عملية التجهيل والتضليل وتسطيح العقول

للناس لأن الجاهل يسهل قياده حيث يشاؤون مما أدى الى نقص معرفي وثقافي عام وصل حد التخلف أحياناً ومن المؤسف ممارسة القيادات لذلك حتى بعض الزعامات الدينية ومحاربة من يوقظ الناس وينبهها الى حقوقها ومصالحها وتسقيطه وافتراء الشبهات عليه لخوفهم من يقظة الناس ووعيهم وبصيرتهم في الامور، وأصبح الكتاب وأدوات المعرفة الاخرى آخر ما يثير اهتمام الناس وشغفهم رغم أن الكتاب أرخص الأشياء سعراً وأعظمها فائدة ولعل أوضح مثال إعادة انتخاب الناس للفاسدين والظالمين بعد أن يعصّوا على أصابع الندم لانتخابهم في المرحلة السابقة ويقولون سنقطع أصابعنا التي تلوّت بحبر الانتخاب، هكذا يُساق الشعب الى الظلم والخراب والقتل طائعاً مختاراً بفعل ما تقوم به الجهات الدينية والسياسية من مكر وخداع وتجهيل وتقديس الأصنام .

الفتنة القذرة: الحرب الطائفية وتقسيم البلد:

وإن أخطر المشاكل التي صنعوها للعراق وأقذرها فتنة الحرب الطائفية التي لا ثمرة فيها ويخرج الجميع منها خاسرين وتمتاز بالقسوة وفقدان البصيرة وعدم التورع عن ممارسة ابشع الاساليب الوحشية لانها تجري بأسم الدين والمذهب وتُروج على انها حرب مقدسة .

والمشكلة الخطيرة الاخرى مشروع تقسيم البلاد التي تؤدي الى تمزيق أهله وإدخالهم في صراعات دموية مدمرة لا نهاية لها، فتتحارب هذه القومية وتلك وهذه الطائفة وتلك وهذا الاقليم وذاك وهذه المحافظة وتلك وهذه العشيرة وتلك، مع ضعف الدولة وعجزها عن إطفاء هذا الاتون الملتهب، بل أن الكثير من

السياسيين والانتهازيين وأصحاب الأجندات الهدامة يغذون هذه الصراعات لأنهم يعتاشون عليها وتديم وجودهم ونفوذهم.

وفي خضم هذه الصراعات انمحت الهوية الوطنية ولم يبق شعور بالانتماء الى العراق أو تدفق الاحساس بالوطنية ولم يعد يوجد ما يوحد العراقيين ويلهب مشاعرهم الا بعض الحالات النادرة، بل لا يستحي بعضهم من الحديث عن عدم وجود أي شيء اسمه العراق.

الآزمة الاقتصادية:

ومنها سوء ادارة اقتصاد البلد وعدم وجود خطط مدروسة لاستثمار ثرواته، فضعاف بسبب ذلك مئات المليارات من الدولارات واقصي المتخصصون والخبراء المهنيون، وهذا ما حصل في كل مؤسسات الدولة التي عبث بها الاحزاب ورؤساؤها من امراء الحروب وآخر ما تفتقت عنه شيطنة الفساد عند المتسلطين هو عرض قطاع الكهرباء للخصخصة وان حاله لا ينصلح الا بإحالة الى المستثمرين، هذا بعد صرف اكثر من ٣٥ مليار دولار من اموال الشعب على هذا القطاع، ولنا تجربة مؤلمة مع احوالة مؤسسات الدولة الى القطاع الخاص الذي قامت به وزارة الصناعة وعقود التراخيص لوزارة النفط وبيع اموال وعقارات الدولة حيث تباع بسعر التراب الى المستثمرين ويأخذ المسؤول عمولته من السحت الحرام ثم يحسبها المستثمر بمليارات الدولارات في فاتورة حسابات المشروع الاستثماري ليستوفوا اجور عالية من الشعب المسكين، فهل التفت المتظاهرون المتحمسون لحقيقة ما يجري.

العراق يشبه الحسين عليه السلام في وحدته ومظلوميته:

هذه وغيرها بعض مشكلات العراق والتحديات التي تواجهه بل الطعنات التي توجه اليه من القريب قبل البعيد ومن أبنائه قبل أعدائه، ومن الجار والأخ قبل الغريب والأجنبي لأنهم ينفذون طوعاً وبذلة التبعية ويبيع الضمائر والولاءات أجنداث أعداء العراق، فتتابعت عليه النكبة بعد النكبة والجرح على الجرح والكارثة على الكارثة، وحينما أتصور العراق بهذه الحالة ينتقل ذهني الى الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء وهو ينزف دمًا قد أصابته مئات الجراحات لأن الطعنة على الطعنة والضربة على الضربة والرمية على الرمية، لكنه عليه السلام كان واقفاً شامخاً ألباً عزيزاً منتصراً وأعداؤه مهزومون خائفون مرعوبون قلقون من مستقبلهم المظلم، وهكذا العراق يبقى ثابتاً شامخاً عصياً على الأعداء بإذن الله تعالى وبما ضمَّ في ترابه من أجساد الائمة الطاهرين والأنبياء العظام (صلوات الله عليهم اجمعين) والمشاهد المشرفة، وبوجود ثلة مؤمنة مخلصه شجاعة تمتلك الهمة العالية والروح الكبيرة.

مسؤولياتنا أمام كل الأعداء: درس من سورة الأحزاب:

وهنا أمام هذا الحشد المرعب من الأعداء المجرمين مصاصي الدماء وناهبي ثروات الشعوب وأعداء الحياة والحضارة والإنسانية الذين تحزّبوا وأعدّوا عدتهم للهيمنة على العراق واستعباد أهله واستئصال كل غيور حر شريف علينا أن نستلهم موقفنا مما حكاه الله تعالى من سورة الأحزاب ازاء ما يتعرض له العراقيون من اشتداد البلاءات وكثرتها وتحزب شياطين الإنس والجن عليه، لأنه مركز النور ومنطلق الهداية للعالم أجمع، فيخاف الجميع من نهضته وقيامه وكل منهم ينطلق

من زاويته في النظر الى ما يقلقه من العراق، فعلينا ان نستلهم الموقف مما ذكره الله تعالى في سورة الاحزاب.

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفِ قُوَّةٍ)^(١)

[الروم : ٥٤]

لكي نتفكر في خلق الله وصنعه:

سورة الروم غنية بالآيات التي تدعوا الناس الى التفكر بآيات الله والتدبر فيها للارتقاء بمعرفة الله تعالى ومنها قوله تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) (الروم-٥٤).

(خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ):

والآية تشير الى المراحل التكوينية التي يمر بها الانسان، (خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ) يبدأ من ضعف النطفة وهو الماء المهين الذي يتكون منه ويلقح البويضة فتكون علقه تتغذى من جدار رحم الام ثم تتكاثر وتزداد وتتحوّل العلقه الى مضغة وهي قطعة لحمية صغيرة ثم يخلق الله تعالى العظام ويتكامل نموه، وهو في كل مرحلة من المراحل كائن ضعيف لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ويأتيه رزقه من امه وينمو جسمه بلا ارادة منه.

ثم يولد ويخرج الى الدنيا وهو لا يزال ضعيفاً لا يقدر على شيء فقيض

(١) من حديث سماحة المرجع العنقوبي مع حشد كبير من طلبة جامعة ميسان يوم السبت

الله تعالى له والدين شفيقين رحيمين محبين له يتوليان رعايته وتربيته ويجلبان له الخير ويدفعان عنه الضرر وخلال ذلك يتقلب في هذه الحالات من الضعف.

(ثم جعل من بعد ضعف قوة):

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفِ قُوَّةٍ) حينما تكتمل قواه الجسدية - البلوغ - والعقلية - بالرشد وحسن التصرف - وعلمية - بالتجربة والتعلم - ثم تضاف له قوى اخرى، مثلا - المالية - عندما يبدأ بالكسب والعمل - والاجتماعية - حينما يصبح في موقع او يكون له عنوان اجتماعي او جاء معروف به - والثقافية - بما تزود من علوم ومعارف - وهكذا تجتمع عنده اسباب القوة التي عبّر عنها الله تعالى في مواضع عديدة ببلوغ الاشد (حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ) (الأحقاف - ١٥) (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ) (يوسف - ٢٢).

(ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة):

(ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً) حيث يؤول امره الى الضعف فيظهر عليه وهن الكهولة والشيخوخة وربما يبتلى بالأمراض ولم يعد بتلك القوة حينما كان يركض ويقفز بخفة ونشاط فاصبح يتوكأ حينما يقوم، وتضعف ايضا قواه الذهنية فيفقد قوة الحافظة الى كانت في شبابه حينما كان يحفظ القصيدة الطويلة عن ظهر قلب ويطالع كتبه الدراسية ويجب عن كل سؤال يوجه اليه، اما اليوم فلا يقدر على شيء من ذلك بل لم يعد يحتفظ بالمعلومات التي كانت عنده، وربما يصاب البعض بالخرف وفقدان الذاكرة او ما يعرف بالزهايمر، فيعود امره من

جديد الى الضعف ولكن هذا الضعف اشد من ضعف الطفولة لذا قرن معه (و شبيهة) للإشارة الى هذا الفرق فقد كان ضعف الطفولة متجها نحو الصعود والتكامل وخيره مقبل وكان معه والدان يداريان، اما ضعف الشبية ففي طريق النزول ومزيد من الضعف وفقدان القوى وليس عنده مثل رحمة الوالدين وشفقتهم قال تعالى (وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ) (يس - ٦٨). وقال تعالى في اشارة لهذا النزول (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ يُعَلِّمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) (الحج - ٥) فاذا كان عنده علم لكنه لما امتد به العمر طويلا فقد تلك المعلومات.

الدروس المستفادة من الآية الكريمة:

بعد هذا الشرح الموجز للآية نستخلص عدة رسائل موجهة من خلالها:

الاولى: قدرة الله تبارك وتعالى الذي خلق الانسان عبر هذه المراحل التكوينية، وعلمه تعالى الذي اتقن الصنع بهذه الكيفية البديعة من دون ان يشاركه أحد (يخلق ما يشاء)، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى (وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)، وهكذا كل الآيات تنتهي بالأسماء الحسنى المناسبة لمضمون الآية، ويحكي ان احدهم قرأ اية (والسارق والسارقة) الى ان ختمها بقوله تعالى (والله غفور رحيم) فانكر احد الحاضرين ان تكون نهاية الآية هكذا وطلب من القارئ اعادتها في المصحف فاذا هي (عزيز حكيم) فقال هذا صحيح لان الامر بقطع اليد يناسبه هذه الاوصاف وليس الغفور الرحيم الذي يناسب العفو والصفح لا القطع.

الثانية: رسالة موعظة الى الناس ان لا يغتروا بما عندهم ولا يطغوا لمجرد

حصولهم على شيء من اسباب القوة (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَيْفَى، أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَى) (العلق-٧/٦) فيظلمون ويعتدون ويظنون انهم قادرون على فعل كل ما يحلو لهم، فهذه القوة لم تكن موجودة ثم وجدت وهي بعد ذلك تضمحل وتصير الى الضعف، والانسان عاجز عن تغيير هذا الانتقال في المراحل، والاحتفاظ بقوته وشبابه مدى الدهر (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) (الأحزاب-٦٢).

وهذه الرسالة ليست موجهة الى الافراد فقط بل الى الامم والدول ايضاً التي تغتر بقوتها وجبروتها فتتفرعن وتملأ الارض ظلماً وعدواناً وهي كالإنسان بدأت من ضعف ثم قويت ثم يؤول امرها الى الضعف والانهيار كما هو شأن كل الممالك والامبراطوريات عبر التاريخ فيسمون اوربا اليوم القارة العجوز بعد ان كانت في عنفوان القوة وتبسط سيطرتها من الشرق الاقصى الى الأمريكيتين في الغرب الاقصى وهكذا كل الزعامات التي تغتر بكثرة الاتباع كرؤساء العشائر او بقوة المنصب لدى بعض الكيانات السياسية فيطغى ويطلب الدنيا من غير طرقها المشروعة، فعليه أن يأخذ الموعة من قلب أحواله ليعرف ان هذه القوة التي عنده ستزول فلا يغتر بها ويطغى ويظلم.

الثالثة: رسالة تطمين لمن في حالة الضر والمعاناة ورسالة تحذير لمن في حالة الرفاه والدعة وبحبوحة العيش بأنه لا يدوم حال على ما هو عليه كما قيل في المثل (دوام الحال من المحال) فمن كان يمر ببلاء وصعوبات وشدة وتظلم الدنيا في عينيه عليه ان لا يئأس ويشعر بالإحباط لان الفرح وزوال البلاء متوقع في كل لحظة، والدنيا متقلبة بأهلها حالاً بعد حال (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) (الشرح-٦)

فلتتمسك بالأمل ولينتظر الفرج وسيأتي ذلك اليوم وتصبح معاناته في خبر كان كما يقال.

وقد يجمع الله الشئتين بعدما يظنان كل الظن ان لا تلاقيا

لنحذر زوال النعمة:

ومن كان في سعة من الحياة ودعة من العيش عليه ان يحذر تبدل هذه النعمة او زوالها في أي لحظة فيفقد المال او الصحة او المنصب او الجاه او الاتباع أو أي شيء آخر فعليه أن يحذر الدنيا ولا يسكن اليها وإن أقبلت عليه فكم من شخص كان هكذا ثم ادبرت عنه ولربما لأسباب مجهولة أو خارجة عن إرادته ولا يستطيع تفاديها.

كانت الدولة العباسية في أوج زهوها وانتشارها من حدود الصين شرقاً الى غرب افريقيا وكان هارون على رأس هذه الدولة مملوءاً بالزهو والاستعلاء، لكنه في ريعان الشباب واقصى زهو السلطة مرض واشرف على الموت فأمر بحفر قبره وكان يقف عليه ويقرأ الآيات الكريمة (مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ) (الحاقة - ٢٨/٢٩). هذه الرسائل ضمنها الامام الحسين عليه السلام في دعاء عرفه وفيه قوله عليه السلام (الهي إنَّ اخْتِلَافَ تَدْبِيرِكَ، وَسُرْعَةَ طَوَاءِ مَقَادِيرِكَ، مَنَعَا عِبَادَكَ الْعَارِفِينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إِلَىٰ عَطَاءٍ، وَالْيَأْسِ مِنْكَ فِي بَلَاءٍ)^(١).

هذا الاختلاف في الاحوال بتدبيرك فساعة في عني واخرى في فقر وساعة في عافية واخرى في مرض، وساعة في قوة واخرى في ضعف

وساعة في ليل واخرى في نهار، وساعة في صيف وأخرى في شتاء، وهكذا غيرها، فهذا التبدل والتغير الذي يجري بسرعة منع المؤمن الذي له بصيرة في الامور ومعرفة بالله تعالى من أن يطمئن الى حال حسنة ويسترخي لها، ولا ان يصيبه اليأس إذا مرّ بحال سيئة. وفي الحديث (الليل والنهار يلبيان كل جديد) وما اسرعهما.

التفتوا الى هذه الحقائق:

وبالالتفات الى هذه الحقائق تزداد المعرفة عند الانسان، والمعرفة هي اساس التفاضل عند الله تبارك وتعالى، ودعاء الامام الحسين عليه السلام يوم عرفة غنيّ بهذه المعارف الالهية، ومنه قوله عليه السلام بما يرتبط بحديثنا (آلَهِى عَلِمْتُ بِإِخْتِلَافِ الْأَثَارِ، وَتَنَقُّلاتِ الْأَطْوَارِ، أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّى أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ)^(١) باختلاف الاثار أي آيات الله في خلقه من ليل ونهار وشتاء وصيف وغير ذلك، ومن تنقلات الاطوار بين شباب وشيخوخة وعافية ومرض وغنى وفقر يُراد منه ان يتعرف الانسان على صفات ربه الحسنی حتى يتأدب بأدب العبودية قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات/٥٦) وفسرها الامام الحسين عليه السلام في بعض ما روي عنه أي (ليعرفون)، قال الشاعر:

وفي كل شيء له اية تدل على انه واحد

فالإنسان يقف عاجزاً أمام هذه الحركة الكونية ولا يملك إلا ان يكون جزءاً من هذا التدبير فيتيقن ان وراء هذه الحركة مدبر حكيم، عن أمير

المؤمنين ﷺ قال : (عرفت الله بفسخ العزائم، وحل العقود، ونقض الهمم)^(١).
وانما على الانسان ان يغتنم حال القوة التي يكون فيها ويستثمرها في طاعة
الله تعالى قبل فوات الفرصة فان إضاعة الفرصة غصة - كما قيل - والملفت ان
الآية اطلقت كلمة قوة ولم تحددها لتبقى مفتوحة على كل الصور الممكنة لها،
فالصحة قوة والشباب قوة والمال قوة والجاه قوة والعلم قوة والمنصب قوة وكثرة
الاتباع قوة وهكذا.

وقد جمع النبي ﷺ في وصيته لابي ذر (رضوان الله تعالى عليه) عدة
مصاديق وحالات للقوة وأمره باغتنامها قبل زوالها كلها او بعضها وتحولها الى
نقيضها قال ﷺ فيما روي عنه : (يَا أَبَا ذَرٍّ: اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ: قَبْلَ
هَرَمِكَ. وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سُقْمِكَ. وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ. وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ. وَ
حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ)^(٢).

والوصية كما يظهر موجهة بشكل اساسي الى الشباب^(٣) الذين وصفتهم
الآية في حال قوة وأن كانت الوصية عامة للجميع ويمكن القول ان الحديث ليس
في مقام حصر حالات القوة ومظاهرها بهذه الخمسة فيمكن ان يشمل الحديث
كل عناصر القوة الاخرى فيمكن ان نقول (واغتنم علمك قبل جهلك) لان العلم
قوة ونور وربما يؤول أمره الى الضياع كما في الآية المتقدمة (لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ

(١) نهج البلاغة قصار الكلمات رقم ٢٥٠.

(٢) مكارم الاخلاق ٦٢٦.

(٣) راجع شرحها في القبس التالي بعنوان اغتنم شبابك.

عِلْمٍ شَيْئاً) (النحل/ ٧٠) فعليه ان يستثمر علمه من خلال العمل به لإصلاح نفسه ومجتمعه أولاً ونشره بين الناس ثانياً لأن زكاة العلم انفاقه، وبتنميته وزيادته ثالثاً (رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) (طه/ ١١٤) لذلك تجد العلماء يعمرّون طويلاً ويبقون الى آخر عمرهم يدرّسون ويؤلفون ويبحثون ويقدمون أحدث الابداعات العلمية. وهذه الحقيقة أكدها الاطباء وقالوا أن العلاج من الإصابة بالخرف والزهايمر بالشيخوخة يكون بمواصلة المطالعة والقراءة.

(ثمَّ جعل من بعد قوّة ضعفا) [الروم: ٥٤]

اغتنم شبابك^(١)

اغتنم خمسا:

وصية النبي ﷺ للصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رسالة عظيمة للأجيال ينبغي مراجعتها والاستفادة منها باستمرار، ومنها قوله ﷺ: (يا أبا ذر.. اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)^(٢).

وهذه الوصية موجّهة بشكل رئيسي الى الشباب للتصريح بهم في أول فقرة، ولأنهم الأكثر توقراً على هذه النعم الخمس، فهم شباب أصحاء وقواهم البدنية متكاملة لم يضعفها مرور الزمن، وهم فارغون غالباً من المسؤولية غير مشغولين بهموم الحياة، وهم أغنياء لأنهم غالباً مكفيو المؤونة بآبائهم وليسوا معيلين لكثيرين.

(١) من حديث سماحة المرجع العنقوبي (دام ظله) مع حشد كبير من الشباب وطلبة الجامعات الذين شاركوا في فعاليات دينية وتوعوية في مدينتي النجف وكربلاء يومي عرفة والعيد والتقاهاهم سماحته يوم الجمعة ١١ ذي الحجة ١٤٣٦ الموافق ٢٥/٩/٢٠١٥.

(٢) مكارم الاخلاق للطبرسي: ٦٢٦.

ليلتفت الشباب الى عناصر قوتهم:

فليلتفت الشباب الى ما حباهم الله تعالى من النعم ليستثمروها في اتجاهها الصحيح أي في طاعة الله تعالى وإعمار الحياة بكل خير ونفع لهم وللمجتمع عامة، وعدم هدر الطاقات وصرفها في اللغو والعبث فضلاً عن الاستخدامات السيئة والاجرامية والعياذ بالله، فكما يردّد الشاب أنني اريد أن أبني مستقبلي وأكوّن نفسي، ويقصد النواحي المادية كحياة معيشية مرفّهة وزوجة وأطفال ومصدر رزق ونحو ذلك، وهو حقٌّ ومطلوب وحثٌّ عليه الشارع المقدس، إلا أنه عليه أن يفكر ببناء مستقبله المعنوي والإيماني أيضاً ليضمن السعادة والفوز في الآخرة كما في الدنيا، وأن البناء في مرحلة الشباب يكون أرسخ وأقوى.

عناصر القوة في الشباب:

إن الاهتمام بالشباب ليس اعتباطاً وإنما لوحظ فيه وجود عناصر النجاح والتكامل في الشباب أكثر من غيره وهي:

١- قوة الإرادة وتنفيذ ما يعزم عليه، ونجد كثيراً من الشباب يقوم بالمغامرات المهلكة ويرتكب الحماقات الجنونية لا لشيء إلا لأنه اقتنع بأمر وهو عازم على تنفيذه، وهو مستعد للتمرد والخروج على كل القوانين والأعراف، فيجب توظيف هذه الإرادة القوية فيما هو نافع ومثمر.

٢- النقاء وسلامة الفطرة لأنهم قريبو عهد ببراءة الطفولة والخروج الى هذه الدنيا بصفحة بيضاء، وقلوبهم طاهرة كالمرآة الصافية لم تتكدّر بالاستعمال فيكون تلقّيها للتربية والاصلاح والمعارف الحقة سريعاً وثابتاً، عن أمير المؤمنين

عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: (إنما قلب الحدث كالأرض الخالية، ما بقي فيها من شيء قبلته)^(١) وفي كتاب الكافي بسنده عن اسماعيل بن عبد الخالق: (سمعت أبا عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لأبي جعفر الأحول وأنا أسمع: أتيت البصرة؟ فقال: نعم، قال: كيف رأيت مسارعة الناس لهذا الأمر ودخولهم فيه؟ قال: والله إنهم لقليل، ولقد فعلوا وإن ذلك لقليل، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: عليك بالأحداث فإنهم أسرع إلى كل خير)^(٢)، أما إذا امتد العمر فإن الأخطاء والمعاصي ستلوّث عقولهم وقلوبهم كما في دعاء الإمام السجاد عَلَيْهِ السَّلَامُ: (ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي)^(٣) ومن الصعب حينئذ جلاؤها وتنقيتها وإعادتها إلى نفس الصفاء والفطرة السليمة.

٣- سلامة القوى البدنية والعقلية (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ) (غافر/٦٧) مما يساعده على فعل ما تتطلبه رسالته في الحياة وتلقي العلوم النافعة، وهذه القوى تضعف بمرور الزمن (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ) (الروم/٥٤)، ويصل إلى مرحلة من العمر لا يتمكن فيها من أداء الواجبات فتراه لا يقدر على الصوم ويصلي من جلوس ويعجز عن أداء مناسك الحج والذهاب لزيارة الأئمة الطاهرين عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا يتمكن من قراءة القرآن وأمثال ذلك (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ

(١) تحف العقول: ٧٠.

(٢) الكافي: ٩٣/٨ ح ٦٦.

(٣) مفاتيح الجنان: ٤٨١.

أَفَلَا يَعْقِلُونَ (يس/٦٨).

معنى أن نغتني الشباب:

فاغتنام الشباب يعني الاستفادة من هذه العناصر مجتمعة لبناء حياة مؤمنة مطمئنة تسعى لنيل رضا الله تبارك وتعالى وتجنب سخطه. في الحديث عن النبي ﷺ: (ان احب الخلائق الى الله عز وجل شاب حَدَّث السن في صورة حسنة جعل شبابه وجماله لله وفي طاعته، ذلك الذي يباهي به الرحمن ملائكته، يقول هذا عبدي حقاً)^(١)، وفي حديث آخر عنه ﷺ (سبعة في ظل عرش الله عز وجل يوم لا ظل الا ظله: إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله عز وجل)^(٢)، وهذا يستلزم اهتماماً متزايداً بمطالعة الكتب والتثقف والازدياد من المعارف والعلوم التي تبني شخصية الانسان وتقوم تفكيره وتحصنه من الانحراف والضلال والفساد والشبهة، وستستفيدون كثيراً من المطالعة.

نصيحتي بأن تجعلوا لكم دفتر ملاحظات:

وقد نصحت مراراً بأن تتخذوا دفتر ملاحظات تسجلون فيه هذه الأحاديث الأخلاقية لأهل البيت ﷺ وكلمات الحكماء التي تفهمون منها درساً مفيداً في حياتكم، وأن تتعوا أنفسكم في مطالعة الكتب النافعة وتحصيل المعارف الدينية والأخلاقية والتوعوية، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (لست أحبُّ أن أرى الشاب منكم إلا غادياً في حالين: إما عالماً او متعلماً، فإن لم يفعل فرط، فان فرط ضيع،

(١) كنز العمال: ٤٣١٠٣.

(٢) الخصال: ٣٤٣ ح ٨.

وإن ضيِّع أثم، وإن أثم سكن النار والذي بعث محمداً ﷺ^(١).

وربما ستؤثر فيكم كلمة صغيرة تقلب حياتكم نحو الأفضل، كما حصل لبشر الحافي العابد الزاهد الذي يفتخر به المتصوفة، فقد كان صاحب خمر ولهو وعبث مع أصدقاء السوء، وذات يوم بينما كانت جاريته تلقي القمامة ونفايات الطعام خارج الدار، مرَّ الإمام الكاظم ﷺ فرأى داراً فارهةً تصدر منها أصوات الغناء والمجون والفسق فسأل الجارية عن صاحب الدار، فقالت: لسيدي ومولاي بشر، فقال الإمام ﷺ: هل سيدك حرٌّ أم عبدٌ؟ فاستغربت الجارية من السؤال لوضوح أن سيدها حر فأجابت: بل لسيدي حر، فقال الإمام ﷺ: صدقت لو كان عبداً لاستحيا من مولاه، ولما عادت الجارية سألها سيدها بشر عن سبب تأخيرها فحكّت له ما جرى فقال اذكري له أوصافه، فوصفت الإمام ﷺ لسيدها، وهنا صحا بشر من سكره، وقال ذاك لسيدي ومولاي موسى بن جعفر وفهم معنى الرسالة، بأن بشراً لو استشعر معنى العبودية لربه وخالقه الذي أغدق عليه نعماً لا تعد ولا تحصى لاستحيا منه ولم تصدر منه هذه المعاصي والقبائح، وسرعان ما خرج يبحث عن الإمام حتى وجده ووقع على يديه ورجليه يقبلهما ويستغفر الله تعالى ويتوب على يديه وكانت توبته صادقة وارتقى في درجات الكمال ببركة كلمة صادقة من العبد الصالح، وما أكثر هذه الكلمات في بطون الكتب فاستخرجوها واستفيدوا منها.

إن من أضاع شبابه في اللهو والعبث سوف يندم ويندب حظه السيء. عن

(١) الأماي للطوسي: ٣٠٣ / ح ٦٠٤.

أمير المؤمنين عليه السلام: (شيئان لا يعرف فضلهما الا من فقدهما: الشباب والعافية)^(١)
كما قال الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً لاخبره بما فعل المشيبُ

أما من اغتنم شبابه واستثمره في العمل الصالح والسلوك النظيف فانه لا يندم على انقضائه بل يفرح عند تذكره بلطف الله تعالى وعنايته به، روي أن ابراهيم عليه السلام لما أصبح فرأى في لحيته شيباً شعرة بيضاء، قال: (الحمد لله رب العالمين الذي بلغني هذا المبلغ ولم أعص الله طرفة عين)^(٢).

عليكم أن تبينوا أنفسكم ثم تنطلقوا الى المجتمع:

إن عليكم أن تبينوا أنفسكم ثم تنطلقوا الى مجتمعكم فتبدلون وسعكم في توعيته وإصلاحه والمطالبة بحقوقه وأن توفرّوا له القيادة الصالحة التي تؤسس له الحياة الكريمة كما أرادها الله تعالى لعباده، ولا تتقاعسوا أو تشعروا بالإحباط أو تنزروا أو تعتزلوا مجتمعكم، فإنكم تضرّون بذلك أنفسكم، وتحرمون أمتكم من هذه الطاقات الخلاقة التي عندكم، فأنتم محرّكو الامة وباعثو الحياة فيها.

إن الامم التي تقل نسبة الشباب فيها تقل قابليتها على النمو والازدهار كما هو حال اوربا اليوم حتى صارت تسمى (القارة العجوز) وقد جنت على نفسها بذلك لحماقتها واتباعها لشهواتها حيث العلاقات الجنسية غير المشروعة كبديل عن الزواج والتشجيع على قلة الانجاب وإباحة الاجهاض والشذوذ الجنسي

(١) غرر الحكم: ٥٧٦٤.

(٢) علل الشرايع: ١٠٤ ح ٢.

للمثليين، ونحو ذلك، ومن الحلول التي ابتدعتها تشجيع هجرة ولجوء الشباب من الدول الأخرى خصوصا الإسلامية التي تتمتع بنسبة عالية من الشباب لتعويض نقص الأيدي العاملة فيها.

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)^(١)
[الأعراف: ٢٠١]

مواعظ ودروس:

يمكن فهم الآية من خلال استخلاص عدد من المواعظ والدروس التربوية

منها:

١- إن الإنسان مهما ارتقت درجته في العبادة والطاعة معرض للزلل بغواية الشيطان التي تبتدئ بأفكار ووساوس وقناعات ورغبات يلقيها الشيطان في قلب الانسان وعقله سمّتها الآية بطائف الشيطان فالآية وصفتهم ببلوغ درجة المتقين والشيطان لم يتركهم، ولا ينجو من مكائد الشيطان الا المعصومون (سلام الله عليهم)، وهذا ما توعد به ابليس منذ خلق البشر (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ) (ص ٨٢-٨٣) فكلنا بجميع درجاتنا وعلى اختلاف أحوالنا وأعمارنا شباباً وشيباً رجالاً ونساءً معرضون لهذا الابتلاء وإلقاء الوساس وطواف الشيطان على القلب والعقل، لكن قد تختلف هذه الوساس والاثارات بين البشر فالشباب لهم بلاءهم ورغباتهم وإثاراتهم والحوزة لها اختبارها والأثرياء والفقراء لكل منهم امتحانهم والذي في الغرب والذي في البيئة المسلمة واساتذة الجامعات والسياسيون وهكذا كل فرد يحس بهذا الضغط والتزيين باتجاه ما

(١) الخطبة الاولى لصلاة عيد الاضحى المبارك عام ١٤٣٦ الموافق ٢٤/٩/٢٠١٥.

يحاول الشيطان أن ينفذ من خلاله، فعلى الجميع الحذر والمراقبة والوعي والتفقه حتى يغلقوا على الشيطان منافذه.

٢- إن الدرع الحصينة التي يلتجئ اليها الإنسان للوقاية من كيد الشيطان وإغرائه هي التقوى لأن الآية ذكرت أن المتقين هم الذين لا يفلح الشيطان في استغفالهم وأنهم سرعان ما يتذكرون إذا حام الشيطان حول قلوبهم، وتعود اليهم بصيرتهم فوراً عند تذكركم، وقد يكون المتقي متذكراً يقظاً دائماً فلا يكون للشيطان عليه سبيلاً، وقد قالوا في علمي الفقه والاصول أن تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلية أي أن حصول التذكر وعودة البصيرة واليقظة والمراقبة متعلق ومرتبطة بوجود ملكة التقوى، فحالة التذكر معلولة لوجود ملكة التقوى عند العبد فكلما كان أكثر تقوى كان أكثر تذكراً لأن وجود ملكة التقوى سبب للانتباه من الغفلة رزقاً خالصاً من الله تبارك وتعالى وجزاء لتقواه (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) (الطلاق-٢) والرزق يشمل المعنويات بالتأكيد، فاذا تذكر الانسان واستبصر خنس الشيطان وخسى، واذا غفل الانسان عاد الشيطان الى وسوسته وتزيينه فوُصِفَ بـ (الوسواس الخناس) فالشياطين كالفيروسات والجراثيم الملوثة للبيئة والموجودة حول كل إنسان لكنها لا تصيب الا من كانت مناعته ومقاومته التي هي التقوى ضعيفة ولو بدرجة من الدرجات.

٣- إن طريقة عمل الشيطان بأن يطوف ويدور حول قلب الإنسان وعقله ويوسوس له ويحاول تزيين المعصية ليحرك شهواته وغرائزه باتجاهها، ويحاول اغراءه بها، قال تعالى (شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ

الْقَوْلِ) (الأنعام-١١٢) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : (الشیطان موکل به - أي العبد - یزین له المعصية لیركبها ویمنیه التوبة لیسوفها) ^(١) هاتان العملیتان قبل فعل الانسان وبعده هما کل سلطة الشیطان على الناس، فالاعتقادات السائدة لدى الجهلة والعوام بتلبس الجن وأمثالها وبالشکل الذي یصورونه تافهة وباطلة، وأن الله تعالى کرّم الإنسان وفضّله على خلقه فلا یجعل لغيره سبيلاً علیه بهذا النحو وغيره، فالشیطان لا یملك هیمنة على الإنسان أكثر من ذلك والإنسان هو الذي یختار سلوکه وطريقته في الحياة بإرادته (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان ٣) لذا یرد الشیطان على الإنسان يوم القيامة بما حکاه الله تعالى عنه (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْأَنَفُسُكُمْ) (إبراهيم ٢٢) وقال تعالى (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِیظٌ) (سبا ٢١).

ومن الواضح أن سلاح الشیطان هو استغفال الإنسان وغلق منافذ التفكير والوعي والحكمة ووضع الحُجُب دون بصيرته وقدرته على التمييز بين الحق وبين الباطل لذا كان العلاج وسلاح الرد علیه هو التذكر والانتباه والفتنة والحذر وإزالة الحُجُب والأغلال والمراقبة المستمرة (تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) (الأعراف ٢٠١) كالسارق فانه لا يستطيع سرقة الإنسان المنتبه المتحذّر وإنما یسرق الغافل الساهي والشیطان یريد سرقة دين الإنسان واستقامته.

وينبغي الالتفات الى أن فسخ المجال للشیطان لكي يطوف ويحوم حول

القلب والاسترسال مع وسوسته والافكار التي يُلقِيها وعدم قطع الطريق عليه نقص في كمال الإنسان وإن لم يفعل المعصية ففي الآية الكريمة (إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) (المجادلة/١٠) وفي الحديث (لولا أن الشياطين يحومون على قلب ابن ادم لنظروا إلى الملكوت)^(١)، فعلى كل فرد أن لا يستصغر شأن بعض الأفكار غير الرحمانية التي تراوده كالتعلق بالجنس الآخر أو الاعتداء على المال العام أو الكيد لشخص يحسده والانتقاص منه وتسقيطه ونحو ذلك، وعليه أن يقطعها ويستغفر منها (إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) (الحجرات/١٢) والا كانت بداية للسقوط في

الخطأ والخطيئة والعياذ بالله.

٤- لم تذكر الآية متعلق التذكر أي ماذا يتذكرون والتذكر هو التفتن لأمر مغفول عنها سابقاً وتساعده في الوصول الى النتيجة فقالت (تَذَكَّرُوا) وأطلقت ولعله ليشمل كل ما يعينك على هذه المواجهة ولكن الآية التي سبقتها نبّهت الى ما يجب تذكره واستحضاره والتسلح به، قال تعالى (وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأعراف ٢٠٠) فالآية محل البحث تبين وسيلة الوصول الى العلاج الذي ذكرته الآية السابقة عليها. وأكدته اية لاحقة (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُؤْنَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) (الأعراف-٢٠٥).

ونستطيع أن نعرف تفصيل الامور التي يتذكرها ليكون مبصراً من

سورة يوسف فقد تعرّض ﷺ لموقف رهيب فماذا كان سلاحه في تلك المواجهة؟ وماذا كان برهان ربه الذي لولاه لهم بها؟ (قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (يوسف ٢٣) إنها عناصر ثلاث.

فيستحضر الله تعالى أولاً ويستعيد به ويطلب منه العصمة والمعونة وهذا ما ذكرته الآية السابقة هنا.

ويتذكر ثانياً أن له رباً هو الله تبارك وتعالى يملك أمره ويتولى تربيته ويكفيه المؤونة ويرزقه من حيث لا يحتسب وهو الذي ينصره ويثبت قدمه عند المزالق ويفرج عنه وأنه قد أصدق عليه النعم الكثيرة فعليه أن يلتزم بمنهج ربه ولا يفارقه شكراً لنعمائه وليس مقابلة النعمة بالعصيان (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) (الرحمن ٦٠).

ويتذكر ثالثاً العاقبة السيئة لمن يتبع الشيطان ويظلم نفسه بفعل المعصية (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (يوسف ٢٣).

عن الإمام الصادق ﷺ في معنى ذكر الله على كل حال قال: (يذكر الله عند المعصية يهيم بها فيحول ذكر الله بينه وبين تلك المعصية، وهو قول الله عز وجل (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)^(١). ولنضرب مثلاً من واقعنا المعاش وهي الظاهرة التي غزت شبابنا والهوس الذي اصاب كثيرين منهم هذه الأيام لدفعهم باتجاه التغرّب أو التعرّب بعد الهجرة سعياً وراء ما يسمونه بتحسين وضعهم المعاشي والحياة المادية

المترفة، هذا القرار غير الحكيم يتدئ من طائف شياطين الإنس والجن الذين يصوِّرون للشاب هذه الرحلة وكأنها الى الفردوس المنتظر وييسِّرون له أمرها ويرسمون له الأحلام الوردية ويسوِّدون صورة واقعه المعاش فهنا إنَّ تذكُّر أن في هذا الفعل ضياع دينه واسرته والتفريط بأهله واخوانه وبلده ابصر طريقه واتخذ القرار الصحيح بالبقاء ولو كلفه بعض الصعوبات فإنَّ تحملها في جنب الله سعادة، وإن مضى في غفلته سقط في هذا الفخ الذي نصبه من لا يؤتمنون على العاقبة الحسنة في الدنيا ولا في الآخرة، وقد ابتلع البحر الأبيض مئات الآلاف من اللاجئين في هذه السنة والتي سبقتها، هذه الظاهرة مليئة بالغرائب، فإن الدولة التي يتجمع فيها الإرهابيون من شتى أنحاء العالم لينتقلوا منها الى سوريا والعراق، هي نفسها التي امتلأت بشبكات التهريب لتنقل الفارين من جحيم الإرهاب الى اوربا. والدول الاوربية التي ترفض إعطاء الإقامة لمن قصدها باحترام عن الطريق الرسمي والسفر بسمة الدخول ترحب بهم كلاجئين عبر طرق الموت والمعاناة وابتزاز المهرِّين، إنها مفارقة حمقاء.

٥- يمكن فهم هذه الآية تربوياً وعملياً باتجاهين متعاكسين (احدهما) أن من يكون متقياً يحظى بلطف من الله تعالى بالتذكر عندما يحوم الشيطان حول قلبه فتفتح بصيرته ويرى الحق فينجو من مكائد ابليس (ثانيهما) أن من أراد أن يكون من المتقين فعليه أن يكون متذكراً يقضاً مراقباً لينجيه الله تعالى من اغواء الشيطان وبذلك تحصل عنده ملكة التقوى. وهذان الاتجاهان متلازمان وكل منهما يؤدي الى الآخر أي أن كل درجة من أحدهما تؤدي الى أعلى منها من الآخر والعكس

كذلك حتى يرتقي في درجات الكمال بإذن الله تعالى.

٦- إن الإنسان المتقي الصالح محبوب عند الله (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (التوبة ٤) وإتباع الشيطان عمل مبغوض عند الله تعالى، فحينما يقع هؤلاء الذين اتقوا في طائف الشيطان فإن عملهم مبغوض لكنهم محبوبون في ذاتهم.

هذه النتيجة نخرج منها بدرس عملي وهو أنه يجب علينا أن نميّز بين حب وبغض الشخص وحب وبغض عمله فقد نرفض عمل شخص لأنه غير صالح ولا يسري ذلك الى الشخص ذاته بل يبقى محبوباً لأنه متقي صالح فاعل للخير، وهذا معنى الحديث (إن الله قد يحب العبد ويبغض عمله)^(١) وهذا الأدب الرفيع لا يلتزم به الا من ندر، حيث أن السائد في المجتمع أنه يكره الشخص وينبذه ويسقطه ويسحق كرامته لأجل عمل شيء أو موقف خاطئ صدر منه.

(١) أنظرها في الملحق التالي.

ملحق:

إن الله قد يحب العبد ويبغض عمله^(١)

روى لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) حديثاً عن رسول الله (ﷺ) يعطينا فيه قاعدة من قواعد السلوك الاجتماعي والتعامل مع الآخرين، ويعالج لنا مشكلة تمزق المجتمع وتغذي البغضاء بين أبنائه.

فمن خطبة له (عليه السلام) قال (واعلم أنّ لكل ظاهر باطناً على مثاله، فمن طاب ظاهره طاب باطنه، وما خبث ظاهره خبث باطنه، وقد قال الرسول الصادق (عليه السلام) ((إنّ الله يحبّ العبد ويبغض عمله، ويحبّ العمل ويبغض بدنه)).

واعلم أنّ لكل عمل نباتاً، وكل نبات لا غنى به عن الماء، والمياه مختلة، فما طاب سقيّه، طاب غرسه وحلّت ثمرته، وما خبث سقيّه، خبث غرسه وأمّرت ثمرته^(٢).

وورد هذا الحديث في رواية أوردها الشيخ الطوسي (قُدس سرّه) عن الإمام الباقر (عليه السلام) وفيها قوله (أما علمت أنّ الله يحبّ العبد ويبغض عمله، ويبغض العبد ويحبّ عمله)^(٣).

أقول: يلاحظ فرق بين النصين في الفقرة الثانية وهو الشخص المبعوض، إذ

(١) محاضرة سماحة الشيخ العقبوي في بحثه الشريف يوم الأحد ٢٣ صفر ١٤٣٤ المصادف ٢٠١٣/١/٦.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة (١٥٤) في فضائل أهل البيت (عليهم السلام)، أولها ((وناظر قلب اللبيب)).

(٣) أمالي الطوسي: ٦١٦، الجزء الرابع عشر في أخبار إبراهيم الأحمر.

وصفه نص نهج البلاغة بالبدن ونص الأمالي بالعبد، ويرأي القاصر فإن نص الشريف الرضي في نهج البلاغة هو الأصح، والوجه في ذلك يظهر من خلال الالتفات إلى أمور:

إن رواية نهج البلاغة وصفت الشخص المبعوض بالبدن ولم تصفه بالعبد فهو كسائر الأبدان والأجساد المادية الخالية من الصفة الإنسانية الحقيقية وهي العبودية لله تعالى (إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (الفرقان/٤٤) فهو لا يستحق أن يوصف بالعبودية التي هي أسمى صفة للإنسان، وبها كرم الله تعالى نبيه المصطفى (ﷺ) حين أمر بذكره في تشهد وتسليم الصلاة بالعبودية ثم الرسالة (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) أمّا نص الأمالي فقد وصف الشخص المبعوض بالعبد وهو لا يستحقه.

إن نص نهج البلاغة استعمل لطيب الباطن والظاهر (مَنْ) وهي تستعمل للعاقل بينما استعمل (ما) للمبعوض وهي تُستعمل لغير العاقل فيناسبه لفظ البدن غير العاقل لا العبد الذي يحمل تمام العقل.

إن نص نهج البلاغة قدّم المحبوب بالذكر في كلا الفقرتين (حب العبد وحب العمل) وهو الأليق، بينما قدّم النص الثاني الشخص وإن كان مبعوضاً. وعلى أي حال فإن معنى كلامه (ﷺ) باختصار:

إن ما يصدر من الإنسان من تصرفات وأفعال ومواقف إنما يعكس حقيقة هذا الشخص وباطنه وذاته، قال (ﷺ) في كلمة أخرى (ما أضمر أحد شيئاً إلا

ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه^(١) وكما قيل في المثل المعروف (وكل إناء بالذي فيه ينضح).

وقد أعطى (ﷺ) في ذيل كلامه مثلاً لهذه المعادلة ووسيلة الوصول إلى الباطن الطيب، فإن العمل كالنبات فيه طيب حلو وفيه خبيث مر، فإذا كان الماء الذي يسقي الزرع والأرض طيباً كان الزرع طيباً حلواً، وإلا كان مرّاً خبيثاً، وهكذا النفوس إذا سُقيت من معينٍ نقي للمعرفة والعلم والأخلاق كانت صالحة طيبة، وإلا فستكون خبيثة.

وبالعودة إلى الحديث النبوي الشريف، فإنه تستفاد منه قاعدة لتمييز الإنسان الصالح من الفاسد، لأنّ الأول لا يترشح منه إلاّ فعل الخير بعكس الثاني، فيُقيّم الإنسان وتعرف حقيقته من خلال الحكم على أفعاله.

لكن -وكما قيل- فإنّ لكل قاعدة شواذاً، فإنّ الإنسان الصالح -عدا المعصوم (ﷺ)- قد يصدر منه فعل سيء يبغضه الله تعالى إما لغفلة، أو لضعف في المناعة والعصمة والإرادة، أو لغلبة الهوى والشهوة وتزيين الشيطان أو لسوء تقدير، أو لتأثر بأقران سيئين، أو لضعف أمام تهديدات وإغراءات ونحوها من أسباب السقوط في المعاصي.

وإن الشخص الفاسد قد يقوم بفعل محبوب لله تعالى كمساعدة محتاج أو رعاية يتيم أو قضاء حاجة إنسان آخر ونحوها، لتأثره بجو إنساني وعاطفي عام، أو لبقية حياة في ضميره أو بتأثير إنسان صالح يحبه وهكذا.

(١) نهج البلاغة، قصار الكلمات، رقم ٣٦.

وبهذا نحلُّ الإشكال الذي قيل على سياق الحديث، وحاصله: إنّ الحديث النبوي الشريف ينافي الفقرة السابقة عليه وهو ينقض المطابقة بين الظاهر والباطن التي ذكرها أمير المؤمنين (عليه السلام): وملخص الجواب: إنّ هذا الإشكال مبني على كون الحديث النبوي شاهداً على ما أورده من القاعدة، فيُجاب الإشكال بأنّ الحديث ذكر للإشارة إلى الاستثناء من القاعدة، وليس استدلالاً على نفس القاعدة.

وقيل في توجيهه شيء آخر ذكره العلامة السيّد حبيب الله الخوئي شارح نهج البلاغة، قال (نَدْوَة): ((وإنما الإشكال في ارتباط هذا الكلام لسابقه وفي استشهاد الامام عليه السلام به مع أنّه لا مناسبة بينهما ظاهراً، وليس للاستشهاد به وجه ظاهر، بل منافاته لما مرّ أظهر من المناسبة كما هو غير خفيّ، إذ لازم محبة الله للعبد كون العبد طيّباً، ولازم بغضه لعمله كون العمل خبيثاً فلم يكن الظاهر موافقاً للباطن، فينافي قوله عليه السلام: فما خبث ظاهره خبث باطنه.

وكذلك مقتضى بغض الله سبحانه لبدن الكافر كونه خبيثاً، وحبّه لعمله كون عمله طيّباً ففيه أيضاً مخالفة الظاهر للباطن، فينافي قوله: فما طاب ظاهره طاب باطنه.

والذي سنح لي في وجه الارتباط و حلّ الإشكال بعد التروي و صرف الهمة إلى حلّه أياماً و الاستمداد من جدّي أمير المؤمنين عليه و آله سلام الله ربّ العالمين هو أنّه لمّا ذكر أنّ ما هو طيّب الظاهر طيّب الباطن و ما هو خبيث الظاهر خبيث الباطن، عبّ به هذا الحديث النبوي صلّى الله عليه و آله و سلّم تنبيهاً و

إيقاظا للسامعين بأنَّ العبد قد يكون نفسه محبوبا و عمله مبعوضا ، و قد يكون بالعكس كما أفصح عنه الرسول الصادق المصدق.

فاللّازم له إذا كان محبوب الذات لله سبحانه و مبعوض العمل أن يجدَّ في تحبيب عمله إليه تعالى حتّى يوافق نفسه عمله في المحبوبة ، و إذا كان محبوب العمل مبعوض البدن أي الذات أن يجدَّ في تحبيب ذاته إليه كي يوافق عمله نفسه.

والغرض بذلك الحثّ على تطبيق الظاهر للباطن في الأوّل و تطبيق الباطن للظاهر في الثاني في المحبوبة حتّى يكونا طيّبين ، و يفاز إلى النّعيم الدّائم و الفوز الأبدي، و لا يعكس حتّى يكونا خبيثين مبعوضين له تعالى، فيقع في العذاب الأليم و الخزي العظيم ، و قد زلّت في هذا المقام أقدام الشّراح و المحشّين^(١).
أقول: هذا المعنى صحيح في نفسه، وإن كان يحتاج إلى مقدمات لاستظهاره من الحديث الشريف و حل الإشكال به.

ونذكر هنا وجوهاً أخرى بحسب فهمنا القاصر لسبب إيراد أمير المؤمنين (عليه السلام) هذا الحديث في ذيل كلامه المذكور وهي كالتّائج والثمرات المستفادة من هذا الحديث الشريف، ومنها:

١- أراد (عليه السلام) أن يمنع من اعتماد الشخص على هذه القاعدة فيعتقد أنّه ما دام مؤمناً فإنه لا يصدر منه إلّا الفعل الحسن فيأخذه العجب ويغفل عن مراقبة نفسه ولا يحسب لاحتمال ضعف النفس و غواية الشيطان، فنبهه الإمام إلى إمكان

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ٢٤٨/٩.

الوقوع في الفعل المبعوض مهما كانت درجة إيمانه - عدا المعصومين (عليهم السلام) - فلا يركن إلى نفسه.

وكذا زرع الأمل في نفوس السيئين بأنهم مهما كانت درجة انحطاطهم فإنه يمكن أن يصدر منهم الفعل الحسن فلا يقنطوا ولا يئأسوا من رحمة الله تعالى ولطفه وعليهم أن يسعوا للقيام بالفعل الحسن وإن كانوا فاسقين، قال تعالى (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) (الزمر/٥٣).

٢- إن هذا التطابق بين الظاهر والباطن لا بد أن يتحقق ويكون تاماً لأنه غير قابل للتفكيك لأن الظاهر صورة للباطن، كالمطابقة بين الصورة في المرأة وصاحبها، حيث لا يتصور عدم المطابقة بينهما، فإذا حصل شيء على خلاف هذه القاعدة، فإنه يُعالج بما يعيد فاعله إلى هذه القاعدة.

فالمؤمن إذا صدر منه فعل مبعوض إلى الله تعالى فتح له باب التوبة والاستغفار وطلب العفو حتى يمحو ذلك الخطأ ويعود إلى المسار الصحيح، وقد يحتاج الأمر إلى أن يُبتلى ويعاقب بمرض أو مصيبة أو همٍّ أو خسارة وغيرها مما ذكر في كفارات الذنوب، قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى/٣٠).

والكافر الذي ليس له في الآخرة من خلاق، إذا صدر منه فعل يحبه الله تعالى أعطى جزاءه في الدنيا مما يحبه ويرغب فيه ويعمل من أجله لكي لا يبقى له استحقاق عند الله تعالى ويعود التطابق بين الظاهر والباطن.

لأنَّ الحب والبغض بالنسبة إلى الله تعالى ليس بالمعنى المعروف عندنا نحن

البشر لتزهره سبحانه عن ذلك، وإنما يعني آثارهما من الثواب والعقاب وهذا معنى صحيح أكّده روايات كثيرة.

٣- إن ذكر الحديث النبوي الشريف للمنع من الحكم على شخص ما بأنه صالح أو غيره، ومحبوب عند الله تعالى أو مبغوض من فعل واحد أو فعلين بالاستناد إلى هذه القاعدة، بأن يقال: إنه لو كان صالحاً لما صدر منه الفعل السيء، ولو كان مبغوضاً عند الله لما صدر منه الفعل المحبوب، فأتى (عليه السلام) بالحديث النبوي ليفيد أنه قد يصدر منه الفعل السيئ وهو محبوب عند الله تعالى، وقد يقوم بالفعل المحبوب وهو مبغوض عند الله تعالى.

نعم يمكن الحكم عليه إذا تحولت أفعاله إلى سيرة مستمرة وغالبة عليه، فإنها تكشف عن ملكة راسخة بهذا الاتجاه أو ذاك، وهذا ما ذكره الفقهاء في معنى العدالة من أنها ملكة نفسية راسخة تُثمر استقامة على جادة الشريعة.

٤- إنَّ العبد مهما تظاهر على خلاف باطنه فإنه سيعود إليه وتكشف حقيقته وتحقق المطابقة بين الظاهر والباطن، فقد يصدر من الشخص السيئ فعل حسن بتصنع ورياء وخداع، ويصدر من الإنسان الصالح فعل سيء، لكن كل واحد منهما لابد أن يعود في النهاية والخاتمة إلى ما يطابق باطنه مهما طال الزمن، قال تعالى (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) (الإسراء/٨٤).

والتاريخ حافل بأسماء أشخاص كانت حياتهم مملوءة بالفسق والابتعاد عن الله تعالى لكنهم خُتم لهم بالخير لأنَّ أصلهم ومعدنهم كان كذلك كبشر الحافي والحر الرياحي مثلاً، ويوجد أمثلة كثيرة للعكس من ذلك كإبليس اللعين الذي

كان مع الملائكة وعبد الله تعالى ستة آلاف سنة ثم ختم له بالشقاء، وهذا لا ينافي الاختيار لأنّ كلاهما باختياره فعل ما يوجب له تلك الخاتمة.

٥- إنه (عليه السلام) إنما ذكر الحديث لمعالجة مشكلة موجودة في المجتمع تحكم العلاقات بين الناس ومنشأها عدم التفكيك بين تقييم الشخص وتقييم فعله أي تطبيق الملازمة المذكورة في كلام الإمام (عليه السلام) من دون الالتفات إلى الاستثناء، والمشكلة هي إن أحدنا إذا اختلف مع شخص آخر أو لم يرتض فعلاً من أفعاله فإنه يرفضه جملة وتفصيلاً ويعاديه ويشنع عليه.

فالمشكلة التي نعاني منها وتمزق وحدة المجتمع هي التوسع من رفض الفعل إلى رفض نفس الفاعل، وبدل الاعتراض على الفعل نفسه كحالته يتحوّل إلى رفض الشخص كلياً وتسقيطه وتفسيقه وإلغائه ولو كان إنساناً مؤمناً ملتزماً بالخط العام للشرعية، وفي هذا خروج عن القواعد الشرعية وتجاوز للحدود (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) (الطلاق/١) (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (البقرة/٢٢٩).

وبالمقابل فإذا أحسن له شخص بفعل ما فإنه يتحوّل عنده إلى إنسان محبوب وإن كان معروفاً بابتعاده عن الشريعة، فالإمام يدعو إلى التفكيك بين ذات الشخص وفعله وعرض كل منهما على ميزان التقييم بمعزل عن الآخر، فإذا كانت ذاته وباطنه صالحة فلا يجوز لك تسقيطه في المجتمع لموقف استنكرته منه، أو أخطأ فيه فإنّ المؤمن قد يقع في الخطأ والخطيئة ثم يتوب ويصلح شأنه ويعود قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

(الأعراف/٢٠١) فلا يجوز انتهاك حرمة المؤمن لفعل سيء صدر منه.

هذه مشكلة مهمة نعاني منها يعالجها الإمام (عليه السلام) بالالتفات إلى هذا الحديث الشريف، فلتكن عندنا روية وحكمة في تعاملنا مع الآخرين، ولا نتورط أمام الله تعالى في تسقيط الآخرين ورفضهم والتشهير بهم لموقف اختلفنا فيه معهم وهذا الدرس الذي أردت بيانه واستفادته من الحديث النبوي الشريف.

وقد شهدنا في شهري محرم وصفر الحاليين تسقيطاً وتشهيراً من البعض لأنهم لم يوافقونا على بعض المواقف التي اتخذناها ونعتقد أن فيها رضا الله تعالى وصلاح الأمة، وقد أصبحت هذه الحالة السيئة منتشرة بكل أسف والمفروض بمن يعمل وفق تعاليم المعصومين (عليه السلام) أن يفكك بين الفعل وذات فاعله حتى لو اعتقد أن ما صدر منه كان سيئاً.

ولا تفوتني الإشارة إلى أن المعروف والمتداول إن الظاهر انعكاس للباطن،

وإن الباطن هو الأصل والظاهر مظهر له وكاشف عنه، لكن لا يبعد أن يستظهر العكس من الخطبة الشريفة لقوله (عليه السلام) (واعلم أن لكل ظاهر باطناً على مثاله) أي أن الباطن يتشكل وفق الأفعال التي تصدر من العبد، فإن الشخص صاحب الباطن السيء يستطيع أن يتكلف القيام بأفعال صالحة وهذا يغير باطنه تدريجياً إلى الصلاح وإن كان ليس كذلك قبل ذلك، وبالعكس فقد يكون له باطن صالح لكن قام بأفعال سيئة من دون أن يتوب ويستغفر ويندم فيفسد باطنه. وهذا معنى صحيح وموافق للروايات التي مضمونها: إذا أذنب العبد صارت

في قلبه نكتة سوداء، فإذا لم يتب وأذنب ثانياً صارت في قلبه نكتة ثانية وهكذا حتى يسود القلب ويموت فلا يرجى منه الخير والعياذ بالله تعالى.

(وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ)^(١)

[الزمر: ٦٧] [الأنعام: ٩١] [الحج: ٧٤]

معنى وما قدرُوا اللهَ حقَّ قدرِهِ:

أي ما عرفوا الله حق معرفته ولا أعطوه المنزلة التي يستحقها ويتميز بها عن غيره من المخلوقات، ولا أحسنوا فهم صفاته وأسمائه المباركة، ففي الآية عتابٌ وتوبيخٌ لهذا التقصير في إدراك حقوق الربوبية ووظائف العبودية أمام الله تبارك وتعالى، وبنفس الوقت تستبطن الآية الدعوة لتحصيل هذه المعرفة، مع الاعتراف بالعجز عن إدراك الحقيقة الإلهية، روى في الكافي عن الفضيل بن يسار، قال: سمعت أبا عبد الله يقول: (إن الله لا يوصف، وكيف يوصف وقد قال الله في كتابه (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) فلا يوصف بقدر إلا كان أعظم من ذلك)^(٢). وفي الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ (ما عرفناك حقَّ معرفتك، وما عبدناك حقَّ عبادتك)^(٣)، وهذا معنى للتكبير (الله اكبر) أي أكبر من أن يوصف، إذ ليس لله تعالى قدر، وإنما يقدر المخلوقون (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) (الطلاق/٣).

(١) كلمة لسماحة المرجع العقبوبى (دام ظله) القيت يوم الجمعة ٧/صفر/١٤٣٧ الموافق

٢٠/١١/٢٠١٥.

(٢) الكافي: ١/٨٠ ح ١١.

(٣) بحار الأنوار: ٢٣/٧١.

بل نحن عاجزون عن إدراك اسم من اسمائه تعالى وصفة من صفاته كالمنعم، قال الله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) (النحل ١٨)، روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (أوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام: يا موسى اشكرني حقَّ شكري، فقال: يا رب كيف أشكرك حقَّ شكرك، وليس من شكرٍ أشكرُك به الا وأنت أنعمت به عليّ؟ فقال: يا موسى شكرتني حق شكري حين علمت أن ذلك مني)^(١) وهذا فضل من الله تعالى وكرم حين جعل الاعتراف بالعجز أداءً للحق، فإذا كنّا عاجزين عن معرفة اسم من اسمائه فكيف نقدر على معرفته حق المعرفة سبحانه وتعالى.

معنى الزجر والتوبيخ في الآية:

فالاستغراب والزجر والتوبيخ ليس من عدم معرفة الخلق للخالق حق معرفته، لانهم عاجزون عن بلوغ ذلك، ولكن الاستغراب والتوبيخ من عدم سعيهم لتحصيلها بالمقدار الممكن لهم أولاً ولاستكبارهم على ربهم مع هذا العجز ثانياً. والآية شاملة لكل الناس فكل الناس ما قدروا الله حق قدره، وكان النبي وأهل بيته (صلوات الله عليهم اجمعين) الذين نخطبهم بوصف (التامين في معرفة الله)^(٢) اكثر الناس اقرارا بالعجز عن معرفة الله تعالى، لان الانسان كلما ازداد معرفة ازداد ادراكا لقصوره وتقصيره وخضوعه وتذله لله تعالى، وانما يستكبر الجاهل (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) [الإسراء: ٤٣]، نعم كما أن

(١) ميزان الحكمة: ٤/٤٧٣.

(٢) من زيارة الجامعة الكبيرة.

الناس على درجات متسافلة في عدم إعطاء الله تعالى حق قدره كذلك هم درجات متصاعدة في تعظيم قدر الله تعالى.

فبعض الذين ما قدرُوا الله تعالى حقَّ قدره أنكر وجوده تعالى وبعضُ أشرك به غيره بل قدّموا غيره تعالى عليه فعبدوا الغير من دون الله تعالى فهؤلاء ما قدرُوا ربوبيته والوهيته حق قدرها، وبعض أنكر وحيه وبعثة الانبياء والرسل وانزال الكتب فهؤلاء ما قدرُوا لطفه ورحمته وحكمته وعلمه حق قدرها هذه الاسماء الحسنی التي تقتضي بعث الانبياء والرسل اذ ان الله تعالى يعلم ان الانسان عاجز عن الوصول بمفرده الى الكمال والسعادة ما لم يهده الله تعالى ببعث الانبياء وانزال الكتب، وان رحمته بعباده وحكمته تقتضيان ذلك ولا بخل في ساحته فكيف ينكرون بعث الانبياء والرسل.

وبعض أنكر المعاد يوم القيامة، فهؤلاء ما قدرُوا عدله وقدرته حق قدرها وبعض انكر صفاته وأسماءه كالقدرة على تدبير الكون والغلبة على اعدائه، قال تعالى (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الزمر ٦٧).

وقال تعالى: (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحج ٧٤).

وقال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنَ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) (الانعام ٩١) فينزّه الله تعالى نفسه عن هذه الأباطيل (سبحانه و

تعالى عما يشركون)، اذ حق قدره ان يوحد في الوهيته وربوبيته وفي انه المبدأ واليه المعاد وله ما بينهما، ونزله عن كل نقص وانه لا يشبهه شيء (وتنزه عن مجانسة مخلوقاته).

الهيمنة اللامحدودة:

وتذكر الآية في سورة الزمر مظهراً من مظاهر قدرته فالسماوات والأرضون كلها في قبضته وتحت هيمنته اللامحدودة كما أن الورقة حينما تطوى تكون في القبضة فهو تعبير عن التسلط التام على السماوات والأرضين، وهو كذلك في الدنيا وليس في الآخرة فقط، لكن الفرق أنه تعالى في الدنيا حَوْلَ عبادِه ببعض الملك وأنحاء التصرفات، لكن الإنسان يأتي في الآخرة مجرداً عن كل ذلك (تَرَكْتُمْ مَّا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) (الأنعام/٩٤).

المؤمنون ما قدروا حق ربهم:

وننتقل الآن الى دائرة أضيق من الذين ما قدروا الله حق قدره وهم المؤمنون بالله تعالى فإنهم أيضاً ما قدروه حق قدره بأشكال عديدة، أوضحها ارتكاب الذنوب والمعاصي فإن فيها استخفافاً بحقوق الربوبية، روى إسحاق بن عمار عن الإمام الصادق عليه السلام حديثاً جاء فيه: (يا إسحاق خَفِ الله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك، فإن شككت أنه يراك فقد كفرت وإن أيقنت أنه يراك ثم بارزته بالمعصية فقد جعلته أهون الناظرين اليك)^(١).

(١) بحار الانوار: ٣٢٣/٥ عن ثواب الاعمال ورجال الكشي وقضاء حقوق المؤمنين.

من أشكال (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ):

ومن أشكال (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) عدم مراعاة حقّ من أمر الله تعالى بمراعاة حقه، كالنبي ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام والحجج من بعدهم، وفي موارد كثيرة أخرى وردت في الروايات.

كقوله عليه السلام: (ومن لم يوقّر القرآن فقد استخف بحرمة الله) ^(١)، ومن مصاديق عدم توقير القرآن نبذ احكامه والعمل بالقوانين الوضعية التي يصنعها البشر.

وقوله عليه السلام: (الا ومن استخف بفقير مسلم فقد استخف بحق الله والله يستخف به يوم القيامة إلا أن يتوب) ^(٢).

وفي الحديث القدسي قوله تعالى: (يا موسى إن من إعظام جلالتي إكرام عبدي الذي أنلته حظاً من حطام الدنيا عبداً من عبادي مؤمناً قصّرت يده في الدنيا، فإن تكبر عليه فقد استخف بعظيم جلالتي) ^(٣).

ومن أشكال (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) الاعتقاد بأن الاسباب المخلوقة هي المؤثرة من دون الله تعالى كقول البعض (لولا فلان لما حصل كذا)، ومنها طاعة المخلوقين في غير ما امر الله تعالى به، أو تطبيق القوانين الوضعية في الحياة وترك القوانين الالهية وهكذا. وآية سورة الحج صريحة في ذلك فقد سبقها قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ

(١) البحار: ١٩/٨٩ ح ١٨.

(٢) البحار: ٣٨/٦٩ ح ٣٠.

(٣) البحار: ٢٦٧/٢٣ ح ١٢.

يَخْلُقُوا دُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (الحج/٧٣) فلا فرق بين من كان في الأزمنة السابقة يعبد الأصنام طمعاً في منفعة أو دفعاً لمضرة بحسب اعتقاده وبين من يلتجئ اليوم الى المخلوقين من دون الله تعالى لنفس الغرض مهما كانت القوة والقدرة الموجودة عند المخلوقين كأريكا التي يسمونها (القوة العظمى) أو أي دول أو شخصيات متفرعة أخرى (ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) فهو لاء كلهم ما قدروا الله حق قدره (إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) فالعزة والقدرة والعظمة لله تبارك وتعالى.

علاقة غير منصفة مع الله تعالى:

تناول بعض الأحاديث القدسية هذه العلاقة غير المنصفة بين الناس وخالقهم، روى الإمام الرضا عليه السلام أن أباه عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يقول الله تبارك وتعالى يا بن آدم ما تنصفي أتحب اليك بالنعم، وتمقت اليّ بالمعاصي، خيرني اليك نازل وشرك اليّ صاعد ولا يزال ملك كريم يأتيني عنك في كل يوم وليلة بعمل قبيح يا بن آدم لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تعلم من الموصوف لسارعت الي مقته)^(١).

هذا النقص والتقصير في معرفة الله تعالى بسبب الجهل أو التعصب أو اتباع الهوى أو التلقّي من وسائل غير صحيحة وبأدوات غير طاهرة يأخذه الإنسان الى يوم القيامة أيضاً ويجادل فيه (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) [الكهف : ٥٤] فيريد أن يعرف ربه من خلال تلك القنوات المعرفية المشوهة المملوءة

(١) بحار الانوار: ١٩/٧٧ ح ٢ عن عيون اخبار الرضا: ٢٨/٢.

بالشوائب، أي يفصل له رباً على طبق معتقداته المستندة الى الأوهام التي ذكرناها آنفاً فلو تجلى له ربه بما يليق بقدسه وجلاله فانه ينكر ربه لانه يريد رباً يصوره هو ويعرفه هو ويتناغم مع هواه، مثلاً كان في الدنيا يتعصب لشخص او جهة او كان يؤمن بعقيدة معينة او باتجاه ما واخبره ربه في الآخرة ان محبوه الذي يتعصب له وهم باطل فانه سيقول له انت لست ربي حقيقة، ولو كنت رباً حقاً لقلت لي ان هذا الشخص او العقيدة او الحالة حق^(١)، فهم يحكمون على الله تعالى بما عندهم من غث وسمين وليس العكس بأن يحكمون الله تعالى فيما عندهم، والاول هو الذي يسميه بعض أهل المعرفة بالرب المقيد بتصوراتنا واوهامنا والثاني بالرب المطلق الذي لا تحدّه اوهامنا وعقولنا واهواؤنا وهو الاعتقاد الصحيح.

وتوجد رواية يظهر منها هذا المعنى عن رسول الله ﷺ قال: (يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت^(٢))، وتبقى هذه الامة فيها منافقوها، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: انا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا

(١) مثلاً الذين يقدّسون بعض الطقوس التي اضيفت الى الشعائر الحسينية فلو تجلى لهم رب العزة والجلال وقال لهم هذا الفعل ليس من الشعائر الحسينية وانما هو طقس وفعالية ابتدعها البعض للتعبير عن تفاعله مع قضية الحسين عليه السلام، فان هؤلاء سيقولون انت لست رباً حقاً، ولو كنت الرب الحقيقي لقلت لنا أن الدين هو هذا الفعل.

(٢) وقد يكون هؤلاء الطواغيت متلبسين بزي علماء الدين (تَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) [التوبة : ٣١].

حتى ياتينا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون،
فيقول: انا ربكم فيقولون: انت ربنا فيتبعونه^(١).

فاذا أردنا معرفة الله حق معرفته فلنأخذها من أهل لها وهم أهل البيت عليهم السلام
عدل القرآن وصنوه والقرآن الناطق، ومن ادعية أمير المؤمنين والامام الحسين
والامام السجاد (صلوات الله عليهم اجمعين) والكلمات الاخرى للائمة
المعصومين عليهم السلام.

(١) صحيح مسلم: ٨٢، باب ٨١ معرفة طريق الرؤية، ح ٢٩٩.

(الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله)^(١)

[الأعراف: ٤٣]

وبابك مفتوح للسائلين:

نعم الله تعالى على الانسان كثيرة لا تعد ولا تحصى قلما يلتفت اليها سواء كانت مادية او معنوية، ومن تلك النعم المعنوية إمكانية الاتصال بالله تعالى متى شئت فلا يغلق بابه على عباده مطلقاً، فان شئت أن تصلي قمت وتوضأت ودخلت في الصلاة، وكذلك إن شئت ان تصوم او تدعو او تسجد او تقرأ القرآن او تزور الائمة المعصومين عليهم السلام وغير ذلك ولا تحتاج في ذلك الى أي واسطة، هذه النعمة يذكرنا بها الامام السجاد عليه السلام في الدعاء المعروف بدعاء ابي حمزة في ليالي شهر رمضان (الحمد لله الذي أناديه كلما شئت لحاجتي وأخلوا به حيث شئت لسري بغير شفيع فيقضي لي حاجتي)^(٢).

وفي نفس الدعاء يقول عليه السلام (الحمد لله الذي أدعوه فيجيبني وإن كنت بطيئاً حين يدعوني، والحمد لله الذي اسأله فيعطيني وإن كنت بخيلاً حين يستقرضني.. الحمد لله الذي لا أدعو غيره ولو دعوت غيره لم يستجب لي

(١) من حديث سماحة المرجع العنقوبي (دام ظله) مع جمع من اساتذة وطلبة جامعة الصدر

الدينية فرع كربلاء يوم الاحد ٢٥/محرم/١٤٣٧ الموافق ٢٠١٥/١١/٨

(٢) مفاتيح الجنان: ٢١٩.

دعائي^(١).

هذه واحدة من صفات ربنا ومولانا وهكذا نحن بالمقابل، فنعم الرب ربنا ونسأله تعالى ان لا نكون بئس العبيد نحن.

وقد تكرر هذا المعنى في كلمات الامام السجاد عليه السلام، روى الاصمعي انه كان يطوف بالبيت الحرام فرأى شاباً متعلقاً بأستار الكعبة في جوف الليل وهو يدعو وكان من دعائه (نامت العيون وغارت النجوم وانت الملك الحي القيوم غلّقت الملوك ابوابها واقامت عليها حراسها وبابك مفتوح للسائلين)^(٢).

كيف نعرف عظمة نعمة مناجاة الله تعالى؟

وإذا كانت الأمور تعرف بأضدادها فلكي تعرف عظمة هذه النعمة تصور لو انكم كنتم جماعة واتيتم للصلاة في المسجد فقليل للآخرين أدخلوا وقيل لك أنت ممنوع من الدخول، وأنت لست أهلاً للصلاة والدعاء والمناجاة، كم تكون حسرتك وفضيحتك وحيائك، هذه الحالة التي يعبر عنها الامام السجاد عليه السلام في دعائه (مالي كَلِّمًا قُلْتُ قَدْ صَلَّحْتُ سَرِيرَتِي وَقَرُبَ مِنْ مَجَالِسِ التَّوَابِينَ مَجْلِسِي عَرَضْتُ لِي بَلِيَّةٌ أَزَالَتْ قَدَمِي وَحَالَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ خِدْمَتِكَ، سَيِّدِي لَعَلَّكَ عَنْ بَابِكَ طَرَدْتَنِي وَعَنْ خِدْمَتِكَ نَحَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي مُسْتَخْفًا بِحَقِّكَ فَأَقْصَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي مُعْرِضًا عَنْكَ فَقَلَيْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ وَجَدْتَنِي فِي مَقَامِ الْكَاذِبِينَ فَرَفَضْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ رَأَيْتَنِي غَيْرَ شَاكِرٍ لِنِعْمَائِكَ فَحَرَمْتَنِي، أَوْ لَعَلَّكَ فَقَدْتَنِي مِنْ مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ

(١) نفس المصدر.

(٢) بحار الانوار: ١٩٧/٩٦ ح ١١.

فَحَذَّلْتَنِي او).

وكان الائمة عليهم السلام يعلمون امتهم الخشية من حصول هذه الحالة لهم، روى الشيخ الصدوق بسنده عن مالك ابن انس امام المذهب المالكي قوله في الامام الصادق عليه السلام ((وكان من عظماء العباد واكابر الزهاد الذي يخشون الله عز وجل، ولقد حججت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الاحرام كان كلما همّ بالتلبية انقطع الصوت في حلقة وكاد ان يخرّ من راحلته فقلت: قل يا ابن رسول الله ولا بد لك من ان تقول فقال: يا ابن ابي عامر كيف اجسر ان اقول لبيك اللهم لبيك واخشى ان يقول عز وجل لي لا لبيك ولا سعديك))^(١).

هذه النعمة العظيمة يحسدنا عليها إبليس لأنه يعرف عظمتها وتشتد حسرته كلما رأى الطائعين لله تعالى لذلك يبذل كل وسعه لغواية بني آدم وسلب هذه النعمة منهم، روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (أحب الأعمال إلى الله عز وجل الصلاة ، وهي آخر وصايا الأنبياء ، فما أحسن الرجل يغتسل أو يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يتنحى حيث لا يراه أنيس فيشرف الله عليه وهو راکع أو ساجد، إنّ العبد إذا سجد فأطال السجود نادى إبليس : يا ويله ، أطاعوا وعصيت ، وسجدوا وأبيت)^(٢).

نماذج من عدم التوفيق لطاعة الله تعالى:

وهكذا كثير من الخلق غير موفقين لطاعة الله تبارك وتعالى حتى اليسير منها

(١) بحار الانوار: ١٦/٤٧ عن الخصال وعلل الشرائع وروضة الكافي.

(٢) وسائل الشيعة - ج ٤، ص ٣٩.

ويجدون كأن قيوداً وأغلالاً تُكبلهم عن الطاعة، كبعض سادة قريش الذين كان النبي ﷺ يدعوهم الى النطق بالشهادتين ويقول لهم قولوا كلمة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان فيقولون : (لو كلفتنا بنقل الجبال عن موقعها فإنه أهون علينا من هذه الكلمات).

وامثلة هؤلاء كثيرون كامرأة سافرة اثقل شيء عليها ان ترتدي الحجاب بينما الفاطميات الزينبيات يحرصن على تمام الحجاب والعفاف، او شخص لا يصلي يكون اثقل شيء عليه تذكيره بالصلاة او شخص متمول يكره كل من يطلب منه اخراج حقوقه الشرعية بينما يبادر المؤمنون الموفقون الى دفع ما بذمتهم فوراً ويزيدون.

فأعرفوا هذه النعمة واشكروا الله تعالى الذي وفقكم لهذه الطاعات ولولا لطفه تبارك وتعالى لحرمتنا منها كغيرنا، وهذا هو دعاء المؤمنين الفائزين يوم القيامة (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الأعراف/٤٣).

ولاية أمير المؤمنين عليه السلام :

وخذ مثلاً اخر ما يعرض اليوم على الشاشات الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي وتقنيات المعلومات من الحجج البالغة والبراهين الواضحة على إمامة وولاية أمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيت النبي (صلى الله عليهم أجمعين) التي هي تمام نعمة الاسلام وكمال الدين ويتقين بصدقها كثيرون لكنه لا يتمكن من

الايمان والاذعان ويحس بثقل الاقرار بالولاية على قلبه ويقول بعضهم لا أقولها حتى لو دخلت جهنم، بينما أنتم الموالون تكون هذه الشهادة عندكم أحلى من العسل وأمرأ من اللبن.

روى الكليني بسنده عن ابي بصير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية قال : (إذا كان يوم القيامة دُعي بالنبي صلى الله عليه وآله وبأمير المؤمنين والأئمة من ولده فينصبون للناس، فإذا رأتهم شيعتهم) (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله) يعني : هدانا الله في ولاية أمير المؤمنين والأئمة من ولده عليهم السلام ^(١).

وفي الاحتجاج للطبرسي في خطبة الغدير : (معاشر الناس سلموا على علي بأمره المؤمنين وقولوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) ^(٢).

ولم تكن هذه الهداية ممنوحة اعتباطاً لعبد وحرّم منها آخر فإن ذلك كله ينافي عدالته ورحمته ولطفه، ولا هي بالاجبار والاكراه وإلا لبطل الثواب والعقاب ولما تقدم المحسن على المسئ وإنما هي بالاختيار والارادة لكن الله تعالى بلطفه يسّر أسباب الطاعة لعبده وآتاه الوسائل والأدوات التي تمكنه منها وزينها له وما على العبد إلا أن يختارها ويسعى إليها (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ، فَضَلَّا مَنَ اللَّهُ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (الحجرات/٧-٨).

(١) الكافي : - ٣٤٦/١ ح ٣٣.

(٢) الفرقان : - ٣٤/١١ عن نور الثقلين : ٣١/٢.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) ^(١) [الضحى: ١١]

نشر ولاية أهل البيت عليه السلام

ماذا يتوجب علينا مع حصول النعمة؟

إذا حصلت للإنسان نعمة ما مادية كانت او معنوية فان هذا يوجب عليه أموراً ^(٢) عديدة :

(منها) شكر هذه النعمة باللسان وبالفعل كسجدة الشكر او صلاة الشكر.

(ومنها) استعمالها في طاعة المنعم ونيل رضاه وأداء ما افترض الله تعالى من حقوق فيها كالحقوق المالية او حق الزوج والزوجة أو حق الوالدين او المعلم او القائد الصالح كما رسمها الامام السجاد عليه السلام في رسالة الحقوق.

(ومنها) بذلها للناس وعدم التقصير في سد احتياجاتهم منها، عن رسول الله ﷺ قال: (إن لله عبداً أختصهم بالنعم يقرّها فيهم ما بذلوا للناس فإذا منعوها حولها منهم الى غيرهم) وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (من كثرت نعم الله عليه

(١) تقرير لحديث سماحة المرجع العنقوبي (دام ظله) مع الضيوف المشاركين في مؤتمر الطف الدولي السابع الذي اقامته كلية الآداب في جامعة المستنصرية وقد زاروا سماحة المرجع يوم الاربعاء ٢٦/صفر/١٤٣٧ المصادف ٢٠١٥/١٢/٩ وهم من دول عربية واسلامية واجنبية.

(٢) شرحناها بتفصيل أوسع في خطاب (ولتسألن يومئذ عن النعيم) (خطاب المرحلة: ١٠١/٧) وخطاب (الذين بدلوا نعمة الله كفراً) (خطاب المرحلة: ٣٣٣/٨).

كثرت حوائج الناس اليه، فمن قام لله فيها بما يجب فيها عرضها للدوام والبقاء، ومن لم يقم فيها بما يجب عرضها للزوال والفناء).

كيف نعرف بالنعمة ولا نصاب بالعجب أو الرياء؟

(ومنها) ما ذكرته الآية الشريفة من وجوب التحديث بهذه النعمة، إذ الأمر فيها لا يختص بالمخاطب وهو رسول الله ﷺ كما هو واضح في آيات القرآن الكريم، وقد يبدو الأمر غريباً إذا تعلق بالأمر المادية إذ من غير المألوف أن يتحدث الإنسان في مجالسه بما عنده من أموال أو بنين أو عقارات أو نفوذ اجتماعي ونحو ذلك، وكذا الحديث في الأمور المعنوية فقد يدخل في باب الرياء أو العجب أن يتحدث الإنسان عن الطاعات التي قام بها من صلاة أو صوم أو صدقة ونحو ذلك، إذن كيف نفهم هذا الأمر بالتحديث بالنعمة.

والجواب يتحقق من خلال فهم معنى (النعمة) أو (التحديث) يناسب الأمر الوارد في الآية، والتأمل فيهما يؤدي إلى عدة وجوه:

١- أن التحديث بالنعمة لا يكون بعنوان كونها إنجازاً شخصياً للاستعلاء والتفاخر وإنما بما هي منسوبة إلى الله تبارك وتعالى لبيان فضله وكرمه وابتداءه بالنعم لتحبيبه تعالى إلى الناس وتذكيرهم بما أنعم الله تعالى عليهم، لذلك أضافت الآية النعمة إلى الرب (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

٢- أن التحديث بالنعمة لا يقتصر على الحديث اللساني وإنما يشتمل التحديث العملي بإظهار تلك النعمة أمام الآخرين روي عن رسول الله ﷺ قوله: (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده) وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (إذا

أنعم الله على عبده بنعمة فظهرت عليه سُمِّي حبيب الله محدثاً بنعمة الله، وإذا أنعم الله على عبد بنعمة فلم تظهر عليه سُمِّي بغض الله مكذباً بنعمة الله) ويكون ثمرة هذا التحديث للتأسي في فعلها أو السعي بنفس المقدمات التي تؤدي الى تحصيل تلك النعم ونحو ذلك روي عن الامام الحسين عليه السلام قوله: (إذا عملت خيراً فحدث إخوانك ليقتدوا بك)^(١).

٣- يحتمل في التحديث معانٍ آخر غير معنى التكلم بها وإطلاع الآخرين عليها، قال السيد الشهيد الصدر الثاني قدس سره الشريف ((أمكن أن يُراد بمادة (حدث) أمران آخران :
الأول : الحدوث.

والثاني : التحديث بمعنى الجدة.

فعلى الاول يعني: أوجد نعمة ربك، أي: سبب إلى وجودها في حدود إمكانك، وهو أمر معنوي.

وعلى الثاني يعني: جدّد نعمة ربك: إما بالتسبيب إلى تكرارها وإما بتذكّرها. وإما أن يكون الحديث بمعنى التذكّر يعني: حدث نفسك أو حدث ربك، ولم يقل حدث الآخرين، وهو مجازٌ في التذكّر، وفيه ثوابٌ وتكاملٌ، أو إنك إنما تفعل ذلك كلّ بنعمة الربّ سبحانه.

وبتعبيرٍ آخر: تارةً يكون التركيز على النعمة وأخرى على التحديث

بها، ويكون الآخر تابعاً نحو: العيش برزق الله^(١).

٤- إن الآية لم تذكر صاحب النعمة التي يجري التحديث بها فقد لا يكون المقصود التحديث بنعمة الله على المتحدث نفسه بل على الآخرين لتذكيرهم ولتقريبهم الى الطاعة او لتسليتهم عن أمر فقدوه ولامتصاص غضبهم وسخطهم على ما فاتهم فيذكرهم بالنعمة التي أستفادوها ونحو ذلك، ورد أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: (حبّني الى خلقي وحبّ خلقي اليّ، قال: يا رب .. كيف أفعل ؟ قال : ذكرهم آلائي ونعمائي ليحبّوني)^(٢).

النعمة هي الاسلام وولاية اهل البيت عليهم السلام:

٥- الوجوه السابقة كلها مقبولة ومفيدة الا ان الوجه الادق والاهم هو أن نفهم من نعمة الرب مصداقاً يتناسب مع الأمر بالتحديث بها، وهذا موجود، لأن آيات عديدة وروايات كثيرة أفادت بأن هذه النعمة هي الاسلام وولاية أهل البيت عليهم السلام، ومنها قوله تعالى (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً) (آل عمران/١٠٣) ونعمة الله التي ألقت بينهم ووحدت قلوبهم هو رسول الله صلى الله عليه وآله برسالة الاسلام، عن الامام الحسين عليه السلام قال في تفسير هذه الآية (أمره أن يحدث بما أنعم الله عليه من دينه) ويكون هذا المعنى ظاهراً بمقتضى المقابلة بين الآيات في سورة الضحى فان هذه الآية قابلت قوله تعالى (وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى) (الضحى/٧) فالنعمة التي امر بالتحدث بها هي نعمة الهداية الى دين الله تبارك وتعالى.

(١) منة المنان في الدفاع عن القرآن: ٩٦/٢.

(٢) الأماي : ٤٨٤.

وتمام هذه النعمة وكمال هذا الدين ولاية علي ابن ابي طالب عليه السلام لقوله تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) (المائدة/٣)، وورد عن الامام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر/٨) قول الامام الصادق عليه السلام إلى أبي حنيفة: (نحن - أهل البيت - النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين وبنا ألف الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءاً وبنا هداهم الله الى الاسلام وهي النعمة التي لا تنقطع والله سائلهم عن حق النعيم الذي أنعم الله به عليهم وهو النبي صلى الله عليه وآله وعترته^(١)، وقد يكون هذا المعنى هو المقصود لا غيره إذا لم نفهم اطلاق النعم وعمومها من قوله تعالى (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) بأن يكون المراد التنويه بنعمة معينة فتكون هذه لا غيرها واكتفى بالإشارة اليها لعظمتها واهميتها على سائر النعم.

وورد عن الامام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) (لقمان/٢٠) قال: (النعمة الظاهرة النبي صلى الله عليه وآله وما جاء به النبي من معرفة الله عز وجل وتوحيده، وأما النعمة الباطنة ولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا).

وقد عمل رسول الله صلى الله عليه وآله بهذه الآية المباركة وتحدثت بفضل اهل بيته ومقاماتهم الرفيعة وجعلهم صنو القرآن والزم الامة بالرجوع اليهم فظن بعض الاصحاب انه منحاز الى قومه ويتحدث بدافع العاطفة نحو اهل بيته عليهم السلام وهو المنزه عن كل ذلك (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) (النجم/٤/٣) فعمله صلى الله عليه وآله هذا كان التزاماً بالآية الكريمة.

(١) راجع مصادر هذه الأحاديث في خطاب المرحلة: ٣٣٣/٨ و ١٠١/٧.

آليات التحديث بالنعمة:

فالتحديث بهذه النعمة يكون بالتعرف عليها والتفقه فيها ثم نشرها بين الناس ودعوتهم اليها، وإذا أردنا أن نكون من الشاكرين على هذه النعمة فلا بد أن نظهرها ونعظمها وتبين فضائل أهل البيت عليهم السلام ومناقبهم ومكارم أخلاقهم وننشر مواعظهم وأحكامهم ومحاسن كلامهم ونوصلها الى البشرية جمعاء بكل صنوفها ولغاتها، وعلينا أن نحیی شعائرهم وأمرهم كما دعوا عليهم السلام الى ذلك (أحيوا أمرنا رحم الله من أحيأ أمرنا) ومن قصر في إظهار نعمة ولاية أهل البيت عليهم السلام ولم يدعُ الناس اليها وإقناعهم بها بأي وسيلة ممكنة، أو لم يحفظ حرمة أهل البيت عليهم السلام في سلوكه وصفاته فهو ممن لم يؤدِ حق هذه النعمة ولم يشكرها.

وكما تقدّم في قول الامام الصادق عليه السلام فإنه أعتبر من لم يحدث بنعمة الله ولم يظهرها مكذباً بنعمة الله وبغیض الله، فليتفقه كل شيعة أهل البيت عليهم السلام في دينهم وليطلعوا بعمق ووعي على سيرة أئمتهم عليهم السلام ليستطيعوا إيصال هذه الرسالة العظيمة الى العالم كله بأمانة وإتقان (فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا)^(١).

مسؤولية التشيع اليوم:

أقول: بناءً على هذه المسؤولية الكبيرة التي حملتنا هذه الآية مع توفر أئمة من فرصة اليوم لنشر تعاليم أهل البيت عليهم السلام والتمهيد لدولة العدل الإلهي بسبب:

١- عظمة ما أحتوت عليه كلمات أهل البيت عليهم السلام من احكام وإرشادات

(١) معاني الاخبار للشيخ الصدوق.

ومواعظ قال الامام الرضا عليه السلام (فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا) وهذا ما تشهد به التجارب التي حدثنا بها الاخوة المبلغون في شرق الارض وغربها وما لمسوه من إقبال واسع وسريع لمذهب أهل البيت عليهم السلام.

٢- فشل الأنظمة المادية التي صنعتها البشرية وعجزها عن توفير السعادة للإنسان.

٣- الصورة المشوهة للإسلام التي طرحتها المدارس البعيدة عن أهل البيت عليهم السلام حيث كان نتاجها التكفير والقتل والارهاب والتدمير وتخريب الحضارة. فتوجهت الانظار كلها الى مدرسة أهل البيت عليهم السلام لذا كان لازماً علينا في الحوزات العلمية والنخب الفكرية والثقافية والمراكز العلمية والبحثية أن تضع البرامج والآليات للتحرك بهذه الرسالة العظيمة وسيفتح الله تعالى لهم العالم بأسره ولا نتخوف من الحكومات فإننا إذا توجهنا بخطابنا الى الرأي العام وصنعنا قضية أمامه من خلال مراكز اعلامية وفكرية وبحثية صانعة للمواقف ومقنعة للرأي العام على شكل (لوبيات) مؤثرة وفاعلة في مختلف دول العالم ، فان الرأي العام سيقنع بها ويضغط على أصحاب القرار ويجبره على الانصياع للرأي العام الذي تخشاه الحكومات.

وأذكر كمثال مظلومية الشعب العراقي وإضطهاد صدام المقبور له، فعندما تحركت المعارضة العراقية يومئذٍ وشرحت هذه المظلومية كوَّنت رأياً عاماً متعاطفاً معها وارتقى بهم الأمر حتى أفنعوا حكومات الدول الكبرى بضرورة إتخاذ إجراء وهذا ما حصل، كما ان القناعة حصلت لاثنتين من كبريات الصحف

البريطانية والامريكية فنشرت مقالين عن زيارة الاربعين هذا العام وأشارت الى الارقام القياسية المتحققة فيها من حيث عدد المشاركين في المشي وعدد المتطوعين للخدمة المجانية وعدد وجبات الطعام المجانية المقدمة (قدروها ب ٢٠٠ مليون وجبة) واطول مائدة طعام في العالم في اكبر حشد بشري، كما عتب كاتبا المقالين على وسائل الاعلام العالمية لإغفالها هذا الحدث مع انها تغطي تجمعاً لعشرات في هذه الدولة او تلك.

وهذا كله يثبت اننا قادرون على صناعة وتوجيه الرأي العام العالمي اذا توفرت الارادة والعزم والسعي.

فلماذا نتخلى عن مشروعنا هذا بمجرد الوصول الى السلطة، فهل السلطة غايتنا أم إنها وسيلة لإحقاق الحق وإزالة الظلم والفساد.

(فاصدع بما تؤمن)^(١) [الحجر : ٩٤] إعلان الهوية

التماهي في الذوبان:

من مظاهر تقصيرنا الذي تحوّل إلى مشكلة تعيق تقدّم العمل الإسلامي الرسالي هو عدم إبراز هويتنا اما ضعفاً أو مجاملة أو مداهنة أو خوفاً على بعض المصالح والامتيازات أو لأي سبب آخر، ونقصد بهويتنا كل الانتماءات التي تشكل عناصر هذه الهوية، فنحن مسلمون ننتمي للإسلام، ونحن من الموالين لأهل البيت (عليه السلام)، ونحن نتبع المرجعية الفلانية ونقلدها.

فعلى صعيد الهوية الإسلامية نجد أن بعض المسلمين -في بعض المجتمعات المتمدنة كما يزعمون- قد يترك الصلاة بين زملائه في العمل أو في الجامعة حتى لا يعرف انه مسلم، أو المرأة تضعف عن لبس الحجاب العفيف لأنها لا تستطيع أن تواجه تعليقات الآخرين، أو يجلس شخص على مائدة الشراب أو يسمع الغناء حتى لا يقال عنه انه (معقّد) أو (متخلّف)، أو يجري الآخرين في لبسه ومظهره الخارجي واندماجه معهم في سلوكهم المنحرف حتى يقل عنه أنه

(١) من حديث سماحة المرجع العنقوبي (دام ظله) مع جمع من طلبة الجامعة المستنصرية يوم الثلاثاء ١٥/ذ.ق/١٤٣٣ المصادف ٢٠١٢/١٠/٢ وقد أنشد أحدهم شعراً للمرجعية فتحدث سماحته بهذه المناسبة.

تمدن متحضر مثلهم.

وعلى صعيد الهوية الشيعية نجد من يترك المشاركة في إحياء الشعائر الحسينية المهدبة المسنونة شرعاً، أو يعرض عن قضية فاطمة الزهراء (عليها السلام) وما جرى بعد رسول الله (ﷺ)، أو يخفي شهادته لأمر المؤمنين (عليه السلام) بالولاية، أو السجود على التربة ونحوها.

والذي يقلد المرجعية المعينة لا يصريح بذلك ويحاول التمويه والابتعاد عن انتسابه إليها ونحوها من الأمثلة على التخلي عن الهوية وما تقتضيه انتماءاته لتلك الهوية من التزامات.

الضعف في إبراز الهوية:

إن هذا الضعف عن إبراز الهوية لا يضر فقط في دينه وآخرته ويسقطه من عين الآخرين لاتهامه بالنفاق، بل انه يضر بكل المشروع الذي ينتمي إليه لأنه يؤدي إلى تمييع الهوية وتضييعها، ولأنه إذا لم يعلن انتماءه ويبيّن نقاط القوة فيه ودواعي تبنيه له، فكيف سيدعو الآخرين إليه ويقنعهم به؟، وكيف سيتقدم المشروع الرسالي؟ ولو أن السلف الصالح لم يقم بواجبه تجاه هويته ويبيّنوها بوضوح ويدافعوا عنها بالحجج الدامغة لما وصلت إلينا بهذه القوة والثبات والمناعة مضمخة بدماء الشهداء ومداد العلماء.

التعايش مع الآخر لا يعني التنازل عن المبادئ:

فإن الوحدة والتقارب والتعايش مع الطوائف الإسلامية أو مع الديانات الأخرى، أو مع الشرائع المتنوعة لا تستلزم التنازل عن المبادئ والمعتقدات

التي ثبتت صحتها، فليعمل كلُّ بما ثبت عنده صحته بالحجة والبرهان، وإذا كان غير متبَّت من معتقداته وانتماءاته فيجب عليه إعادة النظر فيها ومراجعتها وطلب الدليل عليها، وليس اخفاؤها والمجاملة فيها.

الآية الكريمة تصر على تحمل مسؤولية الانتماء:

لقد كان من أوائل الأوامر التي وجَّهها الله تبارك وتعالى إلى رسوله الكريم (ﷺ) في بداية الدعوة الإسلامية (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) (الحجر/٩٤-٩٥) فصدع النبي (ﷺ) بدعوته في مواجهة طواغيت قريش وسدنة الأصنام التي بلغ تعدادها (٣٦٠) صنماً حولوها إلى كيانات لمصالحهم وامتيازاتهم الواسعة، ولم يكن مع النبي (ﷺ) إلا أمير المؤمنين (عليه السلام) وخديجة بنت خويلد، وأصرَّ على تحمل المسؤولية حتى فتح الله تعالى على يديه، ولا نطيل بالشواهد من سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام) وفاطمة الزهراء (عليها السلام) والأئمة الطاهرين (عليهم السلام).

وعلى هذا النهج سار الصلحاء من اتباع أهل البيت (عليهم السلام)، فيقف أبو ذر الغفاري (رضوان الله تعالى عليه) في عقر ديار معاوية ويقول: سمعت حبيبي رسول الله (ﷺ) باذنيَّ هاتين وإلاَّ صُمِّتا يقول، ثم يذكر فضائل علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وانظر إلى موقف الصحابة الاثني عشر الذين احاطوا بمنبر الأول حينما تقمص الخلافة بعد رسول الله (ﷺ) وادلوا بشهاداتهم وحججهم وقد ذكرها الطبرسي في كتاب الاحتجاج.

لنتحدث عما يجب فعله لا ما فعلوه بنا:

روينا لكم في حديث سابق اننا في موسم الحج عام ١٤٢٤ هـ وجَّهنا إلى أن نرفع أصواتنا بشكل جماعي اثناء الطواف حول الكعبة بدعاء الفرج (اللهم كن لوليك الحجة ابن الحسن.....) ليلتفت المسلمون القادمون من حوالي (١٨٠) دولة في العالم إلى إمامهم الحق ويسألوا عنه ويتعرفوا عليه ويهتدوا إلى نوره، وكنا على ثقة بأنه سيتجاوب معنا الموالون، وهذا ما حصل وكان له وقع واثر ولم يستطع المناوؤن منعه واستمرت هذه السُّنة إلى اليوم ونسأل الله تعالى أن تبقى وتستمر وتتسع حتى يأذن الله لوليه بالظهور المبارك.

إننا كثيراً ما نتحدث عن مؤامرات الأعداء واستهدافنا وانهم يفعلون كذا وكذا، ولا نتحدث إلا القليل عما يجب أن نفعله نحن في مواجهتهم والقيام بمسؤولياتنا، ومنها هذا التكليف بالاصحار والاعلان عن عناصر الهوية.

ويجب الالتفات إلى أن يكون ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر الله تبارك وتعالى، وأوصى نبيّه الكريم وأخاه هارون وهما يتوجهان إلى فرعون لدعوته إلى التوحيد (اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ) (طه ٤٣-٤٤).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا^(١)

[الأحزاب : ٤١]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سادة خلقه أجمعين أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين..

الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر والله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام، والحمد لله على ما أولانا.

المعنى الحقيقي للتزین:

من مستحبات العيد التزيّن، والمعنى المعروف منه هو التزيّن الظاهري الشكلي ولا بأس به، لكن أهل البيت عليهم السلام يدلّوننا على المعنى الحقيقي الواعي للتزيّن؛ روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: (زَيِّنُوا أعيادكم بالتكبير) وعنه صلى الله عليه وآله: (زَيِّنُوا العيدين بالتهليل والتكبير والتحميد والتقديس)^(٢).

معنى التكبير:

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (أَكثَرُوا من التهليل والتكبير فإنه ليس شيء

(١) الخطبة الأولى لصلاة عيد الأضحى المبارك التي أقامها سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد

اليعقوبي دام ظله يوم الجمعة الموافق ٢٦/١٠/٢٠١٢.

(٢) ميزان الحكمة: ٣٢٣/٦، باب ٢٩٦٢.

أحبَّ إلى الله من التكبير والتهليل^(١)، ويشرح الإمام عليه السلام معنى التكبير في رواية عن أحد أصحابه قال: (قال لي أبو عبد الله عليه السلام: أي شيء الله أكبر؟ فقلت: الله أكبر من كل شيء، فقال عليه السلام: فكان ثمَّ شيء فيكون أكبر منه؟ فقلت: فما هو؟ فقال: الله أكبر من أن يوصف)^(٢).

وفي رواية أخرى (قال رجلٌ عنده: الله أكبر، فقال عليه السلام: الله أكبر من أي شيء؟ فقال: من كل شيء، فقال أبو عبد الله عليه السلام: حدّته! فقال الرجل: وكيف أقول؟ فقال عليه السلام: الله أكبر من أن يوصف).

الذكر في القرآن الكريم:

لقد أولى القرآن الكريم قضية (الذكر) أي ذكر الله تعالى اهتماماً بالغاً لأهميتها وعظيم آثارها، حتى أن هذه المفردة ومشتقاتها تكررت في عشرات الآيات، والملاحظ أن ورودها في الآيات المكية حوالي ثلاثة أضعاف الآيات المدنية تقريباً حيث كان القرآن المكي يركّز على بناء عقيدة التوحيد وعلاقة المسلم بالله تعالى ونبذ الشركاء والأنداد وتطهير القلب وتهذيب النفس.

قال تعالى: [وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ] (آل عمران: ٤١) وقال تعالى: [وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ] (الأعراف: ٢٠٥) وقال تعالى: [وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ] (الكهف: ٢٤)، وقال تعالى: [فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا

(١) ثواب الأعمال: ١٨، باب ثواب لا إله إلا الله، ح ١٣.

(٢) الحديث والذي يليه في معاني الأخبار: ١١

تَكْفُرُونَ] (البقرة: ١٥٢) وقال تعالى: [وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ] (البقرة: ٢٠٣)، وقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ] (الأحزاب: ٩)، وقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا] (الأحزاب: ٤١-٤٢)، وقال تعالى: [وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (الجمعة: ١٠) وقال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ] (الأعراف: ٢٠١) وقال تعالى: [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ] (آل عمران: ١٩١) وقال تعالى: [الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ] (الرعد: ٢٨) وقال تعالى: [إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ] (العنكبوت: ٤٥) وقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ] (المنافقون: ٩) وقال تعالى: [وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا] (المزمل: ٨).

وجاءت الأحاديث الشريفة لتؤكد هذه الأهمية، وتدعوا المؤمنين إلى ذكر الله تعالى على كل حال، ففي الخصال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال رسول الله ﷺ: يا علي سيد الأعمال ثلاث خصال: إنصافك الناس من نفسك، ومواساتك الأخ في الله عز وجل، وذكر الله تعالى على كل حال)، وروى الحسن بن علي عليه السلام قال: (قال رسول الله ﷺ: بادروا إلى رياض الجنة، فقالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حَقُّ الذِّكْرِ^(١)).

(١) معاني الأخبار: ٣٢١، أمالي الصدوق: ٢٩٧، المجلس ٥٨، ح ٢.

معنى (ذكر الله تعالى على كل حال):

ونفهم من (على كل حال) عدة مستويات وكلها صحيحة ومستفادة من الآيات المتقدمة:

١- أي في كل زمان وفي كل آن، كما في الآية (٤١ من آل عمران) [بِالْعَشِيِّ وَالِإِبْكَارِ] و (الآية ٢٠٥ من الأعراف) [بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ] عن أبي جعفر عليه السلام قال: (مكتوب في التوراة أن موسى سأل ربه فقال: إني أكون في حال أُجِلُّك أن أذكرك فيها، قال: يا موسى اذكرني على كل حال وفي كل أوان)^(١).

٢- أي في كل وضع من أوضاع الإنسان قائماً وقاعداً وعلى جنوبهم كما في (الآية ١٩١ من آل عمران) [قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ]، وعن الإمام الباقر عليه السلام قال: (لا يزال المؤمن في صلاة ما كان في ذكر الله قائماً كان أو جالساً أو مضطجعاً إن الله تعالى يقول: [الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ]).

٣- في كل مكان وموضع كان فيه، عن الإمام الصادق عليه السلام: (إن سمعت الأذان وأنت على الخلاء فقل مثل ما يقول المؤذن ولا تدع ذكر الله عز وجل في تلك الحال لأن ذكر الله حسن على كل حال) ثم ذكر عليه السلام المكتوب في التوراة أعلاه، وفي كتاب الخصال في حديث الأربعمئة قال أمير المؤمنين عليه السلام: (اذكروا الله في كل مكان فإنه معكم، وقال عليه السلام: (أكثرُوا ذكرَ الله عز وجل إذا دخلتم الأسواق وعند اشتغال الناس فإنه كفارة للذنوب وزيادة في الحسنات ولا تُكتبوا من الغافلين)^(٢).

(١) هذا الحديث وما بعده بحار الأنوار: ١٦٠/٩٣.

(٢) الخصال: ٦١٤/٢، باب الأربعمئة، ح ١٠.

٤- في كل قضية تعرض لك وكل معاملة وكل قضية، فإن كان فيها رضا الله سبحانه فعلتها، وإلا تركتها، روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: (ألا أحدثك بأشد ما فرض الله عز وجل على خلقه، قلت بلى، قال، قال: إنصاف الناس من نفسك مواساتك لأخيك وذكر الله في كل موطن، أما إنني لا أقول: سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر - وإن كان هذا من ذاك - ولكن ذكر الله في كل موطن إذا هجمت على طاعته أو معصيته^(١)). وفي حديث آخر عنه: (وذكر الله على كل حال فإن عرضت له طاعة لله عمل بها وإن عرضت له معصية تركها)^(٢).

٥- في كل حال من أحوال النفس من الغضب أو الرضا، والفرح أو الحزن، والغم والضيق أو الانشراح والسرور، روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال: (يقول الله عز وجل: يا ابن آدم، اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب، ولا أمحقك في من أمحق)^(٣). وفي حديث: (إنما المؤمن الذي إذا غضب لم يخرج غضبه من حق وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل وإذا قدر لم يأخذ أكثر مما له)^(٤).

٦- أن يُعدَّ لكل حالٍ ذكره الخاص به، فللنعمه ذكر وللمصيبة ذكر وللقتال ذكر وللوضوء ذكر وللتناول الطعام ذكر وللنوم ذكر وللنكاح ذكر وللتخلي ذكر

(١) معاني الأخبار: ١٩٢.

(٢) أمالي الطوسي: ٨٨، المجلس (٣)، ح ١٣٥.

(٣) أمالي الطوسي: ٢٧٩، المجلس (١٠) ح ٥٣٢.

(٤) الكافي: ١٨٣/٢.

ولر كوب السيارة ذكر، وهكذا، وهذا معنى شرحناه مفصلاً في كتاب (شكوى القرآن).

وخلاصة الوجوه أن معنى الذكر الكثير أن يكون الإنسان في جميع أحواله مطيعاً لله تبارك وتعالى، عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام (قال النبي صلى الله عليه وآله): من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته، ومن عصى الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته^(١).

جزاء الذكر وآثاره وفضل مجالس الذكر:

فضل مجالس الذكر: كهذا الحشد الذي نذكر فيه الله تعالى، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها:

- ١- عن النبي صلى الله عليه وآله قال: (ما جلس قومٌ يذكرون الله إلا ناداهم منادٍ من السماء: قوموا فقد بدلتُ سيئاتكم حسنات وغفرت لكم جميعاً، وما قعد عدة من أهل الأرض يذكرون الله إلا قعد معهم عدة من الملائكة).
- ٢- وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج على أصحابه فقال: (ارتعوا في رياض الجنة، قالوا: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر، اغدوا وروحوا واذكروا، ومن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزل العبدُ الله من نفسه، واعلموا أن خير أعمالكم عند مليكم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم وخير ما طلعت عليه الشمس ذكر الله تعالى، فإنه تعالى أخبر عن نفسه فقال: أنا جليس من ذكرني).

٣- وعن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام (أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل في الفارين والمقاتل في الفارين نزوله الجنة)^(١) فأكثر اجتماعات الناس تتخللها أحاديث فارغة لا جدوى منها، وقد تتضمن محرمات، فمن يلتفت حينئذٍ إلى ذكر الله تعالى يكون من أهل هذا الحديث.

٤- وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (البيت الذي يُقرأ فيه القرآن ويذكر الله فيه تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض) ولتلافي الغفلة التي تحصل في بعض المجالس والأحاديث، فقد ورد استحباب أن يقول الشخص عند قيامه من المجلس: [سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ].

جزاء الذكر وآثاره:

إن التوفيق لذكر الله تعالى من أعظم النعم على العبد، من دعاء الإمام السجاد عليه السلام: (إلهي لولا الواجب من قبول أمرك لنزهتك عن ذكرني إياك، على أن ذكرني لك بقدري لا بقدرك، وما عسى أن يبلغ مقداري حتى أجعل محلاً لتقديسك، ومن أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا) إلى أن يقول عليه السلام: (وقلتَ وقولك الحق: [فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ] فأمرتنا بذكرك ووعدتنا عليه أن تذكرنا تشريعاً لنا وتفخيماً وإعظماً، وها نحن ذاكروك كما أمرتنا، فأنجز لنا ما

وعدتنا، يا ذاكر الذاكرين^(١).

ومما ورد في كتاب الله تعالى:-

١- ذكر الله سبب لطمأنينة القلب وما أعظمها من نتيجة، قال تعالى: [الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ] (الرعد : ٢٨)، ومن آثار الطمأنينة الأنس، عن أمير المؤمنين عليه السلام: (ذكر الله ينير البصائر ويؤنس الضمائر) وعنه عليه السلام: (ذاكر الله مؤانسه) وعنه عليه السلام: (إذا رأيت الله سبحانه يؤنسك بذكره فقد أحبك، وإذا رأيت الله يؤنسك بخلقه ويوحشك من ذكره فقد أبغضك).

٢- أنه سبب ليقظة القلب من غفلته، وحياته بعد قسوته، قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ] (الأعراف : ٢٠١)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (من ذكر الله استبصر) وعنه عليه السلام: (من كثر ذكره استنار لبه) وعنه عليه السلام: (دوام الذكر ينير القلب والفكر).

٣- إن الله تعالى يذكر من ذكره، قال تعالى: [فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ] (البقرة : ١٥٢)، وفي عدة الداعي: (يعني اذكروني بالطاعة والعبادة اذكركم بالنعم والإحسان والرحمة والرضوان، وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال الله تعالى: يا ابن آدم اذكرني في نفسك اذكرك في نفسي، ابن آدم اذكرني في نفسك اذكرك في نفسي، ابن آدم اذكرني في الخلاء اذكرك في خلاء، ابن آدم اذكرني في ملاء اذكرك في ملاء خير من ملاءك، وقال: ما من

(١) مفاتيح الجنان: ٢٠٦، المناجاة (١٣) مناجاة الذاكرين.

عبد يذكر الله في ملأ من الناس إلا ذكره الله في ملأ من الملائكة^(١).

٤- إن الذكر سبيل موصل إلى الله تعالى، قال تعالى: [إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا] (المزمل : ١٩) (الإنسان: ٢٩).

جزاء الذكر في الأحاديث الشريفة:

أما الأحاديث الشريفة فقد ورد فيها الشيء الكثير:-

١- إن الذكر يوجب محبة الله تعالى للذاكر، عن النبي ﷺ أنه قال: (يا رب وددت أن أعلم من تحب من عبادك فأحبّه، فقال: إذا رأيت عبدي يكثر ذكري فأنا أذنت له في ذلك وأنا أحبه، وإذا رأيت عبدي لا يذكرني فأنا حجبته وأنا أبغضته)، وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (قال رسول الله ﷺ من أكثر ذكر الله أحبه).

٢- وأن الله تعالى يتولى أمر الذاكر وجميع شؤون حياته في دنياه وآخرته، فكم يكون الإنسان سعيداً حينما يتولى شؤونه محباً له شفيق عليه حكيم بأفعاله عالم بكل شيء إلى غيرها من الأسماء الحسنى، ففي بعض الأحاديث القدسية قال الله تعالى: (أَيُّمَا عَبْدٍ أَطْلَعْتُ عَلَىٰ قَلْبِهِ فَرَأَيْتُ الْغَالِبَ عَلَيْهِ التَّمَسُّكَ بِذِكْرِي تَوَلَّيْتُ سِيَاسَتَهُ وَكُنْتُ جَلِيسَهُ وَمَحَادَثَهُ وَأُنَيْسَهُ)، وعن النبي ﷺ قال: (قال الله سبحانه إذا علمت أن الغالب على عبدي الاشتغال بي نقلت شهوته في مسألتني ومناجاتي، فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو حلت بينه وبين أن

(١) أكثر الأحاديث المذكورة نقلناها عن مصادرها بواسطة: بحار الأنوار: ١٤٨/٩٣-١٧٥، وميزان

يسهو، أولئك أوليائي حقاً، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبةً زيتها عنهم من أجل أولئك الأبطال)، وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: (إن الله تبارك وتعالى يقول: من شغل بذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي من سألني)، وروي فيما ناجى به موسى عليه السلام ربه عز وجل: (إلهي ما جزاء من ذكرك بلسانه وقلبه؟ قال: يا موسى أظله بظل عرشي وأجعله في كنفي)^(١).

٣- أنه يوجب الثواب العظيم فعنهم (سلام الله عليهم): (إن في الجنة قيعاناً فإذا أخذ الذاكر في الذكر أخذت الملائكة في غرس الأشجار فربما وقف بعض الملائكة فيقال له: لم وقفت؟ فيقول: إن صاحبي قد فتر، يعني عن الذكر)^(٢). وعن أحد الإمامين الصادقين عليهما السلام قال: (لا يكتب الملك إلا ما أسمع نفسه وقال الله: [وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً] قال: لا يعلم ثواب ذلك الذكر في نفس العبد لعظمته إلا الله)^(٣).

٤- الذكر الطيب، عن أمير المؤمنين عليه السلام: (من اشتغل بذكر الله طيب الله ذكره)، ومن وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر قال: (عليك بتلاوة القرآن وذكر الله كثيراً فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض)^(٤).

٥- يقيه الكثير من الحوادث، عن الإمام الصادق عليه السلام: (إن الصاعقة لا

(١) أمالي الصدوق: ١٧٣، المجلس (٣٧) ح ٨.

(٢) بحار الأنوار: ١٦٢/٩٣-١٦٤.

(٣) بحار الأنوار: ١٥٩/٩٣، ح ٣٦.

(٤) معاني الأخبار: ٣٣٤، الخصال: ٥٢٥/٢، أبواب العشرين وما فوقه، ح ١٣.

تصيب ذاكراً لله عز وجل^(١).

٦- في الذكر إعمار القلب وصلاحه وهذا القلب هو الذي ينجو صاحبه يوم القيامة، من وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: (أوصيك بتقوى الله أي بُني، ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره) وعنه عليه السلام: (وأصل صلاح القلب اشتغاله بذكر الله) وعنه عليه السلام: (مداومة الذكر قوت الأرواح ومفتاح الصلاح) وعنه عليه السلام: (من عمر قلبه بدوام الذكر حسنت أفعاله في السر والجهر).

٧- وبالذكر تحيي القلوب، روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: (بذكر الله تحيي القلوب، وبنسيانه موتها)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (اذكروا الله ذكراً خالصاً تحيوا به أفضل الحياة وتسلخوا به طرق النجاة) وعنه عليه السلام: (من ذكر الله سبحانه أحى الله قلبه ونور عقله ولَّبه).

٨- وبه شفاء القلوب، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ذكر الله شفاء القلوب)، وعنه صلى الله عليه وآله: (عليكم بذكر الله فإنه شفاء، وإياكم وذكر الناس فإنه داء)، وفي دعاء كميل: (يا من اسمه دواء وذكره شفاء).

٩- بالذكر يطرد الشيطان، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (إن الشيطان واضع خطمه أي فمه - على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله سبحانه خنس، وإذا نسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس) وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (ذكر الله مطردة الشيطان) وعنه عليه السلام: (ذكر الله رأس مال كل مؤمن، وربحه السلامة من الشيطان).

(١) أمالي الصدوق: ٣٧٥، المجلس (٧١) ح ٣.

١٠- وأن في الذكر أماناً من النفاق، عن رسول ﷺ: (من أكثر من ذكر الله فقد برئ من النفاق).

خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في فضل الذكر:

ولأمر المؤمنين عليه السلام خطبة جامعة في فضل الذكر والذاكرين قالها عند تلاوته عليه السلام قوله تعالى: [رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ] قال عليه السلام: (إن الله سبحانه جعل الذكر جلاءً للقلوب، تسمع به بعد الوفرة، وتُبصر به بعد العسوة، وتنقاد به بعد المعاندة، وما برح الله عزت آلاؤه في البرهة بعد البرهة، وفي أزمان الفترات، عباداً ناجاهم في فكرهم، وكلمهم في ذات عقولهم، فاستصبحوا بنور يقظة في الأسماع والأبصار والأفئدة، يذكرون بأيام الله، ويخوفون مقامه، بمنزلة الأدلة في الفلوات، من أخذ القصد حمدوا إليه طريقه، وبشروه بالنجاة ومن أخذ يميناً وشمالاً ذموا إليه الطريق وخذروه من الهلكة. وكانوا كذلك مصايح تلك الظلمات وأدلة تلك الشبهات. وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم تشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة ويهتفون بالزواج عن محارم الله في أسمع الغافلين)^(١).

من مصاديق الذكر الكثير:

(١) تسبيح الزهراء عليها السلام عقب كل فريضة، عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث يقول في آخره: (تسبيح فاطمة من الذكر الكثير الذي قاله عز وجل:

(١) نهج البلاغة: الخطبة: ٢١١، ص ٢١١.

[فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ] ^(١) وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: إنه (التسبيح في دُبُر كل صلاة ثلاثين مرة) ^(٢).

٢) وعن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه (صلوات الله عليهم وسلامه) قال: (قال النبي صلى الله عليه وآله من أطاع الله فقد ذكر الله وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته، ومن عصي الله فقد نسي الله وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته).

٣) وعن الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: [اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا] قال عليه السلام: (إذا ذكر العبد ربه في اليوم مائة مرة كان ذلك كثيراً) ^(٣).

٤) وعنه عليه السلام قال: (من ذكر الله في السر فقد ذكر الله كثيراً، إن المنافقين يذكرون الله علانية ولا يذكرونه في السر قال تعالى: [يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا] (النساء: ١٤٢)) ^(٤).

خسارة الغفلة والإعراض عن الذكر:

قال تعالى: [وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى] (طه: ١٢٤-١٢٦)، وقال تعالى: [وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ] (الزخرف: ٣٦) وقال تعالى: [وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ] (الحشر: ١٩).

(١) معاني الأخبار: ١٩٤.

(٢) ميزان الحكمة: ٣/٣٤٤.

(٣) بحار الأنوار: ١٦٠/٩٣، ح ٣٨.

(٤) بحار الأنوار: ١٦٠/٩٣، ح ٤١.

الروايات المحذرة من الغفلة:

ومن الروايات المحذرة من الغفلة عن ذكر الله تعالى:-

١- روي عن رسول الله ﷺ قوله: (ما من ساعة تمرُّ بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا حَسِرَ عليها يوم القيامة)^(١).

٢- وفي عدة الداعي روى الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ما من قوم اجتمعوا في مجلس فلم يذكروا الله ولم يصلُّوا على نبيِّهم ﷺ إلا كان ذلك المجلس حسرة ووبالاً عليهم).

٣- وفي تمة الحديث السابق^(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (والبيت الذي لا يُقرأ فيه القرآن ولا يذكر فيه الله تقل بركته وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين).

٤- وروى الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام قال: (أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى عليه السلام: لا تفرح بكثرة المال ولا تدع ذكري على كل حال، فإن كثرة المال تنسي الذنوب وترك ذكري تقسي القلوب)^(٣).

٥- عن أمير المؤمنين عليه السلام من (نسي الله سبحانه أنساه الله نفسه وأعمى

(١) ميزان الحكمة: ٣/٣٤٤.

(٢) مرّال حديث في كلام سماحته في النقطة الرابعة من (فضل مجالس الذكر) وهو قول الإمام الصادق عليه السلام: (البيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله فيه تكثر بركته ..) الحديث.

(٣) الخصال: ٣٩/١، باب الاثنين، ح ٢٣.

قلبه^(١).

حقيقة الذكر:

قالوا: إن الذكر بمعنى الحفظ، إلا أن الاختلاف بينهما باللحاظ، فيقال الحفظ باعتبار إحراز المحفوظ، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره.

وأقول: إنه تارةً يراد بالذكر معناه المصدري فيكون معناه حضور الشيء في القلب أو على اللسان، وتارةً يراد به المعنى اسم المصدري، فيعبر عن قابلية عقلية وقلبية بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة.

والمعنى الحقيقي لذكر الله تعالى هو حضوره في القلب والالتفات إليه لأنه الذي تتحقق به الآثار، أما حركة اللسان به فهي تعبير وكاشف عنه ومظهر ومبرز له، وليست ذكراً حقيقياً إلا من باب ذكر الدال وإرادة المدلول به، ولا تترتب الآثار المتقدمة عليه وحده.

أترى لو أن إنساناً كان له حصن يحميه من عدوه فهل يكفيه أن يكرّر: أعوذ بهذا الحصن من عدوي لحمايته من العدو إذا هجم عليه، أم المطلوب الدخول فعلاً في الحصن، وهكذا كل الأذكار لها حقائق تترتب عليها الآثار ولا يكفي مجرد لقلقة اللسان، كما في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة لرجل قال بحضرته: أستغفر الله، فعلمه الإمام عليه السلام حقيقة الاستغفار.

لكن الله تعالى بكرمه جعل ثواباً حتى على مجرد تحريك اللسان بالذكر وإن كان ليس ذا قيمة مقابل ما يقترن بالذكر القلبي، لذا لا ينبغي الالتفات إلى ما

يقوله بعض الصوفية من أن الذكر باللسان دون حضور القلب لا قيمة له وتركه أولى، فهذا من تساويلات الشيطان؛ لأن لكل جراحة ذكراً، والذكر اللساني يحقق طاعة بمقداره ويصونه من استعماله في المعاصي اللسانية بمقداره أيضاً، وفيه إرغام للشيطان ولو بأدنى مستوياته فلا ينبغي تركه.

يقول السيد الشهيد الصدر الثاني رحمته الله عن قيمة الذكر القلبي إنه ((من أعظم الرياضات التي توصل إلى المدارج والمقامات التي فوقه بلطف الله سبحانه. وإن من أفضل أشكال الذكر القلبي هو استحضار مضمون الأسماء الحسنی ذات المدلول الطيب أعني ليس من قبيل (شديد العقاب) و (ذو الانتقام) ونحوها، بل نحو (العظيم) و (الرحيم) و (الحليم) و (الغفور) و (الشكور) وغيرها. ثم التفكير في الخلق الذي يرجع إلى مضمون مجموعة أخرى من الأسماء الحسنی كالخالق والرازق والمدبّر والمنعم والمعطي والحنّان والمّنّان ونحوها. ثم التفكير في شأن الفرد أمام خالقه من القصور والجهل والذنب والتقصير وحسن الظن به تبارك وتعالى وكونه محل لطفه ونعمه وسبحانه ونحو ذلك))^(١).

مجالس أهل البيت عليهم السلام من الذكر:

ومن خلق الذكر التي وصفتها الأحاديث الشريفة بأنها رياض الجنة: المجالس التي تعقد لذكر فضائل أهل البيت عليهم السلام ومصائبهم، وللوغظ والإرشاد وتعليم أحكام الشريعة، عن الباقر عليه السلام قال: (ليس من عبد يذكر عنده أهل البيت

فيرق لذكرنا إلا مسحت الملائكة ظهره وغفر له ذنوبه كلها، إلا أن يجيء بذنوبه يخرج من الإيمان^(١)، وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (شيعتنا الرحماء بينهم، الذين إذا خلوا ذكروا الله (إن ذكرنا من ذكر الله) إننا إذا ذكرنا ذكر الله وإذا ذكر عدونا ذكر الشيطان)^(٢).

(١) سفينة البحار: ٢٠٧/٣.

(٢) الكافي، ج ٢، باب تذاكر الإخوان، ح ١.

(واصطنعتك لنفسي)^(١) [طه : ٤١]

الصناعة الإلهية للإنسان

أهمية الطفولة:

من المعلوم أن فترة الطفولة لدى الإنسان هي أطول من كل الكائنات الحية، وما ذلك إلا لينال التربية الكاملة والكافية التي تؤهله لممارسة دوره كخليفة لله تعالى في أرضه وليستطيع بناء كل قواه البدنية والعقلية والفكرية والنفسية حتى يتمكن من تلقي التشريف الإلهي ويبلغ سن التكليف الذي يتأخر عن السنة التاسعة عند الإناث وأكثر من ذلك عند الذكور.

ولاشك أنه كلما تتوفر للإنسان عوامل أقوى لتربيته وبنائه فإن فرصته لبلوغ الكمال والرقى أفضل وأوسع، وكلما كان الدور المناط بالشخص والمسؤولية التي سيضطلع بها أهم وأوسع، كان نوع المربي المطلوب متصفاً بكمالات أرقى.

التربية الإلهية:

ولما كان رسول الله ﷺ أكمل البشر وأفضلهم ومعداً لأداء أعظم الرسالات الإلهية، فلم يكن هناك من هو جدير بتربيته وتأديبه، لذا تكفل الله

(١) الكلمة التي ألقاها سماحة الشيخ العنقوبي (دام ظله) على أساتذة وطلبة مدرسة الإمام الجواد

عليه السلام الدينية في النجف الأشرف يوم الثلاثاء ١٥/٢/١٤٣٤ المصادف ٢٦/٢/٢٠١٣.

تبارك وتعالى بذلك، قال ﷺ: (أدبني ربي فاحسن تأديبي)^(١) وعنه ﷺ (أنا أديب الله وعلي أديبي)^(٢).

وفي نهج البلاغة يصف أمير المؤمنين ﷺ هذه الصناعة بقوله (ولقد قرن الله به ﷺ من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره)^(٣).

وأرقّ تعبير وألطفه وأعظمه لهذه الفكرة هو ما ورد في القرآن الكريم في حق نبي الله تعالى وكليمه موسى ﷺ، قال تعالى: (وَلْتَصْنَعْ عَلَيَّ عَيْنِي) (طه/٣٩) وقال تعالى: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) (طه/٤١)، حينما يحظى الإنسان بلحظة من العناية الإلهية والألطف الإلهية فإنها تغنيه وتكفيه، فكيف بمن يُصنع كله بعين الله تعالى ورعايته ولطفه، وليس هذا فقط بل يصطعنه لنفسه خالصاً مخلصاً ليحمل رسالته الكريمة إلى البشرية فليس له نظرٌ إلى ما سوى الله تبارك وتعالى، ولا يطمع فيه أحد من شياطين الجن والإنس، والصنع كما في المفردات (إجادة الفعل) أما الاصطناع فإنه (المبالغة في إصلاح الشيء)^(٤).

نتيجة الاصطفاء الإلهي:

وكانت النتيجة أن يكون موسى ﷺ مخلصاً لله تبارك وتعالى نبياً رسولاً من أولي العزم ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً

(١) البحار: ج ٦٨ ص ٣٨٢.

(٢) ميزان الحكمة: ٨٠/١.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة، ١٩٢ المسماة بالقاصعة.

(٤) المغردات: ص ٢٨٦.

نَبِيًّا ﴿مريم / ٥١﴾، هكذا تتدخل الألفاظ الإلهية في صناعة الأفاض المؤمنين للأدوار العظيمة، والمستحقين للمقامات السامية، ومنهم أهل البيت عليهم السلام، فقد أراد الله تعالى أن يكونوا معصومين مطهرين مخلصين له تبارك وتعالى، قال تعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) (الأحزاب/ ٣٣) وإذا أراد الله شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، ولا رادّ لقضائه.

هل تساءل أحد كيف يمكن أن توجد مثل خديجة بنت خويلد التي لُقِّبت بالسيدة الطاهرة في ذلك المجتمع الجاهلي المملوء بالجرائم والموبقات والمفاسد التي لم يسلم منها إلا الأندرون كجد النبي صلى الله عليه وآله وأبويه وعمه وابن عمه؟ وهل يوجد تفسير لذلك إلا الصناعة الإلهية لتلك القديسة الطاهرة؟.

وهكذا يجد من يراجع سير العظماء ان يداً من وراء الغيب تتولى أمرهم وتصنعهم بحب وشفقة واثقان لتعدّهم للدور الكبير الذي يراد لهم.

كيف نثال الاصطفاء الإلهي؟

والذي يهمنّا من ناحية عملية هو هل يمكن أن نحظى بهذه الألفاظ الإلهية ونكون ممن يصنعهم الله تعالى على عينه ويصطنعهم لنفسه بدرجة من الدرجات؟ ومن الواضح اننا نتحدث هنا عن التربية الإلهية الخاصة، لأن العامة شاملة للجميع، فهو تبارك وتعالى (رب العالمين) و(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) (هود/ ٥٦). والجواب واضح بإمكان ذلك إذ أن الله تبارك وتعالى لا بخل في ساحته - كما قيل - ولا يحتجب عن خلقه، إلا أن تحجبهم الذنوب دونه - كما في الدعاء.

والسؤال الأهم في كيفية تحصيل ذلك، ويمكن ان نستفيد معنيين من نفس الآيات الشريفة.

الأول: من نفس الآية الأولى (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) (طه/٣٩) فالطريق أن تحب الله تعالى ويحبك الله تعالى، وقد شرحنا علامات هذا الحب المتبادل وطريقة تحصيله في قبس مفصل^(١)، وورد في كلمات الحكماء (إن الله إذا أحب عبداً تفقده كما يتفقّد الصديق صديقه)^(٢).

الثاني: من الآية الثانية (فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) (طه/ ٤٠-٤١) فعندما يكون الإنسان ذا همّة عالية وطموح كبير للعمل في إعلاء كلمة الله تعالى ونشر علوم أهل البيت عليهم السلام واصلاح النفس والمجتمع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الله يستخلصه لنفسه وسيصلح شأنه ويتولاه بنفسه ويعينه على هذه الرسالة ويؤهله لأدائها.

ما يوجب الصناعة الإلهية:

ويستفاد من الروايات الشريفة ما يوجب تلك الألفاف الإلهية.

(منها) صحيحة أبان بن تغلب عن أبي جعفر الباقر عليه السلام -في حديث- (إن الله جلّ جلاله قال: ما يتقرب إلي عبدٌ من عبادي بشيء أحبُّ إليّ مما افترضت عليه، وإنه ليتقرب إليّ بالنافلة حتّى أحبّه، فإذا أحبّته كنت سمعته الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني

(١) من نور القرآن: ج ٢.

(٢) مفردات الراغب ص ٣٢١.

أحبته، وإن سألتني أعطيته^(١).

(منها) ما في الحديث القدسي (أيما عبد اطلعتُ على قلبه فرايت الغالب عليه التمسك بذكرى تولّيتُ سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه)^(٢).

(ومنها) ما في الحديث الشريف: (ما يتقرب إلى عبد من عبادي بشئ أحبّ إلىّ ممّا افترضتُ عليه وإنّه ليتقرب إلىّ بالنافلة حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت اذا سمعته الذي يسمع به ، و بصره الذي يبصر به ، و لسانه الذي ينطق به ، و يده التي يبطش بها ، إن سألتني أعطيته)^(٣).

وفي البحار عن إرشاد الديلمي وغيره (فمن عمل برضائي ألزمه ثلاث خصال: أعرّفه شكريّ لا يخالطه الجهل، وذكرأ لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين).

فإذا أحببني أحببته، وأفتح عين قلبه إلى جلالتي، ولا أخفي عليه خاصّة خلقي، وأناجيّه في ظلم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي، وأعرّفه السر الذي سترته عن خلقي، والبسه الحياء حتى يستحي منه الخلق كلهم، ويمشي على الأرض مغفوراً له، وأجعل قلبه واعياً وبصيراً، ولا أخفي عليه شيئاً من جنة ولا نار، وأعرّفه ما يمرُّ على الناس في القيامة من الهول والشدة، وما أحاسب به الأغنياء والفقراء والجهّال

(١) وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، أبواب اعداد الفرائض ونوافلها، باب ١٧، ح ٦.

(٢) البحار: ج ٩٠ ص ١٦٢.

(٣) الكافي: ج ٢ ص ٣٥٢ ح ٨.

والعلماء، وأنوّمه في قبره، وأنزل عليه منكراً ونكيراً حتى يسألاه، ولا يرى غم الموت وظلمه القبر واللحد وهول المطّلع، ثم أنصب له ميزانه وأنشر ديوانه، ثم أضع كتابه في يمينه فيقرؤه منشوراً ثم لا أجعل بيني وبينه ترجماناً، فهذه صفات المحبين^(١).

الدعاء يوصل الى الصناعة الإلهية:

ولا شك أن الدعاء وطلب معالي الأمور يوشك أن يوصل إلى ذلك فليجتهد العبد في الطلب والدعاء، من دعاء الإمام السجاد عليه السلام في طلب مكارم الأخلاق^(٢) (واصلحني بكرمك وداوني بصنعك) وورد في دعائه عليه السلام الذي أوله (يا من تحلّ به عقد المكاره)^(٣) (وأذقني حلاوة الصنع فيما سألت) ومن دعائه عليه السلام في طلب العفو (اجعني... وخلصته بتوفيقك من ورطات المجرمين، فأصبح طليق عفوك من أسار سخطك، وعتيق صنعك من وثاق عدلك)^(٤).

خصوصاً أنتم معاشر الشباب ما دتم في مستقبل العمر وبداية الطريق لصناعة مستقبلكم المعنوي والمادي، فاسألوا الله تعالى أن يختاركم لأعظم الأدوار وأرقى المسؤوليات وأن يصنعكم بيده سبحانه لأدائها، وواظبوا على طلب ذلك بإخلاص ولسوف يعطيكم ربكم ذلك كما حكى سبحانه عن عباد الرحمن أن من دعائهم (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) (الفرقان/٧٤).

(١) البحار: ج ٧٤ ص ٢٩.

(٢) مفاتيح الجنان: ص ١٠٥.

(٣) السابق: ص ١٤٨.

(٤) الصحيفة السجادية، من دعائه عليه السلام في طلب العفو والرحمة: ص ١٧٠.

(يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم)^(١)

[الحديد : ١٢]

أهمية المسبحات:

سورة الحديد من السور المباركة التي كان يهتم بها رسول الله ﷺ، وروي انه ﷺ كان حينما يأوي إلى فراشه للنوم يتلو سور المسبحات^(٢)، وهي السور التي تبدأ بكلمات التسييح، وأولها سورة الحديد ومعها سورة الحشر والصف والجمعة والتغابن وهي في الجزء الثامن والعشرين من المصحف الشريف.

وروى العلامة الطبرسي في مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: من قرأ المسبحات كلها قبل ان ينام لم يمت حتى يدرك القائم عليه السلام وان مات كان في جوار رسول الله ﷺ^(٣).

(١) من حديث سماحة المرجع العقبوي (دام ظله) مع حشد من طلبة الجامعات و المعاهد في البصرة وذي قار ووفود من ناحية الفجر في ذي قار والمعامل في بغداد يوم السبت

٢٦/ربيع ١٤٣٤هـ المصادف ٢٠١٣/٣/٩.

(٢) أنظر مستدرک الوسائل: ج ٤ ص ٢٨٩.

(٣) مجمع البيان ٣٤٥/٩.

سورة الحديد ومحاسبة النفس:

وسورة الحديد من السور النافعة في الموعظة وترقيق القلب، فإدامة تلاوتها قبل النوم يساعد على إجراء المراجعة مع النفس في نهاية كل يوم، وهي المحاسبة التي أمرنا المعصومون عليهم السلام بها، وقالوا في ذلك (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم)^(١) فمن يحاسب نفسه كل ليلة يكون منهم ومعهم (صلوات الله عليهم أجمعين) وهذا أحد وجوه تفسير الحديث السابق في ثواب قراءة المسبحات.

معاني الآيات والموعظة منها:

ونأخذ منها اليوم مقطعاً يعطينا قاعدة في السلوك المعنوي خصوصاً لكم أيها الشباب الجامعيون ونستقي منه أيضاً درساً في الموعظة يعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، ذلك اليوم المهلول الذي ورد وصفه في القرآن الكريم بأوصاف مذهلة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الحديد : ١٢] يستعرض المشهد مقارنة بين حالي المؤمنين و المنافقين وحواراً، اما المؤمنون والمؤمنات فانهم ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ﴾ في ذلك اليوم الذي تنكسف به الشمس وتنكدر النجوم وتكون الجبال كالقطن المنفوش وتشتد الظلمات بعضها فوق بعض، يلطف الله تعالى بالمؤمنين والمؤمنات فيوفرّ لهم نوراً يسعى بهم الى الجنة والسعادة، والسعي هو السير الحثيث فهو يسرع بهم الى الجنة، ولما كان النور ينبعث منهم، فإنهم في

(١) وسائل الشيعة: باب وجوب محاسبة النفس كل يوم وملاحظتها وحمد الله على الحسنات

وتدارك السيئات، ح ١، ج ١٦ ص ٩٥.

الحقيقة هم الذين يسعون لأنهم مصدر النور، ونسب السعي إليه لأنه يتقدمهم.

﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ هذا النور ينبعث من امامهم ومن ايمانهم، ولعل الذي من امامهم هو نور الايمان و عقائدهم الحق في التوحيد والنبوة والإمامة، لذا ورد في الكافي بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام عن النور قال عليه السلام (أئمة المؤمنين يوم القيامة تسعى بين يدي المؤمنين وبإيمانهم حتى ينزلوهم منازل أهل الجنة)^(١)، ولعله نور ذواتهم الطيبة المحبوبة عند الله تعالى، أما النور من يمينهم فهو نور أعمالهم الصالحة حيث يؤتى المؤمن كتابه بيمينه (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً) ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةً ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ (الحاقة ١٩-٢٤).

(بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) وما دامت هذه عاقبتهم، فإنها بشرى حقيقية ويستحقون التهنتة على هذا الفوز العظيم وما أعظمه من فوز ومن خاتمة حسنة في تلك الحياة الخالدة.

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) هذه هي الصورة المقابلة للبائسين الخاسرين من المنافقين والمنافقات فإنهم في ظلمات وخوف ورعب وعذاب وألم، فالتفتوا إلى المؤمنين والمؤمنات وهم في ذلك العيش الرغيد وطلبوا منهم أن يلتفتوا إليهم ويسعفوهم بقبس من النور يخفف عنهم بعض الأهوال.

(١) الكافي: ١٥١/١ ح ٥.

(قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) فجاءهم الجواب إنّ الفرصة قد فاتت الآن لتحصيل النور لأنه حصيلة أعمالكم التي اكتسبتموها في الدنيا، فكان عليكم أن تلتفتوا إلى هذه الحقيقة في الدنيا فتؤمنوا وتعملوا الصالحات لتتحول إلى نور في هذا اليوم، فإن استطعتم أن ترجعوا إلى الدنيا لتحصيل النور، وذلك مستحيل (وَلَا تَحِينَ مَنَاصِي) (ص:٣).

(فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ) ففصل بينهم بجدار عازل كما كانوا في الدنيا منفصلين ومتباينين في سلوكهم واعتقاداتهم ونظرتهم إلى الحياة، وإن كانوا متعايشين في مجتمع واحد وبيئة واحدة فحُجِّدَت تلك المباشرة بسور عازل (له باب) لينظر بعضهم إلى بعض من خلاله وليجري بينهم هذا الحديث وليقارن كل من الفريقين حاله مع حال الآخر فيزداد المؤمنون والمؤمنات شكراً لله تعالى على ما انعم، والمنافقون والمنافقات أليماً وحسرة وندامة على ما فرطوا في أمر آخرتهم.

(بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) صفة هذا السور أن ما بداخله الرحمة والسعادة والعيش الهنيء وهو محل المؤمنين، أما خارجه فالعذاب والوحشة والخوف والألم وهو محل المنافقين والمنافقات، ومثاله المدن في ذلك الزمان عندما كانت تحاط بسور متين يحميها من هجمات الأعداء والصوص والمحتلين والمجرمين، فتجد داخل المدينة البيوت المريحة والشوارع المنظمة والأسواق العامرة والمياه العذبة وسائر أسباب الرفاهية، أما خارجها فالصحراء والوحشة والمخاطر والجوع والظمأ والخوف، وهذا مثال حال يوم القيامة.

(يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) وحينئذ نادى المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات، وعبر بالمناداة وليس (قالوا) ونحوها للبينونة البعيدة بينهما ولم تكن مواضعهم متقاربة، فخاطب المنافقون المؤمنين الذين يعرفونهم أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ في مدينة واحدة وجامعة واحدة ودائرة واحدة ومجتمع واحد بل ربما في بيت واحد كنا نعيش سوية فلماذا حصل هذا التفاوت العظيم بيننا.

ويظهر من بعض الروايات ان المراد بهم المنحرفون عن ولاية أهل البيت عليه السلام، عن الإمام الباقر عليه السلام (فيناديكم أعداؤنا وأعداؤكم من الباب الذي في السور ظاهره العذاب: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ في الدنيا، نبينا ونبيناكم واحد، وصلاتنا وصلاتكم واحدة، وصومنا وصومكم واحد، وحجنا وحجكم واحد).^(١)

(قالوا بلى) فأجاب المؤمنون نعم كُنَّا هكذا سوية بأبداننا لكن أرواحنا وعقائدنا وسلوكياتنا كانت متباعدة ومتباينة، ولنضرب مثلاً من واقعكم أنتم الشباب الجامعي فأنتم الموجودون هنا تأتون إلى زيارة أمير المؤمنين عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام وتستمعون إلى المواعظ والتوجيهات بينما ذهب آخرون من زملائكم إلى حيث اللهو والعبث والمجون، فيوجد انفصال بينكم في السلوك والرؤى وهذا هو الذي جسّد هذا التفاوت بيننا يوم القيامة.

(ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور) ومن هنا يبدأ تعداد الأسباب التي جعلت مساراتنا في الحياة الدنيا متباينة، انكم فتنتم أنفسكم واتبعتم الشهوات وسرتم وراء

أهوائكم من دون بصيرة وتعقل واتباع لشرائع الله تعالى.
 (وتربصتم) إذ كنتم تترقبون زوال الدين والقضاء على أهله وإسكات
 صوت الحق الذي كان يقض مضاجعكم ويسبب لكم ألماً باطنياً ووخز الضمير.
 (وارتبتم) حيث كنتم تشككون بالعقائد والأحكام الإلهية وتثيرون
 الشكوك والشبهات حولها لتجعلوا لأنفسكم مبررات لعدم الالتزام بها، وتفاقم
 ارتيابكم ليشمل حتى أقدس المقدسات كما نسمع اليوم من بعض أدعياء الحداثة
 تشكيكات في أصل نبوة النبي محمد ﷺ وكون القرآن نازلاً من الله وهم
 مسلمون!!!

(وغرّكم الأمانى) خدعتكم وعود الشيطان وأوليائه وعبيده بدنيا مزيفة
 وأموال ومواقع وشهوات ونحوها.
 (حتى جاء أمر الله) حتى فاجأكم الموت وطويت صفحة أعمالكم
 وانقطعت عنكم فرصة التدارك والتعويض والإصلاح والمراجعة.
 (وغرّكم بالله الغرور) ونجح الشيطان بخداعكم والمكر والتغير بكم
 وأنتم تتحملون المسؤولية باتباعكم إياه رغم التحذير الشديد من قبل الله تعالى
 (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا) (الإسراء/٥٣) (وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)
 (البقرة/١٦٨).

(فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ
 مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) وكانت هذه النتيجة الحتمية لسوء أعمالهم أن يجتمعوا
 مع الكفار في النار والعذاب الأليم لأنها هي الأولى بهم والأليق لخبثهم حتى

تطهرهم النار وتزيل أدرانهم.

وهنا يلتفت الله تعالى إلى المؤمنين والمؤمنات ويخاطبهم بعتاب رقيق وتساؤل ملؤه الحنان والشفقة بأن يستفيدوا من هذه المواعظ ويطهروا بها قلوبهم ويهذبوا أنفسهم، وإلا فإنها تقسو وتسود بطول الأعراض عن الموعظة وذكر الله تعالى والانغماس في الملذات واللهاث من أجل التوسع في الدنيا، حتى يطبع عليها فلا تنفع معها موعظة والعياذ بالله تعالى (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (الحديد/١٦).

قدّمت لكم هذا النموذج مما أدعو إليه من التفسير المبسّط للقرآن الكريم الذي يعيننا على التدبّر في آياته من دون الحاجة إلى الكتب المعمّقة في التفسير.

قاعدة مهمة في السير إلى الله تعالى:

وأريد أن أركّز من خلاله على الوصف الذي ورد في المقطع (باطنه فيه الرّحمة وظاهره من قبله العذاب) فهذه قاعدة مهمة في السلوك المعنوي إلى الله تعالى، وهي الالتفات إلى حقائق الأمور لاتخاذ المواقف الصحيحة، وعدم الانخداع بالظاهر وبناء القرارات عليه.

فإن كثيراً من الأفعال والمواقف تبدو في ظاهرها لذيدة ممتعة إلا أنّها تستبطن الشقاء والعذاب والألم، وعلى العكس من ذلك فإن بعضاً آخر منها يبدو ظاهره متعباً مكروهاً إلا أن حقيقته السعادة والنعيم، لذا ورد في الحديث (حُفَّتْ

الجنة بالمكافئ والنار بالشهوات^(١).

أمثلة للشباب:

ولنأخذ أمثلة من واقعكم الشبابي الجامعي، فإن البعض قد يتصور أن إقامة علاقات غير مشروعة مع الجنس الآخر فيها لذة ومتعة وسعادة ولكن الحقيقة خلاف ذلك لأن المجتمع سيرفضهما خصوصاً البنت وسيؤثر ذلك على مستقبلها وتسبب تلك العلاقة شقائها، وربما بعض ردود الأفعال المؤلمة، هذا في الدنيا أما ما بعد الموت وفي الآخرة فسيعيشون حالة الألم والندامة والعذاب.

والمثال الآخر بعض الشباب المهووسين بالسفر إلى بلاد الغرب ليعيش حياة مرفهة سعيدة لكنه يضيع دينه وأسرته وتكون زوجته وأولاده متمردين عليه وخارجين عن إرادته بسبب القوانين المعمول بها هناك.

ومن أمثلتها من يلتحق بجهة سياسية أو دينية أو اجتماعية من دون أن يتحقق من إخلاصها واستقامة سيرتها ومصداقيتها في العمل بما يرضي الله تعالى، يغرونها بمواقع النفوذ وتحصيل المال والامتيازات فتزل قدمه ويتعد عن جادة الاستقامة وتكون عاقبته زلل قدمه عن الصراط.

فهذه كلها أمور ظاهرها أنيق وفيها الراحة والدعة والترف والانسحاق مع التيار العام إلا أن عاقبتها وخيمة.

وفي مقابل ذلك توجد نماذج أخرى كتعرض الفتاة الجامعية المحجبة العفيفة إلى ضغط اجتماعي بأن مظهرها غير أنيق وانها متخلفة أو معقدة

(١) بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ٧٢.

ونحوها من الأوصاف الاستفزازية.

وكذا الشاب الذي يلتزم بالمظهر المهندّب أو يلتزم بالآداب والأحكام الشرعية فيضغط عليه بنفس الطريقة ليستسلم وينهار وينساق معهم، وربما يتبارى زملاؤه الفسّاق في استدراجه معهم وإنهاء مقاومته.

أو الموظّف الأمين الملتزم الذي لا يخون الأمانة التي تحت يده فإنه يعاني من استفزاز أقرانه وانه سوف لا يستطيع أن يعيش كأقرانه ويبقى في الحضيض ولا يتقدم، وما ذلك إلا لحسدهم إياه على سمّوه وعجزهم وضعفهم عن الوصول إلى قمّته.

أو محاولة البعض لثني الملتزمين بالدين -كالصوم في الأيام الحارة أو القيام في الليل البارد للعبادة ونحوها - عن عمله وإيجاد المبررات لتترك العمل. فهذه كلها أمور قد تبدو مكلفة ومتعبة وتحتاج إلى صبر ومصابرة وتحمل للمكاره، إلا أن فيها الفوز والفلاح وحسن الخاتمة.

الاختبار مستمر في الدنيا:

وهذا الاختبار مستمر ما دمنا في الحياة الدنيا، والنجاح فيه يكشف عن الفوز في الآخرة، وستجلى هذه الحقيقة بوضوح في عصر الظهور، ففي الرواية (يخرج الدجال عدو الله ومعه جنود من اليهود وأصناف الناس ، معه جنة ونار ورجال يقتلهم ثم يحييهم ، ومعه جبل من ثريد ونهر من ماء . وإني سأنت لكم نعتة إنه يخرج ممسوح العين في جبهته مكتوب كافر يقرأه كل من يحسن الكتاب ومن لا يحسن، فجنته نار وناره جنة، وهو المسيح الكذاب ، ويتبعه من نساء اليهود

ثلاثة عشر آلاف امرأة فرحم الله رجلا منع سفيهه أن يتبعه ، والقوة عليه يومئذ القرآن فإن شانه بلاء شديد ، يبعث الله الشياطين من مشارق الأرض ومغاربها فيقولون له استعن بنا على ما شئت^(١).

فالالتفات إلى القاعدة التي ذكرناها يعين على النجاح في تلك الاختبارات وبناء مستقبل معنوي متكامل بلطف الله تبارك وتعالى، وإنما سميناهم قاعدة لأنها تعطي رؤية ترمج حياة الإنسان وتنظم أموره والله المستعان.

(١) (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)

[العصر : ٣]

أهمية سورة العصر:

سورة (العصر) قصيرة جداً في كلماتها لا تتجاوز السطرين لكنها عظيمة في فضلها، خطيرة في مضمونها، وإنها مظهر من مظاهر إعجاز القرآن حينما يُقدّم في سطر واحد منهجاً متكاملًا لنجاح البشرية من أوّل الخلق إلى نهايتها ويعرّف هويّة الأمة الرابحة الفائزة ويعلمها وظائفها في هذا السطر.

روى الشيخ الصدوق بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (من قرأ (والعصر) في نوافله بعثه الله يوم القيامة مشرقاً وجهه ضاحكاً سنّه، قريرة عينه حتّى يدخل الجنة)^(٢)، ولأهمية ما جاء فيها فقد ورد أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله كانوا إذا اجتمعوا لا يفرقون إلّا بعد تلاوة سورة (والعصر) ويتذاكروا في مضامينها^(٣).

معنى (إنّ الإنسان لفي خسر):

يبتدئ الله تبارك وتعالى السورة بالقسم (والعصر) بمعانيه المختلفة كما

(١) كلمة سماحة المرجع العقبوبى (دام ظله) مع جمع من منتسبى هيئة الحج والعمرة فى بغداد والمحافظات يوم الخميس ٢/ج/١٤٣٤ الموافق ٢٠١٣/٣/١٤.

(٢) ثواب الأعمال: ١٢٥.

(٣) الدر المنثور: ٣٩٢/٦.

وردت في التفاسير، فيقسم الله عز من قائل -وهو أصدق القائلين- لتأكيد الكلام ولإثارة انتباه المخاطب إلى الحقيقة التي سيقولها، لأنها حقيقة خطيرة (إنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ) ليس الإنسان بحسب تكوينه وأصل خلقته، لأنَّه خُلِقَ للكمال وللمعرفة بالله تعالى ولا إخلاص الطاعة له سبحانه والاستقامة على ما أراد منه، لذلك أسجد له ملائكته وقال تعالى (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة/٣٠)، فليس الإنسان بالحمل الأولي -كما في المصطلح- هو في خسر، بل الإنسان الموجود على أرض الواقع أي بلحاظ سلوكه وسيرته أي أفراد الإنسان ومصاديقه بالحمل الشائع -كما في المصطلح- الذي يخالف فطرته حينما يخرج إلى هذه الدنيا وينسى عهده مع ربه الذي واثقه عليه ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف ١٧٢.

فهذا الإنسان الذي خلق للسمو والتكامل، تراه ينحدر ويتسافل ويعرض عن ذكر ربه، فيخسر رأس ماله وكل القوى التي زودها الله تعالى بها لتحقيق الغرض المنشود من حياة ووجود وعقل وفكر وبدن وثروة وجاه وعلاقات وأسرة وعشيرة وموقع وغيرها، حتَّى الأشياء البسيطة الدقيقة التي يمكن أن تُكتسب بها الجنان (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) الزلزلة ٧، كتسبيحة أو ذكر مع كل شهيقة وزفير و في كل طرفة عين.

وإذا به على العكس يسخرها للشقاء والعذاب، فإذا هو فعلاً (في خسر)، بل خسر عظيم، قال تعالى ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ

الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿الزمر ١٥﴾، كمن يزود برأس مال عظيم وتوفر له كل فرص النجاح والاستثمار وتقدم له كل معونة والتسهيلات في السوق، لكنه بحماقته وضيق نظره يخسر كل ذلك، عن الإمام الهادي عليه السلام (الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون)^(١).

ثمن النفس هو الجنة:

هذه الصفقة التي أنشأها الله تعالى مع عباده (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ) (التوبة / ١١١) فلا ثمن لهذه النفس إلا الوفاء بهذه الصفقة، عن أمير المؤمنين عليه السلام: (إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها)^(٢).

والتعبير يمزج مع التحذير والتهديد والتوبيخ استغراباً وعتاباً، لأن الله تعالى خلقهم للرحمة والسعادة والفوز وأعطاهم كل ما يوصلهم إلى هذه النتيجة من أسباب معنوية ومادية قال تعالى (إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (هود ١١٩)، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله (يقول الله تعالى: يا ابن آدم، لم أخلقك لأربح عليك، إنما خلقتك لتربح عليّ، فاتخذني بدلاً من كل شيء، فإني ناصر لك من كل شيء)^(٣).

(١) بحار الأنوار: ٣٦٦/٧٢ ح ١، تحف العقول: ٣٦١.

(٢) نهج البلاغة: قصار الكلمات، رقم ٧٤.

(٣) ميزان الحكمة: ٣٣٤/١ الحديث ١٦٠٤ عن شرح نهج البلاغة: ٣١٩/٢٠، ٦٦٥.

لماذا يحصل الخسران؟

فلماذا يخسرون كل ذلك بتوظيفه في عكس الهدف الذي خلقوا من أجله ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (يس ٣٠)، لذلك يسجل القرآن الكريم استغرابه من دخول أهل النار إليها، قال تعالى ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ المدثر ٤٢، ولم يسجل استغرابه من دخول أهل الجنة فيها لأن وجودهم على القاعدة ومع الهدف الذي خلقوا من أجله.

والمرعب في هذه الحقيقة إطلاقها وعمومها (إن الإنسان) مطلقاً فتكون كقوله تعالى (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) (مريم/٧١-٧٢).

المستثنون من الخسران:

نعم استثني من هذه النتيجة المهولة بعض توفرت فيه أربع خصائص مجتمعة:

١- (إلا الذين آمنوا) واعتقدوا صدقاً وإخلاصاً بكل العقائد الحقّة بتوحيد الله تعالى والرسالة للنبي ﷺ وولاية أمير المؤمنين والأئمة المعصومين عليهم السلام وسائر العقائد الحقّة.

٢- (وعملوا الصالحات) لأن الإيمان لا يكون حقيقياً وصادقاً إلا أن يظهر إلى الخارج بعمل صالح يكون موافقاً لما يريد الله تبارك وتعالى.

وهذا المقدار مفهوم وواضح وذكرته آيات عديدة، لكن الأهمية والخطورة التي أشرنا إليها في هذه السورة هي فيما أضافته الآية من شرطين للفوز والنجاة من الخسران، حيث لم تكفي بالركنين السابقين، وهما:

٣- (وتواصوا بالحق) فلا يكتفون بكونهم صالحين في أنفسهم مؤمنين يعملون الصالحات بل يتحركون برسالتهم في المجتمع فيوصي بعضهم بعضاً بالترام الحق والعمل به، والتعبير بالتواصي يتضمن معنى الإستمرارية والتواصل، والحق الذي يتواصون به له مساحة واسعة، فكل خير وكل ما هو مثمر وكل ما يوصل إلى الله تبارك وتعالى ويعين على طاعته ويجنب معصيته هو حق فيتواصون به.

وهذا له مدى واسع فيشمل الدعوة إلى الله تبارك وتعالى والإسلام وولاية أهل البيت عليه السلام ونشر فضائل أهل البيت عليه السلام ومظلوميتهم من الأعداء، ونشر أحكام الدين وتقديم النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحقوق التفصيلية الكثيرة كالتى تضمنتها رسالة الحقوق للإمام السجاد عليه السلام. ولا بد لمن يقوم بهذه الوظيفة أن يكون ملتفتاً قبل ذلك إلى نفسه فيتعاهد بها ويتواصى معها ويشارطها على الهدى والصلاح والثبات، لأنها أعز وأثمن من يتواصى معه.

إن الحق إذا لم يتم التواصي به والتواصل معه جيلاً بعد جيل وبين عامة الجيل الواحد أي التحرك به أفقياً وعمودياً فإنه يضع كما ضاعت حقوق كثيرة وعلى رأسها حق الإمامة وولاية أمر الأمة لأمر المؤمنين عليه السلام وأولاده المعصومين (سلام الله عليهم أجمعين).

قال الإمام الصادق عليه السلام: (إن حقوق الناس تثبت بشهادة شخصين، وقد أنكر حق جدّي أمير المؤمنين عليه السلام وعليه سبعون ألف شاهد كانوا مع رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي غدير خم^(١).

٤- (وتواصوا بالصبر) فَإِنَّ من يسير بهذا الطريق الذي تخلى عنه أكثر الناس وأصبحوا ينظرون إليه بازدراء وسخرية سيلقى الكثير من المشقة والعنت والأذى وسيطلب منه تضحية كثيرة بأعز ما لديه فيحتاج إلى صبر ومصابرة ومرابطة وثبات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ آل عمران ٢٠٠، فيوصي هؤلاء الثلاثة القليلة بعضهم بعضاً بالصبر والمضي على هذا النهج المقدس المبارك.

إصلاح الآخرين:

إِنَّ الحقيقة الخطيرة التي أضافتها هذه السورة المباركة أن الإيمان والعمل الصالح على مستوى النفس غير كافٍ للفوز وللنجاة من الخسران الشامل لأفراد الإنسان، بل لابد أن ينضم له التحرك بهذه الوظيفة في المجتمع والاستمرار على ذلك والثبات عليه وتحمل أعبائه.

وبتعبير مختصر أنّ صلاح الفرد الشخصي لا يكفي من دون أن يضم له العمل على إصلاح الآخرين، وهي مسؤولية كبيرة لكن منزلتها عظيمة لا مكان فيها للمتقاعس والمتكاسل الذي لا يكثر بما يعجّ به المجتمع من مفسد وظلم وانحراف وضلالات وشبهات وخرافات وجهل وغير ذلك.

حينئذٍ يتحقق صلاح الفرد وصلاح المجتمع أيضاً، ونجاة الفرد ونجاة المجتمع وعزّتهما معاً بفضل الله تبارك وتعالى.

(١) بحار الأنوار: ١٥٨/٣٧ باب ٥٢.

التواصي بالحق والتواصي بالصبر:

وإذا قابلنا هذه الآية مع الآيتين المتقدمتين من سورة ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا﴾ [مريم: ٧٢] نحصل على تعريف للتقوى فتكون حقيقتها الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر بمقتضى المطابقة وتحقيق ما تحصل به النجاة من النار والخسران.

رو هذه الحقيقة طبيعية لأن الإيمان يدعو إلى العمل الصالح، والعمل الصالح لا يعرف الإنزواء والجمود والتقوقع، وإنما يدعو للحركة المثمرة لهداية الآخرين وإرشادهم ونصحهم ومساعدتهم، فإن من أعظم الأعمال الصالحة ما كانت مندرجة في هذه الحركة الاجتماعية لذا ورد في بعض الروايات تفسير عمل الصالحات بمواساة الإخوان^(١).

إن مسؤولية التواصي بالحق والتواصي بالصبر لا تختص بالمبلغين والمرشدين من الحوزة العلمية بل هي شاملة لكل الناس خصوصاً مع توفر سبل الهداية وقنوات الإصلاح والتأثير لكل العاملين على شبكات المعلومات وصفحات التواصل الاجتماعي والفضائيات.

(١) كمال الدين وإتمام النعمة: ٦٥٦ ح ١.

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً)^(١)

[النساء: ١٠٣]

لا تنال شفاعتنا مستخفاً بالصلاة:

في ذكرى استشهاد الإمام الصادق (عليه السلام) نتوقف عند آخر وصية له (عليه السلام).

عن أبي بصير قال: دخلت على أم حميدة أعزّيها بأبي عبد الله (عليه السلام)، فبكت وبكيت لبكائها، ثم قالت: يا أبا محمد، لو رأيت أبا عبد الله (عليه السلام) عند الموت لرأيت عجباً، فتح عينيه ثم قال: (اجمعوا كل من بيني وبينه قرابة، قالت: فما تركنا أحداً إلا جمعناه، فنظر إليهم ثم قال: إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة)^(٢).

ويظهر أن هذه وصية النبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته جميعاً، روي عن زرارة عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) (قال: لا تتهاون بصلاتك، فإن النبي (صلى الله عليه وآله) قال عند موته: ليس منّي من استخفّ بصلاته، ليس منّي من شرب مسكراً، لا يرد عليّ الحوض

(١) كلمة سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) في ذكرى استشهاد الإمام الصادق (عليه السلام) يوم ٢٥

شوال/١٤٣٤ الموافق: ٢٠١٢/٩/١٣.

(٢) الوسائل ج ٤ ص ٢٦-٢٧.

لا والله^(١)، بل هي وصية كل الأنبياء (عليهم السلام)، عن الإمام الصادق (عليه السلام) (أحبُّ الأعمال إلى الله عز وجل الصلاة، وهي آخر وصايا الأنبياء)^(٢).
فلا يغتر البعض بما يقال له أنه إذا فعل كذا فقد وجبت له الجنة، أو دخل الجنة بغير حساب مما يكثر منه الخطباء على المنابر من دون ذكر قيوده وشروطه.

أهمية الصلاة:

إنَّ للصلاة أهمية كبرى في الدين ودوراً مهماً في حياة الإنسان ومصيره،
عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) (قال: قال رسول الله (ﷺ): ما بين المسلم وبين أن يكفر إلا ترك الصلاة الفريضة متعمداً أو يتهاون بها فلا يصلّيها)^(٣).

وروي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قوله: (الصلاة عمود الدين، مثلها كمثل عمود الفسطاط، إذا ثبت العمود ثبت الأوتاد والأطناب، وإذا مال العمود وانكسر لم يثبت وتد ولا طناب)^(٤).

وعن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله (ﷺ) إنَّ عمود الدين الصلاة، وهي أول ما يُنظر فيه من عمل ابن آدم، فإن صحَّت نُظر في عمله، وإن لم تصحَّ لم يُنظر في بقية عمله)^(٥).

لذا كان مقياس صلاح الإنسان عند أهل البيت (عليهم السلام) هو اهتمامه

(١) الوسائل ج ٤ ص ٢٣ - ٢٤.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٢١٠/١ ح ٦٣٨.

(٣) الوسائل ج ٤ ص ٤٣.

(٤) الوسائل ج ٤ ص ٢٧.

(٥) الوسائل ج ٤ ص ٣٤ - ٣٥.

بصلاته، عن هارون بن خارجة قال : (ذكرت لأبي عبد الله (عليه السلام) رجلاً من أصحابنا فأحسنت عليه الثناء ، فقال لي : كيف صلاته؟) ^(١).

فضل الصلاة وثوابها:

وقد ورد في فضل المصلي وثواب الصلاة شيء كثير، عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا قام العبد المؤمن في صلاته نظر الله عز وجل إليه ، أو قال : أقبل الله عليه حتى ينصرف ، وأظلمت الرحمة ، من فوق رأسه إلى أفق السماء ، والملائكة تحفّه من حوله إلى أفق السماء ، ووكل الله به ملكاً قائماً على رأسه يقول له : أيها المصلي ، لو تعلم من ينظر إليك ومن تناجي ما التفت ولا زلت من موضعك أبداً) ^(٢). وعن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال : للمصلي ثلاث خصال : إذا هو قام في صلاته حفت به الملائكة من قدميه إلى أعنان السماء ، ويتناثر البر عليه من أعنان السماء إلى مفرق رأسه ، وملك موكل به ينادي : لو يعلم المصلي من يناجي ما انفتل) ^(٣).

وعن الإمام الباقر (عليه السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لو كان على باب دار أحدكم نهر فاغتسل في كل يوم منه خمس مرّات ، أكان يبقى في جسده من الدرن شيء؟ قلنا : لا ، قال : فإنّ مثل الصلاة كمثّل النهر الجاري ، كلّما صلّى صلاة كفّرت ما بينهما من الذنوب) ^(٤)، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (إذا قام

(١) الوسائل ج ٤ ص ٣٢.

(٢) الوسائل ج ٤ ص ٣٢.

(٣) الوسائل ج ٤ ص ٣٣.

(٤) الوسائل ج ٤ ص ١٢.

الرجل إلى الصلاة أقبل ابليس ينظر إليه حسداً، لما يرى من رحمة الله التي تغشاه^(١).

الصلاة التامة:

إن الصلاة التي تكون لها هذه القيمة لا بد أن تكون تامة في أجزائها وشرائطها التي يذكرها الفقهاء في رسائلهم العملية. عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: بينا رسول الله (صلى الله عليه وآله) جالس في المسجد إذ دخل رجل فقام يصلي، فلم يتم ركوعه ولا سجوده، فقال (صلى الله عليه وآله): نقر كنقر الغراب، لأن مات هذا وهكذا صلاته ليموتن على غير دين^(٢).

المحافظة على أوقات الصلوات:

ومن المهم جداً لكي تؤدي الصلاة غرضها المنشود وتحقق منها الآثار المباركة: المحافظة عليها في أوقاتها، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا يزال الشيطان ذعراً من المؤمن ما حافظ على الصلوات الخمس لوقتهن فإذا ضيعهن تجرأ عليه فأدخله في العظام^(٣) وعن الصادق (عليه السلام) - في حديث -: (إن ملك الموت يدفع الشيطان عن المحافظ على الصلاة، ويلقنه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، في تلك الحالة العظيمة)^(٤)، وعن

(١) الخصال: ٦٣٢ ح ١٠.

(٢) الوسائل ج ٤ ص ٣١-٣٢.

(٣) الوسائل ج ٤ ص ٢٨.

(٤) الوسائل ج ٤ ص ٢٩.

النبي (ﷺ) قال (ما من عبد اهتم بمواقيت الصلاة ومواضع الشمس إلا ضمنت له الروح عند الموت، وانقطاع الهموم والأحزان، والنجاة من النار)^(١).

من خطبة لأmir المؤمنين (عليه السلام) في نهج البلاغة انه قال في كلام يوصي أصحابه : (تعاهدوا أمر الصلاة ، وحافظوا عليها ، واستكثروا منها ، وتقربوا بها ، فإنها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سئلوا: (ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين) وإنها لتحت الذنوب حتّ الورق ، وتطلقها إطلاق الربق ، وشبهها رسول الله بالحمّة تكون على باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرّات ، فما عسى أن يبقى عليه من الدرن ، وقد عرف حقها رجال من المؤمنين ، الذين لا تشغلهم عنها زينة متاع ، ولا قرة عين من ولد ولا مال ، يقول الله سبحانه: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) ، وكان رسول الله (ﷺ) نصباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنة ، لقول الله سبحانه ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] فكان يأمر بها أهله ويصبر عليها نفسه)^(٢).

علموا أولادكم الصلاة:

ولأجل أن تصبح الصلاة جزءاً أساسياً من حياة الإنسان لا يستطيع أن يحيا بدونها فقد أمر المعصومون بإلزام الصبيان بالصلاة من وقت مبكر كعمر (٦-٨) سنين بحسب استعداداته الذهنية وفهمه لما يقال له.

(١) بحار الأنوار: ٨٣، ج ٩، ص ٥.

(٢) الوسائل ج ٤ ص ٣٠ - ٣١.

روى محمد بن مسلم: أنه سأل أحد الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) (في الصبي ، متى يصلي؟ فقال : إذا عقل الصلاة قلت : متى يعقل الصلاة وتجب عليه؟ قال : لست سنين)^(١).

ويستغرب الإمام (عليه السلام) من الآباء والأمهات الذين لا يتابعون أداء أطفالهم للصلاة، روى أحدهم قال (سألت الرضا (عليه السلام) أو سئل وأنا أسمع، عن الرجل يجبر ولده وهو لا يصلي اليوم واليومين؟ فقال: وكم أتى على الغلام؟ فقلت: ثماني سنين ، فقال: سبحان الله، يترك الصلاة؟! قال : قلت: يصيبه الوجع، قال: يصلي على نحو ما يقدر)^(٢).

الفرق بين الزاني وتارك الصلاة:

إن المتابع لحال المسلمين -خصوصاً في البلدان المترفة والتي تكون فيها فرص المغريات والشهوات كثيرة- يجد عند كثير منهم إهمال أمر صلاتهم، وعدم الالتزام بها في أوقاتها وهذه قضية حيوية وشيء خطير لا بد من معالجته بالالتفات إلى ما ذكرناه من أهمية الصلاة والعقوبة الغليظة على من ضيعها وأهملها، بحيث لا يُقاس به حتى مرتكب الكبائر كالزنا وشرب الخمر، ويعلّل الإمام الصادق (عليه السلام) ذلك بقوله (لأن الزاني وما أشبهه إنما يفعل ذلك لمكان الشهوة لأنها تغلبه، وتارك الصلاة لا يتركها إلا استخفافاً بها)^(٣).

(١) الوسائل ج ٤ ص ١٨ - ١٩.

(٢) الوسائل ج ٤ ص ٢٠.

(٣) الوسائل: باب ١١، ٢.

حملة لتفعيل الصلاة في حياتنا:

إن من تكليفنا اليوم وفي كل يوم أن نطلق حملة شاملة لإعادة المسلمين إلى صلاتهم بالإقناع أو بالإلزام لمن كانت له سلطة وقيمومة، كالوالدين على أبنائهم، أو إدارات المدارس على الطلبة، وأن نقوم بتيسير السبل لذلك من خلال إنشاء المصليات داخل الجامعات والمدارس والمؤسسات الحكومية، وتفعيل دور المساجد ونحوها من الآليات لتكون ممن تناله شفاعة النبي (ﷺ) والإمام جعفر الصادق (عليه السلام).

لذة الصلاة:

إن من استشعر العبودية لله تبارك وتعالى واعتزَّ بها يجد في الصلاة لذة كبيرة، ولا يجد للحياة طعمًا ولا معنى إذا خلت من الصلاة، ولا يكفي بالصلوات المفروضة لأنه يجد الأوقات بينها كثيرة لا يتحملها بلا صلاة فيتنفل بما يسر الله تعالى له خصوصاً في الليل، فإن ما بين المغرب والفجر وقت طويل.

عن الإمام الصادق (عليه السلام) -لما سُئِلَ عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله - قال: (ما أعلم شيئاً بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة، ألا ترى أنَّ العبد الصالح عيسى بن مريم قال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ [مريم : ٣١])^(١) وعن النبي (ﷺ) قال (ليكن أكثر همك الصلاة، فإنها رأس الإسلام بعد الإقرار بالدين)^(٢).

ولما سأل أبو ذر الغفاري رسول الله (ﷺ) عن الصلاة، قال (ﷺ): (خير

(١) الكافي: ٣/ ٢٦٤، ح ١.

(٢) بحار الأنوار: ١٢٧/٧٧ ح ٣٣.

موضوع، فمن شاء أقلّ ومن شاء أكثر^(١).

ولاشك أن الكلام عن الصلاة لا يستوعبه مجلس واحد، ولكننا أحببنا إثارة أصل الموضوع لأهميته ليكون فاتحة لعمل واسع بإذن الله تعالى، فلنحرص جميعاً على أن نكون ممن أحسن صلاته وأكثرها وحافظ عليها في أوقاتها.

(١) معاني الأخبار: ٣٣٣ ح ١.

(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)^(١)

العنكبوت : ٤٥

شكوى الشباب:

كثيراً ما ألتقي بوفود الشباب وطلبة الجامعات وأستمع إلى أسئلتهم وهمومهم ومشاكلهم، والسؤال الأكثر تردداً هو: كيف نستطيع مقاومة المغريات والشهوات وأساليب الإفساد وهم يعيشون في بيئة مليئة بأسباب الفتنة والإغراء متزامنة مع فورة الشباب وعنفوان القوى وهيجان العواطف.

وفي الحقيقة فإن المشكلة لا تختص بالشباب، فإنه مادام الإنسان في هذه الدنيا فهو مبتلى بالإغراءات والشهوات والفتن ويخوض (جهاداً أكبر) لمواجهتها كما سمّاه النبي ﷺ في الحديث المشهور^(٢)، ويعزز قوة هذه الضغوط الميل العارم للنفس الأمارة بالسوء نحو الاستجابة لها، مع تزيين الشيطان لها (إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمارة وإلى الخطيئة مبادرة وبمعاصيك مولعة) (إلهي أشكو إليك عدواً يضلني وشيطاناً يغويني.. يعاضد لي الهوى ويزين لي حب الدنيا)^(٣).

(١) الكلمة التي تحدت سماحة المرجع العنكبوتي (دام ظله) من خلال شاشة قناة النعيم إلى الآلاف من طلبة الجامعات والمعاهد العراقية المشاركين في فعاليات ومواكب الوعي الفاطمي مساء السبت ٢/٢٠١٤ الموافق ١٣/٤/٢٠١٣.

(٢) معاني الأخبار : ص ١٦٠

(٣) من مناجاة الشاكرين للإمام السجاد عليه السلام.

الصلاة وسيلة للتحصين:

والإنسان في هذه المواجهة يحتاج إلى معونة ومناعة وتحصين كالتطعيم الصحي ضد الأوبئة والأمراض الجسدية، وهذه المعونة يحتاجها الإنسان قبل التعرض للامتحان وأثناءه وبعده، فما هي الوسيلة لتحصيل هذه المعونة والتطعيم والتحصين؟ والجواب بكلمة واحدة إنها (الصلاة)، ومن دلائل عظمة الصلاة إنها هي هذه الوسيلة التي توفر الحصانة والمناعة في جميع تلك المراحل المترتبة في الفضل والسمو، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (عباد الله، إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله جل ذكره: الإيمان بالله وبرسله وما جاءت به من عند الله... وإقامة الصلاة فإنها الملة)^(١).

الحماية من المعاصي:

ولبيان ذلك نقول أما قبل الامتحان فيحتاج الإنسان إلى اللطف الإلهي والعناية الإلهية لتحمية من الابتلاء بالمعاصي أصلاً، أو حمايته منها عند عروضها عليه حيث يبصره الله تعالى بحقائق تلك المعاصي المنفرة الموجبة للاشمئزاز والتقرّز وليس الاقبال والرغبة، وهذا ما توفره الصلاة، عن أمير المؤمنين عليه السلام: (الصلاة تستنزل الرحمة)^(٢) وعنه عليه السلام: (ما دمت في الصلاة فإنك تفرّج باب الملك الجبار ومن يُكثر قرع باب الملك يُفْتَحَ له)^(٣) وعنه عليه السلام (إذا قام الرجل إلى

(١) نهج البلاغة: الخطبة: ١١٠.

(٢) الأحاديث المذكورة هنا نقلها عن مصادرها في جامع أحاديث الشيعة: ٢٩/٤ وما بعدها، وفي

ميزان الحكمة: ١٠٧/٥ - ١٣٥.

(٣) المصدر السابق.

الصلاة أقبل إبليس ينظر إليه حسداً، لما يرى من رحمة الله التي تغشاه^(١)، وعنه عليه السلام: (لو يعلم المصلي ما يغشاه من جلال الله ما سره أن يرفع رأسه من سجوده)^(٢).

ومن تغشته رحمة الله وأحاط به جلاله فهو في أمن وأمان وحصن وثيق من الوقوع في شرك إبليس، وعن رسول الله صلوات الله عليه: (إن الصلاة قربان المؤمن) وكلما اقترب الإنسان من ربه ابتعد عن الشيطان وموجبات الوقوع في المعصية، وإذا وفق الإنسان إلى هذه المرحلة فهي الأكمل والأسمى والأعظم عند الله تعالى حينما لا يجد في نفسه أي ميل للمعصية ولا رغبة له فيها، وبالتالي فهو لا يجد أي مشكلة في اجتنابها.

الثمرة الأبرز لإقامة الصلاة:

وفي المرحلة الثانية أي عند الابتلاء بما يوجب المعصية وحينما يكون بين خيارين أحدهما كبج جراح النفس والفوز بطاعة الله، وثانيهما الانسياق وراء الشهوة والوقوع في المعصية، وهنا يأتي دور الصلاة في زيادة مناعته وتحصينه من الوقوع في المعصية بل أن الثمرة الأبرز لإقامة الصلاة هي هذه، قال تعالى (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (العنكبوت/٤٥)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: (اعلم أن الصلاة حُجْزَةٌ الله في الأرض، فمن أحب أن يعلم ما أدرك من نفع صلاته، فليُنظر: فإن كانت حَجَزَتْهُ عن الفواحش والمنكر فإنما

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

أدرك من نفعها بقدر ما احتجز).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام (الصلاة حصن من سطوات الشيطان)، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله قوله (لا يزال الشيطان ذعراً من المؤمن هائباً له ما حافظ على الصلوات الخمس، فإذا ضيَّعن اجترأ عليه)، وهذه المرحلة وإن كانت أقل درجة من سابقتها لأن الإنسان يجتنب المعصية بمعاناة ومشقة وجهاد، إلا أنها مرحلة عظيمة أيضاً.

الصلاة حبل النجاة:

أما في المرحلة الثالثة: وهي ما بعد الفعل ونفترض أن العبد لم يستفد من بركات صلاته مما أدى إلى سقوطه في الخطأ لسبب أو لآخر فإن الصلاة هي التي تمدّ حبل النجاة لإنقاذه على نحوين:

أولهما: إعادته إلى الحالة الصحيحة وتطعيمه من جديد ضد الانحراف والمعصية وزيادة مناعته بجرعة أكبر، روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال — في رجل يُصلي معه ويرتكب الفواحش —: (إنّ صلاته تنهأ يوماً ما، فلم يلبث أن تاب)، وعنه صلى الله عليه وآله قال — في رجل يُصلي بالنهار ويسرق بالليل —: (إنّ صلاته لتردعه).

ثانيهما: إنها تكفر الإثم الذي ارتكبه وتبيّض صفحته التي اسودّت بفعل المعصية وتمنحه فرصة التكامل من جديد، روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أخذ غصناً من شجرة كانوا في ظلّها فنفذه فتساقط ورقه ثم فسّر لأصحابه ما صنع فقال: (إن العبد المسلم إذا قام إلى الصلاة تحاتت عنه خطاياہ كما تحاتت ورق

هذه الشجرة).

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول أرجى آية في كتاب الله (أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مَنْ اللَّيْلِ) هود ١١٤، وقال يا علي والذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا إن أحدكم ليقوم من وضوئه فتساقط عن جوارحه الذنوب فإذا استقبل الله بوجهه وقلبه لم ينفلت وعليه من ذنوبه شيء كما ولدته أمه فإن أصاب شيئا بين الصلاتين كان له مثل ذلك حتى عد الصلوات الخمس ثم قال يا علي إنما منزلة الصلوات الخمس لأمتي كنهر جار على باب أحدكم فما يظن أحدكم لو كان في جسده درن ثم اغتسل في ذلك النهر خمس مرات أكان يبقى في جسده درن فكذلك والله الصلوات الخمس لأمتي).

موقع الصلاة في الدين:

لهذا كله احتلت الصلاة موقعا مهماً من الدين، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (مثل الصلاة مثل عمود القسطنطين؛ إذا ثبت العمود نفعت الأطناب والأوتاد والغشاء، وإذا انكسر العمود لم ينفع طنب ولا وتد ولا غشاء).

ولهذا كانت الصلاة مقياس دين الإنسان والتزامه بما فرض الله تعالى عليه، روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (لكل شيء وجه، ووجه دينكم الصلاة)، وعنه صلى الله عليه وآله: (أول ما ينظر في عمل العبد في يوم القيامة في صلاته، فإن قبلت نظر في غيرها، وإن لم تقبل لم ينظر في عمله بشيء)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (الصلاة ميزان، فمن وفى استوفى).

ولذا كثرت الوصايا بها، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (ليكن أكثر همك

الصلاة، فإنها رأس الإسلام بعد الإقرار بالدين)، ومما جاء في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لأولاده قبيل وفاته (الله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: (أحب الأعمال إلى الله عز وجل الصلاة، وهي آخرُ وصايا الأنبياء)، وعنه عليه السلام (إن طاعة الله خدمته في الأرض فليس شيء من خدمته يعدل الصلاة).

التشديد على تارك الصلاة:

فليس غريباً التشديد في قضية ترك الصلاة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله (ما بين المسلم وبين الكافر إلا أن يترك الصلاة الفريضة متعمداً، أو يتهاون بها فلا يصلّيها)، وعنه صلى الله عليه وآله: (الصلاة عماد الدين، فمن ترك صلاته متعمداً فقد هدم دينه، ومن ترك أوقاتها يدخل الويل، والويلُ وادٍ في جهنم كما قال الله تعالى (قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ) وعنه: (من ترك الصلاة لا يرجو ثوابها ولا يخاف عقابها، فلا أبالي أن يموت يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً).

كيفية الصلاة التي تؤدي دورها الكامل في حياة الإنسان؛

ولكي تأخذ الصلاة دورها الكامل في حياة الإنسان لابد أن يؤتى بها بحدودها وشروطها.

(ومنها) الإتيان بها في أول وقتها، عن الإمام الصادق (ع): (لكل صلاة وقتان: أولٌ وآخرٌ، فأول الوقت أفضلُه، وليس لأحدٍ أن يتخذ آخر الوقتين وقتاً إلا من علةٍ، وإنما جعل آخر الوقت للمريض والمعتل ولمن له عذرٌ، وأول الوقت رضوان الله، وآخرُ الوقت عفو الله). وعنه عليه السلام: (فضل الوقت الأول على الآخر كفضل الآخرة على الدنيا)، وعنه عليه السلام: (لفضل الوقت الأول على الآخر

خيرٌ للمؤمن من ماله وولده).

وروى الشيخ الصدوق في الفقيه بسنده عن حماد بن عيسى: قال لي أبو عبد الله عليه السلام يوماً: (تُحَسِّنُ أَنْ تُصَلِّيَ يَا حَمَّادُ؟... قُمْ فَصَلِّ، قَالَ: فَقُمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَتَوَّجَهَا إِلَى الْقِبْلَةِ فَاسْتَفْتَحْتُ الصَّلَاةَ وَرَكَعْتُ وَسَجَدْتُ، فَقَالَ: يَا حَمَّادُ، لَا تُحَسِّنْ أَنْ تُصَلِّيَ؟! مَا أَقْبَحَ بِالرَّجُلِ أَنْ تَأْتِيَ عَلَيْهِ سِتُونَ سَنَةً أَوْ سَبْعُونَ سَنَةً فَمَا يَقِيمُ صَلَاةً وَاحِدَةً بِحُدُودِهَا تَامَةً)؟!

(ومن) شروط تأثيرها الورع عن محارم الله تعالى، عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (لو صَلَّيْتُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَالْأُوتَارِ، وَصُمْتُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَالْحَنَائِيا، لَمْ يَقْبَلِ اللهُ مِنْكُمْ إِلَّا بُورَعٌ).

موانع تأثير الصلاة في حياة الإنسان:

(ومن) أبرز الموانع من قبولها وتأثيرها:

١- عقوق الوالدين، عن الإمام الصادق عليه السلام (من نظر إلى أبويه نظر ماقترٍ وهما ظالمان له، لم يقبل الله له صلاة).

٢- الغيبة، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (من اغتاب مسلماً أو مسلمة لم يقبل الله تعالى صلاته ولا صيامه أربعين يوماً وليلة، إلا أن يغفر له صاحبه).

نصيحة وتوصية:

فاهتموا بصلاتكم أيها الأحبة وحافظوا على أول وقتها وواظبوا على أدائها جماعة في المسجد مهما تيسر لكم لتزدادوا نوراً على نور واستزيدوا منها فوق الفرائض اليومية، روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله انه قال لأبي ذر لما سأله عن الصلاة

(خير موضوع، فمن شاء أقل ومن شاء أكثر) وعن الإمام الصادق عليه السلام لما سئل عن أفضل الأعمال بعد المعرفة قال عليه السلام: (ما من شيء بعد المعرفة يعدل هذه الصلاة)، وعن الإمام الكاظم عليه السلام: (صلوات النوافل قُرَبَات كل مؤمن).
 خصوصاً صلاة الليل ولو بأقل عدد من الركعات، قال تعالى (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا) (الإسراء ٧٩).

السيدة الزهراء عليها السلام تبين سر التشريع الصلاة وفضلها:

لقد لَخَّصَتْ الصَّدِيقَةُ الطَاهِرَةُ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ عليها السلام هذه الأهمية للصلاة ودورها في تهذيب الإنسان وتكامله بقولها في خطبتها (فجعل الله... الصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر) فالصلاة تنزه الإنسان وتطهره من التكبر والعتو والتمرد والاستكبار والفرعنة التي هي أساس الوقوع في المعاصي وإتباع الشيطان والابتعاد عن الله تعالى ولشدة اهتمامها (سلام الله عليها) بالصلاة سألت أباه رسول الله صلى الله عليه وآله (يا أبتاه ما لمن تهاون بصلاته من الرجال والنساء؟ قال: يا فاطمة: من تهاون بصلاته من الرجال والنساء ابتلاه الله بخمسة عشر خصلة، ست منها في دار الدنيا، وثلاث عند موته، وثلاث في قبره، وثلاث في القيامة إذا خرج من قبره) ثم عددها رسول الله صلى الله عليه وآله فراجع المصدر^(١).

(١) مستدرک وسائل الشیعة: ٢٣/٣.

(وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) ^(١) [الأنعام: ١٤١]

بركات دفع الزكاة

شكر المنعم:

انتهى موعد حصاد الحنطة والشعير هذا العام بإنتاج وفير تجاوز مليون طن من الحنطة ومائة وسبعين ألف طن من الشعير، رغم ما تعرضت له بعض المحافظات من أمطار غزيرة وسيول أتلفت جزءاً كبيراً من المحصول بسبب مشاكل خزنية وتسويقية وسياسية ^(٢) لسنا الآن بصدد بيان تفاصيلها.

إنّ هذه النعم تلزمنا شكر الخالق المنعم الذي شمل برحمته كل مخلوقاته حتى من لم يعرفه ومن لم يطلب منه بل حتى على من عصاه وناواه، وبالشكر تدوم النعم كما ورد في الحديث الشريف، قال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) (إبراهيم/٧) فهذه وسيلة من يريد استزادة النعم والخيرات.

الغفلة عن الحق الشرعي وفضل الزكاة وأهميتها:

ومن تمام شكر النعمة أداء حقوقها، لكن الملفت للنظر والمثير للتعجب

(١) حديث سُجِّلَ لقناة النعيم الفضائية يوم الأربعاء ٢/شعبان/١٤٣٤ المصادف ٢٠١٣/٦/١٢.

(٢) قام المزارعون بحصد المحاصيل وتأخرت مخازن وزارة التجارة في تسلمها، وكان الوزير من التحالف الكردستاني قد علّق حضوره في اجتماعات الحكومة لخلافات مع الحكومة المركزية.

غفلة هؤلاء المزارعين عن إخراج الحقّ الشرعي عصياناً لقوله تعالى (وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) (الأنعام/١٤١) وقوله تعالى (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) (الذاريات/١٩) فقد فرض الله تعالى في الغلات الزراعية وفي الثروة الحيوانية زكاة قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) (التوبة/١٠٣) وفي الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (لما نزلت آية الزكاة خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا.. في شهر رمضان، فأمر رسول الله (ﷺ) مناديه فنادى في الناس: إن الله تبارك وتعالى قد فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة)^(١) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (ولو أنّ الناس أدوا حقوقهم لكانوا عايشين بخير) وعن الإمام الكاظم (عليه السلام) (حصّنوا أموالكم بالزكاة) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) (إنّ الله عزّ وجل فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون إلاّ بأدائها وهي الزكاة) وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إنّما وضعت الزكاة اختباراً للأغنياء ومعونة للفقراء ولو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقي مسلم فقيراً محتاجاً ولا استغنى بما فرض الله له، وإنّ الناس ما افتقروا ولا احتاجوا وجاعوا ولا عروا إلاّ بذنوب الأغنياء، وحقيق على الله تبارك وتعالى أن يمنع رحمته ممّن منعه حقّ الله في ماله، وأقسم بالذي خلق الخلق وبسط الرزق أنّه ما ضاع مال في بر ولا بحر إلاّ بترك الزكاة) وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال (إنّ الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل

(١) الروايات المذكورة من وسائل الشيعة، كتاب الزكاة، أبواب ما تجب فيه الزكاة، باب ١، ٢،

الإسلام، فمن أعطاها طيب النفس بها فإنّها تجعل له كفّارة، ومن النار حجاباً ووقاية، فلا يُتبعنها أحدٌ نفسه ولا يكثرنّ عليها لهفه، وإنّ من أعطاها غير طيب النفس بها، يرجو بها ما هو أفضل منها فهو جاهل بالسُّنة مغبون الأجر ضال العمل طويل الندم).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) عن آبائه عن رسول الله (ﷺ) قال (إذا أراد الله بعد خيراً بعث إليه ملكاً من خزّان الجنّة فيمسح صدره ويسخّي نفسه بالزكاة).
ومن وصية لأمر المؤمنين (عليه السلام) قال: (الله الله في الزكاة فإنّها تطفئ غضب ربّكم).

وفي الحديث الشريف قال (شابٌ سخّي مرهق في الذنوب أحبّ إلى الله عز وجل من شيخ عابد بخيل) ويشرح حديث آخر معنى السخّي عن النبي (ﷺ) قال (من أدّى ما افترض الله عليه فهو أسخّي الناس) وفي حديث عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال (إنّ الله تبارك وتعالى قرن الزكاة بالصلاة فقال (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) (البقرة/٤٣) فمن أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فكأنّه لم يقم الصلاة).
وإنما تجب الزكاة في الغلات الزراعية ضمن شروط معيّنة ذكرها الفقهاء (قدس الله أرواحهم) في الرسائل العملية، ومنها بلوغ النصاب وهو (٨٤٧) كيلو غرام فإذا كان الحاصل أقل من ذلك فلا زكاة عليه، فإذا بلغت الغلّة مقدار النصاب وجبت فيه الزكاة ومقدارها (١٠٪) من الحاصل إذا كانت المزروعات تسقى بشكل طبيعي من دون آلة سيحاً بالمطر أو بفيضان النهر ونحوها، وتكون الزكاة بنسبة ٥٪ إذا كان السقي بالآلات.

الآثار المباركة للزكاة:

ومن الأحاديث الشريفة المتقدمة نستطيع تلمس عدة آثار مباركة لإخراج الزكاة:

- ١- إنها من أعظم القربات إلى الله تعالى وإنها مقرونة بالصلاة.
- ٢- توجب المحبة الإلهية للعبد وشموله بالرحمة العظيمة.
- ٣- إنها تُطفئ غضب الرب، وتوجب كَفَّارة الذنوب وإنها حجاب ووقاية من النار.
- ٤- إنها اختبار يعطي فرصة للعبد لكي ينجح فيه فيستحق الجائزة، فبدون خوض الامتحان لا يرتقي الإنسان إلى مرحلة أعلى وأكمل، وإن امتحان إخراج شيء من المال صعبٌ على الإنسان لكنّه منتج ومثمر، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما بلى الله عز وجل العباد بشيء أشد من إخراج الدرهم).
- ٥- انها سبب لزيادة النعم ودوامها.
- ٦- تحصّن المال من التلف والخسارة، وإنّ من يبخل بالزكاة يخسر أكثر منها من المال بتلف أو سرقة أو خسارة فيخسر الدنيا والآخرة.
- ٧- تقضي على الفقر وتنمي الاقتصاد وتزدهر بها أحوال الناس، لأنّ الناس إذا كانوا فقراء فإنّهم لا يمتلكون قدرة على الشراء فيصاب السوق بالكساد، فإذا توفّر لديهم المال تحرّك السوق وعاد بالنفع على نفس دافعي الزكاة وسائر الحقوق الشرعية وهذه الحقيقة يعرفها دافعوا الضرائب في الدول الصناعية والبنوك العالمية المموّلة.

وهذا الكلام يجري في إخراج سائر الحقوق الشرعية كالخمس وردّ

المظالم لوضوح انطباق الأحاديث الشريفة عليها.

التحذير الشديد من عدم دفع الحقوق الشرعية:

وإذا لم تكف هذه الروايات والآثار المباركة على إخراج الزكاة لتحفيز الناس وتحريكهم نحو إخراجها فلنقرأ في مقابل ذلك ما ورد من تحذير شديد من مغبة التخلف عن دفع الحقوق الشرعية ففي الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال (ما من عبدٍ منع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً في عنقه ينهش من لحمه حتّى يفرغ من الحساب، وهو قول الله عز وجل (سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (آل عمران/١٨٠) يعني ما بخلوا به من الزكاة). وقد طرد النبي (ﷺ) جماعة من المسجد وحرّمهم من الصلاة معه لأنهم لم يؤدّوا حقوق أموالهم، عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال (بينما رسول الله (ﷺ) في المسجد إذ قال: قم يا فلان قم يا فلان، قم يا فلان، حتّى أخرج خمسة نفر، فقال: أخرجوا من مسجدنا لا تصلوا فيه وأنتم لا تزكون).

وفي حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) (من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً) وفي حديثٍ عنه قال (من منع قيراطاً من الزكاة فليس مؤمن ولا مسلم، وهو قول الله عز وجل (... رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (المؤمنون/٩٩-١٠٠)).

لتساعدوا الناس:

أيها الأحبة أمام هذه الأحاديث الموجبة للزكاة والمبيّنة لآثارها

المباركة، والعاقبة المظلمة لتاركها لا يسع الإنسان إلا المبادرة لإخراجها بالنسبة التي ذكرناها، وليس من الضرورة إيصالها إلى المرجعية الدينية فيجوز لصاحبها توزيعها على الفقراء المحتاجين أو المساهمة بها في المشاريع الخيرية والتي تخدم الصالح العام، كبناء مركز صحي أو قنطرة لعبور الناس أو مدرسة أو محطة تصفية المياه ونحوها مع الالتفات إلى أن الهاشمي الذي ينتسب إلى رسول الله (ﷺ) لا يجوز له أخذ الزكاة من غير الهاشمي، ويجوز العكس.

فما يمنع أحدكم من مساعدة أقربائه ومعارفه المحتاجين من الزكاة فيدخل السرور عليهم ويقضي حوائجهم وبنفس الوقت يؤدي هذه الفريضة العظيمة التي بها نماء لأموالكم وتحصين لها ونيل لرضا الله تبارك وتعالى.

إنّ الذي دفعنا إلى توجيه هذا الحديث إرشادكم إلى هذه الطاعة العظيمة المقربة إلى الله تبارك وتعالى ولما رأيناه من غفلة الغالبية العظمى من الناس عن هذه الفريضة ومن واجبنا إرشادهم ونصحهم وهدايتهم والله الموفق.

(ربّاهب لي من لدنك ذريّة طيِّبة) ^(١) [آل عمران : ٣٨]

الحث على تكثير النسل

استحباب تكثير النسل:

توجد ظواهر عديدة ملفتة للنظر في حياة الإمام الكاظم (عليه السلام) منها كثرة ذريّته حتّى عدّت له المصادر سبعة وثلاثين ولداً من الذكور والإناث من زوجاتٍ شتى كلهنّ أمّهات ولد أي من الجواري اللواتي كان الإمام يشتريهنّ ويعتقهنّ ثمّ يتزوَّج بهنّ، هذا رغم قصر عمره الذي لم يمتد أكثر من ٥٥ عاماً قضى شطراً كبيراً منها في سجون الملوك العباسيين تجاوزت عشر سنين.

وهذه الظاهرة -أي تكثير النسل- يكفي في فهم مبرراتها استحبابها شرعاً وتوجد أحاديث كثيرة للحثّ عليها، كرواية الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (قال رسول الله ﷺ): تزوّجوا فإنّي مكاثرٌ بكم الأمم غداً في القيامة حتّى أن السقط يقف محبباً على باب الجنة فيقال له: ادخل، فيقول: لا حتّى يدخل أبواي قبلي) ^(٢).

وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّه قال: (ميراث الله من عبده المؤمن

(١) كلمة أُلقيت من قناة النعيم الفضائية بمناسبة ذكرى استشهاد الإمام الكاظم (عليه السلام) في ٢٥/

رجب/ ١٤٣٤ المصادف ٥/ حزيران/ ٢٠١٣.

(٢) وسائل الشيعة باب النكاح، أبواب أحكام الأولاد، باب ١ ح ١٤.

الولد الصالح يستغفر له^(١).

وروى أحد أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام) قال: (كتبت إلى أبي الحسن (عليه السلام): إني أحببت طلب الولد منذ خمس سنين، وذلك أن أهلي كرهت ذلك وقالت: إنه يشتد عليّ تربيتهم لقلة الشيء، فما ترى؟ فكتب إليّ: اطلب الولد فإن الله رازقهم)^(٢).

وفي حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن أولاد المسلمين موسومون عند الله شافع ومشفع، فإذا بلغوا اثنتي عشر سنة كتبت لهم الحسنات فإذا بلغوا الحلم كتبت عليهم السيئات)^(٣).

وفي حديث عن الرضا (عليه السلام) (أما علمت أن الولدان تحت العرش يستغفرون لأبائهم، يحضنهم إبراهيم وتربيهم سارة في جبل من مسك وعنبر وزعفران)^(٤).

الوجه في تفسير كثرة الزوجات عند المعصومين عليه السلام :

ولعل هذا أحد الوجوه التي تفسر أقدام المعصومين (عليه السلام) على تكثير الزوجات حتى بلغت عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تسعاً وعند أمير المؤمنين (عليه السلام) ثمان، وإنما سُميت الزهراء (عليها السلام) بالكوثر لأن الله تعالى أكثر ذرية رسول الله

(١) المصدر، باب ٢، ح ٦.

(٢) المصدر، باب ٣، ح ١.

(٣) المصدر، باب ١، ح ١.

(٤) المصدر، أبواب مقدمات النكاح، باب ١٦، ح ٢.

(عليه السلام) منها، واستشهدت وهي في الثامنة عشرة من عمرها ولها الحسن والحسين والعقيلة زينب (صلوات الله عليهم أجمعين) وأسقطت المحسن، فالإمام الكاظم (عليه السلام) جرى على سنة أجداده الطاهرين وهو أولى الناس بهم.

ويضاف إلى هذا الوجه العام وجه خاص وهو وجود عدة شواهد تشير إلى خطة استراتيجية وضعها الأئمة المعصومون (عليهم السلام) وساروا عليها تستهدف تكثير نسل آل أبي طالب بعد واقعة كربلاء رداً على سياسة الاستئصال والاجتثاث التي اتبعها معهم أعداءهم تحت شعار (لا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية) بحيث خلت بيوت بأكملها من الرجال كدور عقيل بن أبي طالب والعباس بن أمير المؤمنين وأخوته الذين استشهدوا جميعاً في كربلاء.

سُئل الإمام السجاد (عليه السلام) عن سبب حنوه الزائد على آل عقيل فقال (عليه السلام) (إنني اذكر يومهم مع أبي عبد الله (عليه السلام) فأرق لهم).^(١) ولما قدم له المختار أموالاً كثيرة بنى بها دور عقيل التي هدمها الأمويون.^(٢)

منهجية الإمام الكاظم (عليه السلام) في تكثير النسل:

فكان للإمام السجاد (عليه السلام) خمسة عشر ولداً بين ذكر وأنثى وتوّلّى (عليه السلام) تربية الولد الوحيد الذي تركه عمّه العباس بن أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو عبيد الله وزوجه بنته خديجة وجمع له معها ثلاث حرائر من بنات

(١) كامل الزيارات: ١٠٧.

(٢) سيرة أهل البيت (عليهم السلام) للشيخ القرشي: ٢٠١/١٥.

الأشراف يقصد بذلك تنمية نسل عمّه العباس^(١).

وكان الإمام الكاظم (عليه السلام) يقبل هدايا هارون العباسي ويقول: (والله لولا إني أرى من أزوجه بها من عزّاب بني أبي طالب لثلاً ينقطع نسله ما قبلتها أبداً)^(٢).
هذه شواهد على السياسة الممنهجة أو الإستراتيجية التي خطط لها الإمام الكاظم (عليه السلام) ليحبط مشروع الأعداء في إنهاء هذا البيت الطاهر وأثمرت خطوات الإمام الكاظم (عليه السلام) عن هذا العدد الهائل من السادة الأشراف وفيهم الكثير من مراجع الدين والعلماء والقادة والمفكرين والصلحاء وأعلام الأمة.

مبررات تكثير النسل لشيعة أهل البيت (عليهم السلام):

إنّ شيعة أهل البيت (عليهم السلام) مدعوون لبذل الوسع في تكثير النسل لعدة مبررات منها:

- ١- الأخذ بسنة رسول الله (ﷺ) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) وتلبية رغبتهم التي نقلتها الأحاديث الشريفة المتقدمة.
- ٢- إنّ فيها استجابة لقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) (الأنفال/٢٤).

وفي الذرية حياة مستمرة للإنسان حتّى يوم القيامة قال الشيخ الصدوق في الفقيه (روي أنّ من مات بلا خلف فكأنّ لم يكن بين

(١) بطل العلقي للمظفر: ٣/ ٣٦٩.

(٢) الوسائل، كتاب التجارة، أبواب ما يكتسب به، باب ٥١، ح ١١.

الناس، ومن مات وله خلف فكأنه لم يمت^(١).

٣- الذرية مصدر لكثير من الطاعات للوالدين حتى بعد موتهم كحديث السقط الذي تقدم في الروايات الشريفة، وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) في المرض يصيب الصبي، قال (عليه السلام): (إنه كفارة لوالديه)^(٢)، ويلخص النبي (ﷺ) بعض هذه الطاعات بقوله (إنّ ولد أحدكم إذا مات أُجر فيه، وإن بقي بعده استغفر له بعد موته)^(٣) والحديث النبوي المشهور (إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث) أحدها ولد صالح يدعو ويستغفر له.

وفي الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (إن الله ليرحم الرجل لشدة حبه لولده)^(٤).

وروى الإمام الصادق (عليه السلام) قال (قال رسول الله (ﷺ): مرّ عيسى بن مريم (عليه السلام) بقبر يعذب صاحبه، ثم مرّ به من قابل فإذا هو لا يُعذب، فقال: يا ربّ مررت بهذا القبر عام أوّل وهو يعذب، ومررت به العام فإذا هو ليس يُعذب، فأوحى الله إليه أنه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً، وآوى يتيماً فللهذا غفرت له بما عمل ابنه)^(٥).

٤- إن اتباع أهل البيت (عليهم السلام) هم الجماعة الخيرة الطيبة التي اختارها الله

(١) الوسائل، كتاب النكاح، أبواب أحكام الأولاد، باب ١، ح ١٠.

(٢) المصدر باب ١ ح ١٢، ١٣.

(٣) السابق.

(٤) المصدر باب ٢ ح ٧.

(٥) المصدر باب ٢ ح ٥.

تعالى لتحضن ولاية أهل البيت (عليه السلام) وتحافظ على الإسلام الأصيل فتكثيرهم اعزاز للدين والولاية وتثبت لقيم الخير والإنسانية في هذه الأرض فالخير منهم مأمول والشر منهم مأمون، فهم كالشجرة الطيبة المثمرة التي تكون هي أولى بالتكثير.

٥- إن في تكثير الشيعة نصرة للإمام الموعود (عليه السلام) وتقوية لأركانه وتمهيداً لظهوره المبارك، تطبيقاً لقوله تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) (الأنفال/٦٠) وأعظم قوة نعدّها لنصرة الإمام (عليه السلام) هي هذا النسل المبارك لأنّ الموارد البشرية هي أعظم الموارد التي تحرص الدول على تحصيلها فاستكثروا منه ما استطعتم.

٦- إنّ الشيعة في المنطقة مستهدفون بحرب إبادة واجتثاث كما تشهد به الوقائع الجارية خصوصاً عندنا في العراق وقد فقدنا خلال العقود الأربعة الماضية أكثر من مليون ونصف المليون من الرجال الذين تزهو بهم الحياة في حروب عبثية وإعدامات ومقابر جماعية في عهد النظام المقبور ثمّ في المفخّخات والتفجيرات وأنواع آلات القتل والتدمير.

بأي عدد من الذرية يتحقق بتكثير النسل؟

وفي ضوء المعطيات المتقدمة لا يسع اتباع أهل البيت (عليه السلام) السائرين على نهجهم من الرجال والنساء إلاّ أن يبذلوا وسعهم في تحقيق هذه الغاية الشريفة والرغبة الأكيدة للمعصومين (عليه السلام)، ومهما قيل من مبررات للإكتفاء بواحد أو اثنين من الأبناء فإنّها لا تصمد أمام هذه المعطيات، إلاّ أن يكون السبب

خارجاً عن الاختيار كما لو جرى القضاء الإلهي بذلك، قال تعالى (وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا) (الشورى/٥٠) أو حصلت موانع صحيّة قاهرة ونحوها.

والسؤال الآن هو بأي عدد من الذرية يتحقّق معنى تكثير النسل؟ والجواب إنّه يتحقق بأربعة على الأقل، لأنّ الزوجين إذا أنجبا اثنين -ذكوراً أو إناثاً- فإنّهما لم يزيدا شيئاً فإن اثنين ولدا اثنين، ثمّ هما يحتاجان إلى واحد آخر لتعويض حالات النقص في المجتمع لأنّ كثيراً يموتون في عمر الطفولة أو الصبى أو الشباب قبل الزواج بالموت الطبيعي أو الحوادث كالتفجيرات وحوادث السير أو في الحروب ونحوها، أو يتزوّجون ولكن لا ينجبون أو ينجبون دون العدد، فيحصل نقص في المعدّل يسدّه انجاب الثالث، ويتحقق التكثير بالرابع، وكلما زاد على ذلك كان أفضل وأقرّ لعين رسول الله (ﷺ).

الغرب وتقليل النسل:

لقد حاولت حكومات الغرب إقناع الشعوب بتحديد النسل وتقليله لكنهم أصيبوا بكارثة حيث بدأ عدد السكّان ينخفض وارتفع عدد المسنين في المجتمع، والجدل الآن دائر عندهم عن كيفية معالجة هذه المشكلة.

واتّبعوا سياسة (التعقيم) في بلاد المسلمين قبل عقدين أو أكثر وفق آليات معيّنة كشفت عنها بعض الوثائق السريّة المسرّبة وحدّدوا مدداً معيّنة حتى يثمر مشروعهما الشيطاني.

وسارت على هذا المنهج بعض الدول الإسلامية -كالجمهورية الإسلامية

في إيران - حيث تبنت الحكومة^(١) في نهاية الثمانينات سياسة تقليل الإنجاب لمنع الانفجار السكاني - كما قيل - الذي أعتبر السبب في ارتفاع نسبة البطالة وانخفاض مستويات التعليم ونوعية المعيشة - بحسب التقرير - حيث أن معدل النمو تجاوز الذروة بما يقدر بـ ٣,٢٪ بعد انتصار الثورة الإسلامية وتشجيع الإمام الخميني الراحل (قدس) على كثرة الإنجاب لبناء جيش الـ ٢٠ مليون مسلم.

لكن بعد عشرين عاماً أظهرت الإحصاءات أن معدل عدد الأطفال المولودين لكل امرأة يصل إلى ١,٦ أي أقل من ٢,١ الذي يعتبر الحد الأدنى المطلوب في الدول الصناعية لتجنب الانخفاض في عدد السكان، لذا تحركت القيادات الإيرانية منذ العام الماضي للتشجيع على الإنجاب من جديد.

المباركة في تكثير النسل:

ونحن نعتقد أنّ تكثير النسل ليس السبب في تلك المشاكل التي أشار إليها التقرير لأنّه عملية مباركة مثمرة تعود بالازدهار على الفرد والمجتمع، وأنّ أقوى الموارد التي تمتلكها الدول هي الموارد البشرية، خذ الصين مثلاً فإنّ سكّانها تجاوز المليار ومئتي مليون، واقتصادها في نمو مضطرد أقلق الدول الصناعية الكبرى.

والغريب أن الزوجين يبذلان كل ما عندهما من أجل تحصيل الولد، وقد يسافران إلى دول بعيدة لتحقيق ذلك، لكن من يرزقهما الله تعالى الولد يتوقفان عن إنجاب المزيد مراعاة لأوضاع معيّنة، كالوضع الاقتصادي والمعيشي، وقد

(١) المعلومات من تقرير نُشر على المواقع الالكترونية بتاريخ ٢٢/٤/٢٠١٣.

تقدم في الرواية عن الإمام الكاظم (عليه السلام) عدم الإصغاء لمثل هذه المبررات، وقال تعالى (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) (النور/٣٢) والوارد في الروايات عكس ذلك فإن الرجل يُرزق إذا تزوج وأنجب، عن الإمام الصادق (عليه السلام) (الرزق مع النساء والعيال)^(١)، فتكثير الإنجاب أحد أسباب الرزق للفرد والازدهار للدولة، وتقليل الإنجاب لأجل تخفيف الأعباء الاقتصادية وغيرها تفكير خاطئ لدى الدولة والفرد على حد سواء.

منع الانجاب كقتل الإنسان:

إن المنع من الإنجاب سواء كان بالطرق الطبيعية أو بالعلاجات بلا مسوغ معقول ومقبول يتطابق بالنتيجة مع قتل الإنسان الموجود فكلاهما يحرم الأمة من هذا الوجود الذي جعله الله تعالى خليفته في أرضه قال تعالى (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) (الإسراء/٣١) (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) (الأنعام/١٥١).

إهمال تربية الأطفال قتل معنوي بحقهم:

ولا نغفل أيضاً عن قتل معنوي آخر من خلال إهمال تربية الأطفال تربية صالحة فيصبحوا أفراداً سيئين منحرفين وربما يتحولون إلى مجرمين ويجلبون الشر للمجتمع، ومن أمثلة القتل المعنوي أيضاً الهجرة إلى الغرب وعموم بلاد الكفر وتعريض الأبناء لتلك الضغوط والمغريات والشهوات فيبتعدون عن الدين ويلتحقون بالمجتمعات الضالة فهذا قتل معنوي للإنسان على خلاف ما

(١) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، أبواب مقدماته وآدابه، باب ١١ ح ٤.

أراد الله تعالى ورسوله.

تعليمات الأئمة عليهم السلام لتكثير النسل:

ولأجل تحقيق الإنجاب لمن ليس عنده ذرية ولتكثير النسل فقد علّم الأئمة عليهم السلام شيعتهم أعمالاً لعلّها تكون سبباً لرزقهم بالأولاد منها:

١- رفع الصوت بالآذان في المنزل، روى هشام بن إبراهيم صاحب الإمام الرضا عليه السلام (أنه شكى إلى أبي الحسن عليه السلام) سقمه وأنه لا يولد له فأمره أن يرفع صوته بالآذان في منزله، فقال: ففعلت، فأذهب الله عني سقمي وكثر ولدي^(١).

٢- الاستغفار، ففي الكافي شكا البرش الكليني إلى أبي جعفر - الباقر عليه السلام (أنه لا يولد له وقال له علمني شيئاً، فقال له: استغفر الله في كل يوم (أو) في كل ليلة مائة مرة فإن الله عز وجل يقول (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ) (نوح / ١٠-١١-١٢) وفي رواية أخرى (فإن نسيت فاقضه).^(٢)

٣- الدعاء، سواء بالنصوص المذكورة في القرآن الكريم أو كتب الأدعية لطلب الولد كقوله تعالى (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) (آل عمران / ٣٨) وقوله تعالى (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ) (الفرقان / ٧٤) وقوله تعالى (رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) (الأنبياء / ٨٩) أو تدعو بأي شيء يعبر عمّا

(١) وسائل الشريعة، كتاب النكاح، أبواب احكام الأولاد، باب ١١ ح ١.

(٢) المصدر، باب ١٠ ح ١-٣.

في قلبك.

٤- التوسّل بالمعصومين (سلام الله عليهم) وتوجد حكايات موثوقة كثيرة لمؤمنين توسّلوا إلى الله تعالى بالزهراء (عليها السلام) أو بالحسين (عليه السلام) أو بالإمام الرضا (عليه السلام) فتحقق مرادهم فيما طلبوا.

هذا درس نستفيده من حياة الإمام الكاظم (عليه السلام) أحبنا بيانه لأن فيه إدخالاً للسرور على النبي وآله الأطهار (صلوات الله عليهم أجمعين)، ولأنه يدلّنا على تكليف مهم موجّه إلينا فاعتبروا يا أولي الأبصار.

(ذلك يوم التغابن)^(١)

[التغابن : ٩]

من أسماء يوم القيامة:

ليوم القيامة أسماء عديدة في القرآن الكريم كيوم الدين ويوم الحسرة والندامة ويوم الفصل ويوم الدهول ويوم الزلزلة ويوم الجمع ويوم الورود ويوم النشور ويوم الحشر ويوم البعث ويوم الحساب والصاخّة والطامة الكبرى، وهي أسماء مشتقة من صفات ذلك اليوم المهول وخصائصه وما يجري فيه، ومن تلك الأسماء يوم التغابن، قال تعالى: (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ) (التغابن/٩).

والغبن (أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء)^(٢) فالبايع إذا أحسّ أنّه باع بأقل من استحقاق الشيء كان مغبوناً، وإذا شعر المشتري أنّه دفع أكثر مما يستحق الشيء كان مغبوناً.

المعاملة المغبونة والفائز يوم القيامة:

فما هي المعاملة التي سيظهر فيها الغبن يوم القيامة؟ والجواب أنّها الصفقة

(١) من حديث سماحة المرجع العنقوبي (دام ظلّه) مع حشد من مصلي ديوان الزهراء (دام ظلّه)

في حي الجامعة في النجف الأشرف يوم ٢٩/رمضان/١٤٣٤ الموافق ٢٠١٣/٨/٧.

(٢) المفردات للراغب، مادة (غبن).

التي عقدها الله تعالى مع عباده حينما جمعهم في عالم الذر (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (الأعراف/١٧٢) فأخذ تعالى العهد على عباده أن يعبدوه ويطيعوه ولهم جميع ما في الأرض على أن يسيروا وفق منهجه الرباني، ولهم بذلك الجنة التي عرضها السماوات والأرض.

هذه الصفقة أشير إليها في القرآن الكريم كثيراً كقوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) (البقرة/٢٠٧) (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة/١١١).

فمن وفى بهذه الصفقة ونال جزاءه الأوفى فهو الفائز، وأما المغبون فهو من لم يلتزم بتعهداته في تلك الصفقة وأضاعها وأضاع تلك المبايعة، قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا) (آل عمران/٧٧)، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (المغبون من باع جنة عليّة المرتبة بمعصية دنيّة)^(١) وعنه (عليه السلام): (المغبون من شغل بالدنيا، وفاته حظّه من الآخرة)^(٢) وعنه (عليه السلام): (من باع نفسه بغير نعيم الجنة فقد ظلمها)^(٣) وعنه (عليه السلام): (المغبون من غبن نفسه من

(١) غرر الحكم / ١٣٥٢.

(٢) غرر الحكم / ٢٠١٠.

(٣) غرر الحكم / ٩١٦٤.

الله^(١) وعنه (عليه السلام): (المغبون من غبن دينه)^(٢) وعنه (عليه السلام) (إنّ المغبون من غبن عُمره، وإنّ المغبوط من أنفذ عمره في طاعة ربّه)^(٣).

الخاسر المغبون ومنزلته:

ويزداد فرح المؤمن الفائز وحزن الفاسق والكافر الخاسر المغبون حينما يُعرض عليهما منزلاهما في الجنة والنار، ففي الرواية (في مجمع البيان روى عن النبي ﷺ أنه قال: ما منكم من أحد إلا له منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فان مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله)^(٤) فمن فقد منزله في الجنة يعاني ألمين، ألم العذاب في النار وألم الحسرة على منزله في الجنة وهو ينظر إليه.

وقد أشارت سورة التغابن إلى هذين الفريقين بعد وصف يوم القيامة بأنه يوم التغابن، قال تعالى: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (التغابن/٩-١٠).

وقد تقدّم في تعريف الغبن أنه البخس بضرب من الإخفاء، والخفاء هنا هو ظهور الجزاء يومئذٍ للجميع بشكل لم يتوقعوه ولم يتصوروه قال تعالى بالنسبة للفريق الأول: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا

(١) بحار الأنوار: ٢١٥/٧٧.

(٢) ميزان الحكمة: ٣٥٧/٦.

(٣) غرر الحكم/ ٣٥٠٢.

(٤) تفسير نور الثقلين: ج ٣/٥٣٢.

يَعْمَلُونَ) (السجدة/١٧) وقال تعالى في الفريق الثاني: (وَبَدَأَ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ) (الزمر/٤٧) فهناك تبدو لهم الأمور مختلفة تماماً عن مقاييسهم في الدنيا (وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ * أَتُخَذُنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ) (ص / ٦٢-٦٤).

من أشكال الغبن:

هذا الشكل من الغبن واضح، لكن شكلاً آخراً منه يحتاج إلى التفات وتأمل، وهو أن نفس المؤمنين يشعرون بالغبن أيضاً لأنهم سيكتشفون بعد ارتفاع حجاب الغفلة عن بصائرهم أنهم فوتوا على أنفسهم فرصاً عظيمة للطاعة ولو استثمروها لحصلوا على درجة أعلى ومقاماً أرفع وقرب متزايد من رضوان الله تعالى وأوليائه العظام، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله: (من أغبن ممن باع الله سبحانه بغيره)^(١) وغير الله تعالى مطلق يشمل ما يرجوه عامة المؤمنين من نعيم الجنة كالحور العين ولحم الطير وفواكه مما يشتهون.

وأشار السيد الشهيد الصدر الثاني قلبي إلى هذا في إحدى رسائله إليّ قال فيها: (وأما الندم فهو للمؤمن لا للكافر، إن الكافر سوف يلهو بآلامه المبرحة في النار وأما المؤمن فسيعض على شفته نداماً من أنه قضى حياته الدنيا (وهي بيت الطاعة) يطفر كالقبرة ولم ينل إلا هذا المقدار من الثواب.

إن ما ناله مهما كان ضخماً وعظيماً فإنه مثل قشة تجاه الدنيا وما فيها أزاء ما يرى من مقامات الأولياء وهذه المقامات تعرض عليه قليلاً ليعرف المؤمن ما

فوَّته على نفسه، ثمَّ تختفي لقلَّة تحمله في النظر إليها^(١).

ومثاله التاجر الذي يملك مالاً كثيراً ونفوذاً واسعاً وفرصاً جيدة للاستثمار ولا يوجد أيّ عائق في طريقه لكنَّه يضع أمواله في أمور بسيطة لا تناسب المأمول فإنَّه يشعر بالخسارة والغبن، فرأس مال الإنسان في هذه الدنيا عمره أيَّاماً وليالي بل ساعات ودقائق لأنَّها كلها يمكن أن تستثمر بطاعة ترفع درجته يوم القيامة بدل قضائها في أحاديث فارغة أو لهواً أو فضول أو أي عمل غير مثمر، ففي بعض الروايات أنَّ ساعات عمر الإنسان تُعرض عليه على نحو صناديق بأشكال ثلاثة، ساعة الطاعة وساعة المعصية وساعة الفراغ فساعة الطاعة يفرح بها وساعة المعصية يتعذَّب بها وساعة الفراغ يندم عليها، في الحديث عن النبي (ﷺ) قال: (ما من ساعة تمرُّ بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا حَسِرَ عليها يوم القيامة)^(٢).

تجارة مربحة:

إنَّ كل ثانية من حياة الإنسان يمكن أن يحولَّها إلى طاعة عظيمة كما لو شغلها بتسبيحة ليغرس الله تعالى له بكل تسبيحة عشرة أشجار في الجنة وفي رواية

أخرى شجرة، ففي أمالي الصدوق بسنده عن الصادق (عليه السلام) عن آبائه (عليهم السلام) قال: (قال رسول الله (ﷺ): (من قال سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة و من قال الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة و من قال لا اله الا الله

(١) قناديل العارفين: ص ٨٧.

(٢) كنز العمال: ١٨١٩.

غرس الله له بها شجره في الجنة و من قال الله اكبر غرس الله له بها شجره في الجنة فقال رجل من قريش ^(١) يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير قال نعم ولكن إياكم أن ترسلوا عليها نيرانا فتحرقوها و ذلك إن الله عز وجل يقول يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (محمد/٣٣) ^(٢).

إن هذه الطاعة التي قد لا تستغرق أكثر من ثانية واحدة من وقت الإنسان قد يكون لها دور خطير عندما تتساوى حسنات الإنسان وسيئاته فيحتاج إلى حسنة واحدة لترجيح كفة الحسنات، فيتحرر على ثوان يتمنى لو كان استثمارها في تسبيحة من عمره الكثير الذي أضاعه من دون فائدة.

الغبن فيما يخلفه المؤمن بعد موته:

وينبغي الالتفات إلى حالة أخرى من الغبن يشعر بها حتى من استثمار عمره في الطاعة لكنه لم يستفد من العمر الإضافي الذي يُعطى له لاكتساب المزيد من الحسنات، وهو الذي أشير إليه في الحديث الشريف (إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث: علم يُنتفع به، صدقة جارية، ولد صالح يدعو له) ^(٣) فيستطيع الإنسان بفضل الله تبارك وتعالى أن يستمر في اكتساب الحسنات حتى بعد وفاته بأن يصبح من أهل العلم الذين يخلفون أثراً نافعاً أو يؤسس مشروعاً مباركاً يكون صدقة جارية كمسجد أو شقق سكنية للفقراء أو طلبة العلم أو مدرسة

(١) لا يخفى على الفطن من هو بقرينة الآية التي استشهد بها النبي (ﷺ) في ذيل الرواية.

(٢) بحار الأنوار: ٩٣ / ١٦٨ ح ٣.

(٣) شرح أصول الكافي، ج ٦، ص ١٣٧.

دينية أو مركزاً صحياً أو يجري شبكة ماء.

والمصدر الثالث هو الولد الصالح بأن يتزوج امرأة صالحة ويتعب نفسه في تربية أولاده ليكونوا صالحين ثم يؤسس كلّ منهم أسرة صالحة وهكذا يتكاثرون وفق متوالية هندسية على مرّ الأجيال أي أنّ الاثنين يصبحون أربعة والأربعة ستة عشر بل أكثر بفضل الله تبارك وتعالى، وإذا به بعد أجيال يكون من ذريته الآلاف من الصالحين وتستمر حسناته بالزيادة، فاغتنموا هذه الفرص بفضل الله تعالى ولطفه.

(وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)^(١) [مريم: ٤٨]
 المعنى الصحيح للاعتزال

دين الاجتماع:

الإسلام دين الاجتماع والتواصل ومظاهر ذلك كثيرة كالحج وصلاة الجماعة والجمعة ومنها تشريع العيد ففي دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في وداع شهر رمضان عن يوم الفطر (الذي جعلته... لأهل ملتك مجمعاً ومحتشداً) وفي الرواية عن الإمام الرضا (عليه السلام): (إنما جعل يوم الفطر العيد ليكون للمسلمين مجتمعاً يجتمعون فيه ويبرزون لله عز وجل فيمجدونه على ما منَّ عليهم، فيكون يومَ عيدٍ ويوم اجتماع)^(٢)، وهو دين إعمار الحياة المثمرة وبناء الأمة الصالحة الوسط الشاهدة على الناس جميعاً.

مضافاً إلى أن وظائف كثيرة لا يمكن القيام بها إلا بالتواصل مع الناس كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتكافل الاجتماعي وتعليم أحكام الدين. وورد النهي عن الترهّب وترك إعمار الحياة كقوله (ﷺ): (ليس في أمتي

(١) الخطبة الأولى التي ألقاها سماحة آية الله العظمى الشيخ محمد اليعقوبي (رحمته الله) لصلاة عيد

الفطر السعيد يوم الجمعة عام ١٤٣٤ الموافق ٩/آب/٢٠١٣ م.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ٥٢٢/١، ح ١٤٨٥.

رهبانية^(١)، ويشرح (عليه السلام) معناها لعثمان بن مضعون عندما أراد الترهّب: (إن ترهّب أمتي الجلوس في المساجد انتظاراً للصلاة) فيعطي (عليه السلام) للرهبانية معنى اجتماعياً واسعاً خلافاً للمعروف عنها.

ويخاطب أمير المؤمنين (عليه السلام) العلاء بن زياد الحارثي لما اعتزل الحياة وترهّب: (يا عُدَيَّ - تصغير عدو - نفسه: أترى أن الله أحلّ لك الدنيا وهو يكره أن تأخذ منها؟)^(٢).

الحث على العزلة:

في مقابل ذلك توجد روايات كثيرة حثّت على الانفراد والعزلة عن الناس وذكرت فضل العزلة والآثار المباركة فيها كقول رسول الله (ﷺ): (العزلة عبادة) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (في الانفراد لعبادة الله كنوز الأرباح) وعنه (عليه السلام): (ملازمة الخلوة دأب الصلحاء) وعنه (عليه السلام): (الوصلة بالله في الانقطاع عن الناس)^(٣) وعن الإمام الرضا (عليه السلام): (يأتي على الناس زمان تكون العافية فيه عشرة أجزاء، تسعة منها في اعتزال الناس وواحدة في الصمت)^(٤).

إشكال ورد:

وهنا قد يثار إشكال منشأ وجود التنافي بين التوجيه بالعزلة والمنحى

(١) بحار الأنوار: ١١٥/٧٠ عن الخصال للصدوق: ١٣٨/١.

(٢) نهج البلاغة:

(٣) راجع مصادرها في ميزان الحكمة: ١٧/٦.

(٤) سفينة البحار: ٢٣٣/٦ عن كمال الدين.

الاجتماعي لدين الإسلام؟

ويجاب هذا الإشكال بأكثر من مستوى:

الأول: أن نضع هذه الأحاديث في موضعها الصحيح ولا نأخذها على إطلاقها، ونتعرف على المخاطبين بها وحالاتهم، ومن تلك الحالات التي خاطبتها هذه الأحاديث المحببة للعزلة:-

١- وهي أوضحها: عندما يكون الاختلاط بالناس سبباً للوقوع في المعاصي فإن المجالس لا تخلو غالباً من المحرمات بل الكبائر، وعلى رأسها الغيبة التي جعلها الناس فاكهة المجالس، وهي من الموبقات التي توجب إحباط العمل وذهاب الدين، عن رسول الله (ﷺ) قال: (الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه) وعنه (ﷺ): (إن الرجل ليؤتى كتابه منشوراً فيقول: يا رب، فأين حسنات كذا وكذا عملتها ليست في صحيفتي؟ فيقول: محيت باغتيابك الناس)^(١) ووصفتها بعض الروايات بالنار التي يرسلها على مغروساته - وهي الأعمال الصالحة - فيحرقها.

وينبغي الالتفات إلى أن المجالس لا تختص باللقاءات المباشرة بل تشمل اليوم ما يحصل من حوارات ولقاءات عبر مواقع التواصل الاجتماعي وتؤدي أحياناً إلى أمور محرمة كأحاديث الحب والغرام مع الجنس الآخر من دون مسوغ شرعي، وبعضهم يستفتي عن جواز تبادل هذه الأحاديث بين امرأة متزوجة ورجال أجانب من دون علم الزوج ويسأل هل هذا جائز؟ فتصوروا الانحدار

(١) ميزان الحكمة: ٥٠٦/٦.

والتسافل!.

فهذه الموبقات وأمثالها من نتائج الاختلاط غير المنضبط، لذا كان في العزلة الحفاظ على الدين وعلى ما حصل عليه من الطاعات. عن رسول الله (ﷺ) قال: (العزلة سلامة) وعن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (لا سلامة لمن أكثر مخالطة الناس) (سلامة الدين في اعتزال الناس) (من اعتزل سلم ورعُه) (مداومة الوحدة أسلم من خلطة الناس)^(١)، ولذا قيل إن ((في العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسلامة العيش وكسر سلاح الشيطان والمجانبة من كل سوء وراحة الوقت، وما من نبي ولا وصي إلا واختار العزلة في زمانه إما في ابتدائه وإما في انتهائه))^(٢).

٢- عندما يكون الاختلاط مع الناس والحضور في مجالسهم مسبباً لتشوش الفكر بالأحاديث الفارغة المضیعة للوقت وتسمى مجالس البطالين، وقلنا أنها تشمل ما يعرف اليوم بالحوار عبر الإنترنت والرسائل القصيرة ومكالمات الهواتف المحمولة، وأغلب لقاءات الناس ومجالسهم ومحادثاتهم من هذا القبيل، فكل ما يدور فيها هذر من الكلام وعبث ولهو باطل كأحاديث الألعاب الرياضية أو الشؤون العائلية الخاصة بالناس الآخرين.

فإذا تشوش الفكر بهذه الأحاديث فإنه لا يكون مؤهلاً للإقبال على الله تبارك وتعالى والأنس بذكره، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (من انفرد عن الناس أنس بالله سبحانه) (الانفراد راحة المتعبدين) وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (لو

(١) ميزان الحكمة: ١٨/٦.

(٢) سفينة البحار: ٢٣٣/٦.

ذُقْتَ حلاوة الوحدة لاستوحشت من نفسك) ومن حِكم لقمان: (إن طول الوحدة أفهم للفكرة، وطول الفكرة دليل على طريق الجنة). لذا كان اعتياد هذه المجالس سبباً للحرمان من القرب الإلهي كما في دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) في ليالي شهر رمضان: (أو لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتنني أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني، أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فيني وبينهم خلّيتني)، وفي وصية الإمام الكاظم (عليه السلام) لهشام بن الحكم: (الصبر على الوحدة علامة قوة العقل، فمن عقل عن الله اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها، ورغب فيما عند الله، وكان الله أنيسه في الوحشة، وصاحبه في الوحدة، وغناه في العيلة، ومُعزّه من غير عشيرة).

٣- عندما لا يكون الفرد قادراً على أداء حق الاختلاط مع الناس ومراقبة ما يجري فيها ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فمثل هذا يكون الأفضل له تجنب الاختلاط إلا بما هو ضروري حتى لا يكون من الساكتين على الباطل والراضين بالظلم، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل، فإن عليك في خروجك أن لا تغتاب ولا تكذب ولا تحسّد ولا ترائي ولا تتصنع ولا تدهن) وعنه (عليه السلام) قال: (أقلُّ ما يجد العبد في الوحدة الراحة من مداراة الناس).

الثاني: أن نفهم من معنى العزلة غير المعنى المتعارف وهو الانكفاء على الذات وترك الاختلاط بالناس فلا يرد الإشكال أصلاً، وإنما يراد باعتزال الناس مباينتهم في السلوك والأفعال المخالفة للشريعة، فلا مانع من أن

يعيش المؤمن وسط المجتمع بكل فئاته بشرط أن يكون متميزاً بعقيدته وأخلاقه وسلوكه وتقييمه للأمور عن أهل المعاصي ولا يتأثر بشيء من انحرافاتهم أو يداهن أو يجامل أو يتنازل عن شيء، وبثباته ومبدئيته سوف يكون موقفه قوياً مؤثراً في الآخرين وهادياً ومصلحاً لهم.

وهذه المباينة في العقيدة والسلوك مع أهل الباطل جعلها الله تعالى في القرآن الكريم علامة فارقة لسلوك الأنبياء (عليهم السلام) مع مخالفينهم والمتمردين عليهم، قال تعالى: [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ] (الكافرون: ١-٣) وقال تعالى: [وَأَعْتَزَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا، فَلَمَّا اعْتَرَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا] (مريم: ٤٨، ٤٩).

لكي لا ينحرف الدين وتضيع معالمه:

إن الاختلاط وعدم التمايز في الرؤية والتوجهات والسلوك بين المؤمن وغيره خطير جداً لأنه يؤدي لتشويه صورة الدين وتمييعه وتضييع هويته وانحراف أحكامه حتى يصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً والأخطر من ذلك أنه يعطي مشروعية للانحراف والفساد بعد أن اختلط الحق بالباطل ولم يبق مائزٌ بينهما.

خذ مثلاً سلوك السياسيين فهل تجد فرقاً بين من يرفع شعاراً إسلامياً ويعتبر حزبه إسلامياً وبين الآخرين؟ فإذا لم تجد فرقاً من حيث الفساد والاستئثار بأموال الشعب والأنانية وعدم الاكتراث بحال الشعب وعدم الاهتمام بإعمار البلد وازدهاره، فماذا سيبقى في يدك من أدوات لإقناع المجتمع بمشروع الإسلام

ونظامه في سياسة الأمة وإدارة شؤون البلاد؟.

وهكذا على صعيد السلوك الشخصي إذا كان (المتدين) يكذب ويخلف الوعد ويغشّ ويعتدي على حقوق الآخرين ويفتري عليهم ويكيد لهم فكيف سيحب الناس التدين والالتزام بالشرعية؟.

وللعلم فإن أهل الباطل يحاولون جاهدين لاستدراج أهل الحق حتى يكونوا مثلهم، كما لو وُجد موظف نزيه مثابر في عمله يخدم الناس بإخلاص فإنهم يقومون بكل وسائل الضغط والترغيب والترهيب ليتخلى عن مبادئه ويصبح مثلهم، ليعطوا المبررات لأنفسهم ويتخلصوا من محاسبة الضمير وليصبغوا أفعالهم بالشرعية، فالعزلة والاعتزال الذي حث عليه الآيات الكريمة والروايات الشريفة يعني إبقاء الخط الفاصل بين المنهجين والسلوكين والرؤيتين.

الثالث: أن يكون الاعتزال بمعنى الانقطاع عما سوى الله تعالى وعدم التمسك بأي سبب من المخلوقات، عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال: (لا يكون العبد عابداً لله حق عبادته حتى ينقطع عن الخلق كلهم إليه فحينئذٍ يقول: هذا خالص لي، فيقبله بكرمه)^(١).

فذكرُ الله تعالى والتمسك بالنبي وآله الكرام (صلوات الله عليهم وسلامه) وولاية أهل البيت (عليهم السلام) هو الكهف الذي نكون فيه دائماً ونأوي إليه باستمرار وان كنّا في أوساطهم، قال تعالى: [وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقاً] (الكهف: ١٦).

(١) بحار الأنوار: ١١٢/٧٠ عن عدة الداعي: ٢٣٣.

مع السيد الشهيد الصدر الثاني:

روى لي السيد الشهيد الثاني (قَدْ رَسَّيْتُ) هذه القصة ويبدو أنها حصلت له بعد معاناة اعتقاله عام ١٩٧٤ قال: ((إنني يوماً فتحت القرآن الكريم لأجد فيه منزلي أمام الله سبحانه أو قل - بالتعبير الدنيوي - (رأي) الله فيّ، فخرجت هذه الآية من سورة الكهف: [وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مَّرْفَقًا]، إن كل هذه الآية مفهومة لي بحسب حالي يومئذٍ إلا قصة (الكهف) الذي يكون من المطلوب أن آوي إليه، أي كهفٍ هذا؟ وذهبت إلى الحرم العلوي (على ساكنها السلام) عسى أن يفتح لي هناك عن هذا المعنى، وبدأت بزيارة (أمين الله) حتى وصلت إلى قوله (عَلَيْهِ السَّلَام): (اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرك راضية بقضائك.. إلى قوله: يا كريم) وقد حصل لي في تلك اللحظة (حدس) قوي بأن الكهف الذي يجب أن أدخله هو هذا، أي أن تصبح نفسي على هذه الأوصاف وتجنب ما سواها، وقد عرضت ذلك على (مولاي) فأقرّه وقال بصحته^(١).

وفي ضوء ما تقدم يندفع الإشكال وأن المعاشرة مع الآخرين أفضل من العزلة إذا كانت مثمرة ونافعة ويؤدي فيها الفرد وظائفه ولا تستدرجه المجاملات إلى الوقوع في المعاصي؛ لأن الاختلاط مع الآخرين يوفر فرصاً عظيمة للطاعة كقضاء حوائج الناس وإدخال السرور عليهم وهدايتهم وإرشادهم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك.

(١) قناديل العارفين: ١٥٣.

الحل الوسط:

روي عن رسول الله (ﷺ) قوله: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على اذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على اذاهم) وقال (ﷺ) لرجل أراد الجبل ليتعبد فيه: (لصبر أحدكم ساعة على ما يكره في بعض مواطن الإسلام خير من عبادته أربعين سنة)^(١)، وعليه أن يكون يقظاً ملتفتاً حتى لا يتسبب اختلاطه مع الناس بالوقوع في المعاصي أو تشويش فكره بفضول الكلام، وأن يلتزم بمبادئه والأفعال الموافقة للشرعية ويعتزل سلوكياً الآخرين ويحذر من مناهجهم ورؤيتهم.

أما من لا يملك الشجاعة والمعرفة والقدرة على أداء وظائفه مع الآخرين فالحل المناسب له تقليل اختلاطه بالناس والاقتصار على مقدار الضرورة وأن يحرص على مجالسة ومحادثة من يقربه إلى الله تعالى، روي الإمام الصادق (عليه السلام) عن النبي (ﷺ) قال: (قالت الحواريون لعيسى (عليه السلام): يا روح الله، من نجالس؟ قال: من يذكركم الله رؤيته ويزيد في علمكم منطقه ويرغبكم في الآخرة عمله)^(٢) وفيه إشارة إلى أن من لم تستفد منه هذه الأمور فلا تضيع وقتك^(٣) وعمرك الثمين بمجالسته أو محادثته عبر الإنترنت وأجهزة الاتصال ومصاحبه، فكيف بمن تكون مجالسته سبباً لعكس هذه الصفات كما هو حال

(١) نقلها عن مصادرها في ميزان الحكمة: ١٩/٦.

(٢) سفينة البحار: ٢٣٥/٦.

(٣) عن الإمام الباقر، عن آبائه (عليهم السلام) في وصية النبي (ﷺ) لعلي (عليه السلام) قال: (يا علي من لم ينتفع بدينه ولا دنياه فلا خير لك في مجالسته.. مكارم الأخلاق، وصية النبي (ﷺ) لعلي (عليه السلام)).

أغلب الناس مع الأسف؟ لذا ورد في بعض الأحاديث: (فرَّ من الناس فرارك من الأسد)^(١).

إن المؤمن له أنس برَّبِّه لا يستوحش معه ولا يحتاج إلى غيره إلا بمقدار الضرورة، وينفر من مخالطة الناس أزيد من ذلك ومجاملتهم ومداهنتهم، عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (ما من مؤمن إلا وقد جعل الله له من إيمانه أنساً يسكن إليه حتى لو كان على قلة جبل لم يستوحش)^(٢) وروي عنه (عليه السلام) قوله: (خالط الناس تخبرهم ومتى تخبرهم تَقْلُهم - من القلى أي البغض والاجتناب-).
فترجيح الاختلاط أو العزلة وتحديد مقدارهما يدور مدار ما يقربك إلى الله تبارك وتعالى ويجنبك معصيته ولا يحرملك من طاعته .

وعلى أي حال فإن الاعتزال فترة محددة أمر مفيد، فقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يعتزل الناس في غار حراء في مكة، أما في المدينة فقد كان يطوي فراشه ويشد مئزره للعبادة في العشرة الأواخر من شهر رمضان.
ولأجل تحقيق هذا النقاء وتصفية الباطن لله تعالى شرَّع الاعتكاف في المساجد، وقد وردت الأحاديث في فضله وآثاره المباركة.

ونثني هنا على المبادرة التي يقوم بها جمع كبير من الشباب وطلبة

(١) في مصباح الشريعة: روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال: (قال عيسى بن مريم عليه السلام: اخزن لسانك لعمارة قلبك، وليسعك بيتك وفرَّ من الرياء وفضول معاشك، وابك على خطيئتك، وفرَّ من الناس فرارك من الأسد والأفعى، فإنهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء، ثم الق الله متى شئت) نقلاً عن بحار الأنوار: ١١٠/٦٧.

(٢) الحديث وما بعده في بحار الأنوار: ١١١/٧٠ عن عدة الداعي: ٢٣٢.

الجامعات منذ عدة سنوات بإقامة العشر الأواخر من شهر رمضان إلى جوار أمير المؤمنين (عليه السلام) ويُنظَّم لهم برنامج عبادي وتثقيفي مفيد بفضل الله تبارك وتعالى.

(الذين استجابوا لله والرسول من

بعد ما أصابهم القرح)^(١) [آل عمران : ١٧٢]

الاستمرار بالعمل الرسالي رغم الصعوبات

واقعة حمراء الأسد:

بالأمس كان هنا وفد من المصلين في جامع الرحمن في منطقة سبع البور شمال بغداد التي استهدفها تفجير انتحاري مجرم^(٢) أثناء إقامة صلاة العشاءين فاستشهد (١٥) بينهم إمام المسجد وأخواه وجرح (٢٥)، وكان مع الوفد عدد ممن أصيبوا في الحادث وقد أشاروا في حديثهم إلى أنّ عدد المصلين ازداد بعد هذا الحادث المروّع، كما ازداد عدد السيارات التي تتوجه أسبوعياً من المنطقة لزيارة الإمامين العسكريين ورفع الغربة عن روضتهما المطهرة في سامراء.

ومن لطيف الصدف أن تكون زيارتهم في يوم ذكرى واقعة مشابهة حصلت في زمن النبي (ﷺ) تسمى (حمراء الأسد) بعد معركة أُحُد^(٣) بيوم أو أكثر وهي غزوة لا يعرف تفاصيلها إلا من ندر، وفيها درس ينطبق على الوفد

(١) من حديث سماحة المرجع العنقوبي (دام ظلّه) مع موكب السراج المنير من القرية العصرية في الناصرية يوم ١٧/شوال/١٤٣٤ المصادف ٢٥/٨/٢٠١٣.

(٢) وقع الحادث يوم السبت ١٢/شعبان/١٤٣٤ المصادف ٢٢/٦/٢٠١٣ وقد أصدر سماحة المرجع (دام ظلّه) بياناً في ذلك، أنظره في خطاب المرحلة: ج ٨ ص ٣٠٧.

(٣) وقعت معركة أُحُد يوم ١٥ شوال من السنة الثالثة من الهجرة.

الزائر وعلى واقعنا المعاصر وهو من دروس واقعة أُحُد وتداعياتها.

وقد تضمنت سورة آل عمران في القرآن الكريم دروساً ومواقف وعبر من معركة (أُحُد) التي تآمر فيها بعض المسلمين المتواطئين مع قريش على أن يشيعوا أن رسول الله ﷺ قد قُتل ليربكوا جيش المسلمين ويفرقوهم، وعصى بعض المسلمين أوامر رسول الله ﷺ وركنوا إلى الدنيا فتحول النصر الذي تحقق على يد أمير المؤمنين (عليه السلام) في بداية المعركة إلى هزيمة للمسلمين فاستشهد (٧٠) على رأسهم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وعاد المشركون متجهين إلى مكة، لكنهم تلاوموا في الطريق بأنهم لم يقضوا على النبي (ﷺ) ولا سيطروا على المدينة لاستئصال الدين الجديد فقرروا العودة باتجاه المدينة.

فنزل الوحي على رسول الله ﷺ وأخبره بعزم قريش وأن تكليفه الخروج بمن معه لمواجهةهم وإراءتهم أن ما حلّ بهم يوم أُحُد لم يضعف عزيمتهم ولم يُقلل من قوتهم واشترط أن لا يخرج معه إلا من شهد أُحُدًا، وكانوا متخنين بالجراح مفجوعين بأحبتهم ومهزومين معنويًا، فاستجابوا لرسول الله ﷺ وخرجوا معه لملاقاة قريش المزهوة بالانتصار والتي تفوقهم عدة وعدداً وأعطى أبو سفيان أموالاً لبعض القوافل المتجهة إلى يثرب ليخوِّف المسلمين ويرعبهم وأن قريش قد جمعت لكم الجموع لكنهم أصرّوا على المضي مع رسول الله ﷺ وقالوا: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران/١٧٣).

روى في الدر المنثور ((أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ) من الأنصار كان شهد أُحُدًا قال: شهدت مع الرسول (ﷺ) أُحُدًا، أنا وأخ لي

فرجعنا جريحين، فلما أذن رسول الله (ﷺ) بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي أو قال لي: تفوتنا غزوة مع رسول الله (ﷺ)؟ مالنا من دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله (ﷺ) وكنت أيسر جرحاً منه، فكنت إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون، فخرج رسول الله (ﷺ) حتى انتهى إلى حمراء الأسد وهي من المدينة على ثلاثة أميال فأقام بها ثلاثاً ثم رجع إلى المدينة^(١) لأن أبا سفيان لما علم بخروج النبي (ﷺ) وأصحابه الموتورين في أحد خشي أن يقابلهم وهم قادمون للانتقام من قريش، مضافاً إلى شخصٍ ممن أسلم حديثاً لكنه لم يعرف أبو سفيان بإسلامه توجه إلى أبي سفيان وحذره من ملاقة المسلمين لأنهم خرجوا عن بكرة أبيهم لينتقموا من قريش وتسمى هذه الغزوة (حمراء الأسد) باسم الموضع الذي مكث فيه رسول الله (ﷺ) منتظراً قدوم قريش.

الدروس المستفادة من هذه الواقعة:

وإنما ذكرت ملخص الواقعة لأن القليل ممن يعرفها، ولا شك أن معرفتها توفر بيئة لفهم الآيات المتعلقة بها ليستطيع تدبرها وأخذ الدرس منها، قال تعالى (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) وهم من شاركوا في أحد وأصيبوا لكنهم استجابوا لدعوة رسول الله (ﷺ) وخرجوا معه (مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ) وهو القتل والجرح والآلام في معركة أحد (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ) فالقبول لا يكون إلا من الذين اتقوا والذين هم محسنون: (الذين قال لهم الناس) وهم

المنافقون وبعض المهاجرين الذين يحتفظون بولائهم لقريش مضافاً إلى من بعثهم أبو سفيان لإرعاب أصحاب رسول الله (ﷺ) (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ) وهم قريش (فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) وكان هذا دليل نجاحهم في الاختبار وصحة إيمانهم (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ) وهو الأجر العظيم الذي ذكر آنفاً وانتصارهم على الخوف الذي زرعه فيهم الشيطان وأوليائه، وفي تحوّل هزيمتهم إلى نصر حيث راحوا يلاحقون قريشاً وفي تحوّل نصر قريش إلى هزيمة حيث جبنوا عن لقاء النبي وأصحابه وآثروا الرجوع إلى ديارهم (لَمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ) إذ دفع الله تعالى عنهم قريش ولم يحصل قتال (وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) (آل عمران: ١٧٢-١٧٤).

لكي لا نشعر بالإحباط:

إننا في العراق نصاب يومياً بالجروح والقروح حتى إنه لم يبق مكان آمن من التفجيرات والاستهدافات فما أخرجنا إلى استلهم هذا الدرس والاستفادة منه بأن لا نشعر بالإحباط واليأس مما يحلُّ بنا، بل نللم جراحنا ونتقدم في العمل حتى نحصل على ما ذكرته الآية الشريفة (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ) (آل عمران/١٧٤) فإن هذا هو ما نبحت عنه ونريده وهو هدفنا، وليس نريد شيئاً مما يريده أهل الدنيا حتى إذا فاتنا ينتهي كل شيء، وإذا تخلينا عن أهدافنا وهويتنا بسبب هذه الأعمال الوحشية فقد أعطينا للعدو مراده، فالرد الصحيح هو بالمضي في العمل الرسالي الذي يرضي الله تبارك وتعالى ورفع الهمة والعزيمة في التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

بقية السيف أبقى عددا:

والمثال الآخر لهذه المواقف الربانية ما حصل في حسينية حبيب بن مظاهر القريبة من جامعة الإمام الصادق (عليه السلام) في حي القاهرة ببغداد وكان يرتادها جمع من طلبة الجامعة لأداء صلاة الظهرين ويطالعون دروسهم استعداداً للامتحانات، فامتدت يد الحقد والحسد والتكفير إلى هذه الفئة الصالحة وفجّر انتحاري نفسه وسط الجمع ثم تلاه آخر^(١)، وكانت حصيلة التفجيرين (٣١) شهيداً و (٥٧) جريحاً، والذي حصل بعد الحادث زيادة المصلين في الحسينية من الطلبة الجامعيين وأبناء المنطقة وتصدي أحد الفضلاء لإمامة الجماعة فيها.

إن هاتين الجماعتين خير مثال لقول أمير المؤمنين (عليه السلام) (بقية السيف أبقى عدداً وأكثر ولدا)^(٢) لأنها استجابت لله ولرسوله بعد أن أصابهم القرع وقد وعد الله تعالى بأنهم يعودون بنعمة من الله وفضل أسوة بأصحاب النبي (ﷺ) الذين خرجوا معه إلى (حمراء الأسد).

وقائع القرآن لدروس للتربية والهداية:

إن الوقائع التي يحكيها القرآن الكريم ليست حوادث تاريخية وقصصاً تذكر للتسلية والاطلاع بل هي دروس حيّة ورسالة هداية وإصلاح وثبات على صراط الحق لجميع الأجيال حتى يوم القيامة، ومنها هذه الآيات سورة آل عمران التي لم تكن مفهومة بهذا الشكل قبل أن نتعرف على بيئتها وظروفها، وعرفنا الآن إنها دعوة للثبات والاستمرار في الاستجابة لله ولرسوله في بناء النفس وإصلاح المجتمع ورفع المعنويات غير متأثرين بالمصائب والآلام.

(١) وقع الحادث يوم الثلاثاء ٨/شعبان/١٤٣٤ المصادف ٢٠١٣/٦/١٨.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم: ٨١.

(١) (ولا تهنوا في ابتغاء القوم)

[النساء : ١٠٤]

لكي نعالج العلل لا المعلولات فقط:

لا شك أنّ الابتلاءات التي تعصف بالعراق وأهله شديدة قلّما يتعرّض لمثلها شعب آخر، ولا تقتصر على الوضع الأمني الذي أصاب الناس بالخوف والقلق حيث لم تعد فيه مدينة آمنة، وإنّما يتعدّاه إلى الوضع الاقتصادي المزري بكثير من الناس، وكذا الجانب الخدمي والاجتماعي والسياسي البائس.

وهذه الأوضاع المزرية لها أسبابها طبعاً، والمصلح الحاذق -كالطبيب الماهر- يبحث عن علّة الداء فيعالجها، ولا يكتفي بمعالجة الأعراض المرضية ولسنا بصدد بيان هذه العلل، وإنّما نريد أن نلفت النظر، إلى أن هذه البلاءات يمكن أن يكون تأثيرها على الأمة إيجابياً فتكون سبباً ومقدمة ليقظة الأمة ونهضتها وحركتها نحو ما يصلحها ويعيد إليها عزّها وكرامتها، ويمكن أن يكون دورها سلبياً فتكون سلباً ليأس الأمة وفشلها وإحباطها ونومها وانهارها، ومثال ذلك: أنّ من يكون متعباً بحاجة إلى النوم فإنّه يتشاءب، ومن يستيقظ من نومه

(١) من حديث سماحة المرجع العنقوبي (دام ظلّه) مع وفد من أهالي الحمدانية وسهل نينوى التابعة للموصل زاروا سماحته يوم الأربعاء ٢٧ شوال ١٤٣٤ الموافق ٢٠١٣/٩/٤، وقد تضمن التحذير من ضياع الموصل قبل سقوطها بيد الدواعش التكفيريين في ٩/٦/٢٠١٤.

يثئاب، فالحالة واحدة وهي (الثأوب) إلا أنها قد تكون مقدّمة ومؤشراً للصحة والاستيقاظ والنشاط والحيوية، وقد تكون علامة على الكسل والخمول والركود والنوم.

ولا شك أن المطلوب من الأمة الحيّة الواعية المتطلّعة إلى الارتقاء والازدهار، تجعل هذه الصعوبات والمحن والضغط سبباً لتكاملها وتقدّمها ويقظتها واستشعارها لمسؤولياتها.

درس من معركة أحد:

وهذا الدرس نستفيده من القرآن الكريم وهو يتناول تداعيات معركة أُحد، قال تعالى: (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ) (النساء/١٠٤) فالآية تدعو المؤمنين إلى عدم الضعف والاستكانة والانهمام أمام الضغوط والتحديات وأن لا يقصّروا في متابعة القوم والاستمرار في مواجهتهم في كل ساحات العمل والتحدّي سواء كانت عقائدية أو فكرية أو اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو عسكرية وغير ذلك، وتهيئة كل أسباب ومقومات هذه المواجهة، ولا يقعدكم ما يصيبكم من ألم القتل والجراح والخسائر والجهود، لأنّ الآخر يصيبه نفس ما يصيبكم ومع ذلك فإنّه لا ينسحب من المواجهة ويستمر في استهدافكم فلماذا تشعرون أنتم بالوهن والضعف والانسحاب، مع أنّ عندكم ميزة ليست عند أعدائكم وهي أنّكم ترجون ما عند الله تعالى من الرضوان ومجاورة أحبّائه وأوليائه (صلوات الله عليهم أجمعين) وهذا يشكّل حافزاً ودافعاً قوياً يفتقده خصمكم.

من كان مع الله كان الله معه:

ولهذا جاءت الآية الأخرى لتطمئن المؤمنين وتقول لهم (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران/١٣٩) فالضعف والتخاذل والخوف والقلق غير مبرر لأنكم الأعلون دائماً بطاعتكم لله تبارك وتعالى ورجائكم لما عنده وموالاته أوليائه، فأنتم أعلون إن كنتم ترجون من الله تعالى رضوانه.

وأنتم أيها الأحبة في الموصل وسهل نينوى قد كثر استهدافكم لأسباب سياسية واقتصادية وجغرافية وقومية وطائفية فكثر أعداؤكم وعظمت محنتكم، لكن لا يكن كل ذلك سبباً للتصلب عن مسؤولياتكم التي يمكن أن نلفت النظر إلى عناوين بعضها:

- ١- وحدتكم لأن فيها قوتكم وقدرتكم على تحصيل حقوقكم وتوجب احترام الآخرين بوجودكم، والالتفاف حول المخلصين من أبنائكم.
- ٢- تأسيس المنظمات الخيرية لمساعدة العوائل المحتاجة والأرامل والأيتام وهم كثر خلّفتهم المحنة الشديدة والطويلة والشرسة وقد أعطيت الأذن للمؤمنين بأن يصرفوا حقوقهم الشرعية في هذا المورد.
- ٣- تشجيع جملة من شبابكم الواعين المحبين للعلم ليلتحقوا بالحوزة العلمية في النجف الأشرف ليكونوا حلقة الوصل مع المرجعية الرشيدة وليفقهوكم في الدين ليعززوا عقيدتكم ويثبتوا قلوبكم على الحق.
- ٤- المواظبة على إقامة شعائر الدين من صلوات الجمعة والجماعة وإحياء الشعائر الحسينية وإعمار المساجد، وجعلها منبراً للتوعية والتربية

والتزوّد بالأخلاق والمعرفة.

لكي تستجيبوا لله ورسوله:

وأنتم بالتزامكم بهذه الخطوات العملية وأمثالها تتحقّق استجابتكم للآية المتقدمة (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ) لأنّ عدم الوهن يتحقق من خلال الاستمرار بالنهوض بالواجبات التي أشرنا إلى عدد منها.

إنّ المتقاعس والمتخاذل سوف لا ينجو من البلاء وسيصيبه بشكل أو بآخر فتكون خسارته مضاعفة لأنّه سيدوق الألم وسيحرم من الأجر والثواب لأنّه لم يربط لأداء مسؤولياته، فترون الانفجارات لا تفرّق بين سنّي وشيعي أو عربي و شبكي أو صغير وكبير أو رجل وامرأة، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: (إنّك إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور)^(١) فالأقدار والبلاءات جارية على كل حال وأنت بموقفك -إيجاباً أو سلباً- محدّد أثرها عليك؛ والمهم أن تكون دائماً ممن ترجو الله تبارك وتعالى وتحتسب عنده، واجعل هذا دائماً الفرق بينك وبين خصمك كما أشارت إليه الآية المتقدمة ومحتكم هذه تلزم الجميع بالوقوف إلى جانبكم ومد يد العون لكم ورفع الظلم والحيث عنكم، وتأكّد أكثر على أبناء قوميتكم ومنطقتكم الذين تبوؤا المواقع المتنفّذة بأصواتكم ولا يجوز لهم الانشغال عن همومكم وآلامكم بمصالحهم الشخصية والفئوية.

(١) منتخب ميزان الحكمة: ٣٦٠ رقم ٣٤٥٥.

(ونحشُرهُ يومَ القيامةِ أعمى)^(١)

[طه : ١٢٤]

عميت عين لا يراك:

من دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة وهو يناجي ربه بكل تذلل وخضوع (عميت^(٢) عينٌ لا تراك عليها رقيباً وخسرت^(٣) صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً) وهاتان الفقرتان فضلاً عن بقية فقرات الدعاء تزودنا بقواعد في السلوك المعنوي إلى الله تبارك وتعالى، وتدُلُّنا على الجناحين اللذين نطير بهما في سماء الكمال ومعرفة الله تعالى وبلوغ رضوانه وهما المراقبة والحب، مراقبة الله تعالى في كل الأفعال والأقوال والمواقف، واحتواء القلب على محبة الله تعالى حتى يكون هذا الحب هو البوصلة الموجهة لكل الحركات والسكنات، وبالحب والمراقبة تتحقق التقوى التي هي خير الزاد ليوم المعاد (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَآتَقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ) (البقرة/١٩٧).

فالشخص الذي يفعل ما يحلو له من دون إحساس وجداني بأن الله تعالى

(١) حديث سماحة المرجع العيني (رحمته الله) مع حشد من الزوار يوم الاثنين ٨ ذ.ح ١٤٣٤هـ المصادف ٢٠١٣/١٠/١٤.

(٢) (٣) العبارة تحتل أن تكون إخباراً عن العين والصفقة بأنهما تعمى وتخسر وقد تكون إنشاءً بمعنى الطلب من الله تعالى أن يعمي العين ويخسر الصفقة وكلاهما وارد.

مطلع عليه وأنه بمحضر رب العزة والجلال دائماً (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) (غافر/١٩) (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) (آل عمران/٥) (وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) (إبراهيم/٣٨) مثل هذا الشخص لا يبصر الحقيقة وهو أعمى البصيرة وإن كانت له عينان تبصران: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف/١٧٩) (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًى وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) (الإسراء/٩٧).

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) (طه/١٢٤-١٢٦).

عقوبة الإعراض عن ذكر الله تعالى:

فمن يعرض عن ذكر الله تعالى ويهمل وظائف العبودية لربه تحصل له عقوبتان:

الأولى: المعيشة الضيقة النكد الملية بالقلق والخوف وعذاب الضمير ويزداد هذا الضيق قسوة عليه عند الموت وما بعده في القبر والبرزخ.

الثانية: يُحشر يوم القيامة أعمى لا يرى طريق السعادة والنجاة ورضوان الله تعالى وإن كان يرى العذاب والألم والأهوال أي أنَّ عماه ليس مطلقاً وإنما عن خصوص ما ينجيه ويوصله إلى السعادة والفلاح أمَّا العذاب والألم والمصير

المشؤوم فإنه يراه (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) (ق/٢٢) (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ) (الفرقان/٢٢) (وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ كَمَا رَأَوْا الْعَذَابَ) (يونس/٥٤) (سبأ/٣٣) (وَتَرَى الظَّالِمِينَ كَمَا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ) (الشورى/٤٤) (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ) (البقرة/١٦٦) لأنه كان هكذا في دار الدنيا، كان معرضاً عن الهداية والرشد ولا يرى طريق السعادة لكنه كان يبصر الشهوات والهوى والدنيا فتجلت حقيقته في الآخرة كما اختار هو في الدنيا (وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) (الإسراء/٧٢) وبهذا نرد على إشكال بعض متحذلقه الكلام بوجود تناقض في القرآن الكريم بين آيات الإبصار والرؤية وآيات العمى.

ولأن هذا الشخص نسي ذكر ربه وأعرض عن آياته وأهملها فكان جزاؤه يوم القيامة أن يُنسى بمعنى يهمل ولا يلتفت إلى استغاثته وندائه واستصراخه كما يقول أحدنا لمن أهمله ولم يلتفت إليه إنك نسيته، فقد جوزي إذن بنفس فعله (وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) (الشورى/٤٠) روي عن رسول الله (ﷺ) قوله (ليس الأعمى من يعمى بصره، إنما الأعمى من تعمى بصيرته)^(١) والثاني أشد من الأول روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قوله (فقد البصر أهون من فقدان البصيرة)^(٢).

هل أنت من أهل البصيرة؟

وتدلنا الروايات على بعض علامات أهل البصيرة، كالمروي عن أمير

(١) كنز العمال: ١٢٢٠.

(٢) غرر الحكم: ٦٥٣٦.

المؤمنين (ﷺ) (أبصر الناس من أبصر عيوبه وأقلع عن ذنوبه)^(١) وعنه (ﷺ) (ألا إن أبصر الأبصار ما نفذ في الخير طرفه)^(٢).

ومن موجبات النور في الدنيا والآخرة بحسب ما أفادت الروايات الشريفة:

١- تقوى الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (الحديد/٢٨).

٢- الصلاة، عن رسول الله (ﷺ) قال (الصلاة نور)^(٣).

٣- تلاوة القرآن، عنه (ﷺ) (عليك بتلاوة القرآن، فإنه نور لك في الأرض، وذخر لك في السماء) وعن الإمام الحسن (ﷺ) (إن هذا القرآن فيه مصابيح النور).

٤- صلاة الليل، عن أمير المؤمنين (ﷺ) قال: (ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي (ﷺ): صلاة الليل نور).

٥- ترك فضول الكلام وهو مادة أكثر أحاديثنا في مجالسهم، عن أمير المؤمنين (ﷺ) قال: (أكثر صمتك يتوفر فكرك، ويستتر قلبك ويسلم من يدك).

٦- تجنب ظلم الآخرين، والآخرون المقصودون بالظلم يمكن

(١) غرر الحكم: ٣٠٦١.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٠٥.

(٣) مصادر الروايات المذكورة في هذه النقاط في ميزان الحكمة: ١٧٧/٩ وما بعدها.

أن يكونوا الوالدين أو الزوجة أو الأولاد أو الجيران لتضييع حقوقهم أو عموم الناس عند عدم مراعاة الحق والعدل والإنصاف معهم، روي أن رجلاً قال لرسول الله (ﷺ): أحبُّ أن أحشرَ يومَ القيامة في النور، قال رسول الله (ﷺ): (لا تظلم أحداً تُحشر يوم القيامة في النور).

٧- أن تشهد بالحق للآخرين وتنصفهم، على أي مستوى من المستويات كما لو أريد منك الشهادة لأحد بالصلاح وحسن السيرة لتزويجه أو بحق مالي له أو أي حق اعتباري آخر عن النبي (ﷺ) قال (من شهد شهادة حق ليحيي بها حق امرئ مسلم أتى يوم القيامة ولو وجهه نورٌ مدَّ البصر يعرفه الخلائق باسمه ونسبه).

٨- الدعاء، عن رسول الله (ﷺ) قال (أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، اللهم اجعل في سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي قلبي نوراً، اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري وأعوذ بك من وسواس الصدور وتشتت الأمور).

موجبات العمى:

أما ما يوجب العمى يوم القيامة هو كل إعراض وصدود عن شرع الله وحكمه وعدم العمل بكتاب الله وسنة رسول الله (ﷺ) في كل شؤون الحياة مما أصبح مألوفاً اليوم في الأسواق ومعاملاتنا التجارية وفي السنائن العشائرية وفي العلاقات الاجتماعية وفي السياسة والحكم وإدارة مؤسسات الدولة وغيرها كثير.

ولكل شريحة في المجتمع امتحانها وابتلاؤها بآيات الله التي يلزم العمل بها فلرجل الدين والطبيب والمدرّس والمهندس والكاسب والزوجة والابن والوالدين وغيرها من العناوين له الآيات والأحاديث التي تخاطبه وتنطبق عليه قوله تعالى (كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا) (طه/١٢٦) حيث بلغه تكليفه والمطلوب منه، عن النبي (ﷺ): (ومن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى فيقول: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا))^(١).

وقد علّمنا هذا الحديث وكلمة الإمام الحسين (عليه السلام) السابقة المدى الواسع لمن يمكن أن تشملهم الآية وأنه لا أحد -حتى الملتزمين بأداء العبادات الدينية- بمنأى عن حشرهم عمياً إذا لم يكونوا مراقبين لله تعالى متّقين عاملين بشكل تفصيلي بآيات الله تعالى.

وهذا يفسّر لنا لماذا يطلب الأئمة (عليهم السلام) منا أن نشعر بأننا مشمولون بكل آية فيها تخويف وإنذار وتهديد وأنها ليست مقتصرة على الكافرين والمشرّكين والمنافقين، ففي وصف سيرة الإمام الرضا (عليه السلام) أنه كان ((يكثّر بالليل في فراشه من تلاوة القرآن فإذا مرّ بآية فيها ذكر جنة أو نار بكى وسأل الله الجنة وتعوّذ من النار))^(٢) وروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله في صفة الذين يتلون حقّ تلاوته (ويرجون وعده ويخشون عذابه)^(٣) ونعود الآن إلى ذكر بعض الروايات التي

(١) ثواب الأعمال: ٣٣٧ ح ١.

(٢) عيون أخبار الرضا: ١٨٢/٢ ح ٥.

(٣) تنبيه الخواطر: ٢٣٦/٢.

شخصت بعض موارد هذا الإهمال للأوامر الإلهية الموجب للعمى ومنها:

١- عدم التمسك بولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ، عن الصادق (عليه السلام) في قول الله عز وجل (ومن أعرض عن ذكرى) قال (عليه السلام): يعني ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) وعن قوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى) قال (عليه السلام): (يعني أعمى البصر في القيامة أعمى القلب في الدنيا عن ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام)، وهو متحير يوم القيامة يقول (رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا) (طه/١٢٥-١٢٦) قال: الآيات الأئمة (عليهم السلام) (فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) (طه/١٢٦) يعني تركتها، وكذلك اليوم تترك في النار كما تركت الأئمة فلم تطع أمرهم ولم تسمع قولهم^(١).

٢- ترك الحج وهو مستطيع عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال (من مات وهو صحيح موسر ولم يحج فهو ممن قال الله عز وجل (وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) (طه/١٢٤)، قال أبو بصير: قلت: سبحان الله: أعمى قال: نعم إن الله عز وجل أعماه عن طريق الحق^(٢).

(١) الكافي: ١/٣٦١ ح ٩٢.

(٢) الكافي: ٤/٢٦٩ ح ٦.

(١) **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ**

[آل عمران : ١٥٩]

الرحمة بالمؤمنين:

من ابرز الصفات الكريمة التي سجلها القران الكريم للنبي (ﷺ): الرحمة بالمؤمنين والشفقة عليهم والرافة بهم كقوله تعالى (حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) التوبة ١٢٨، وكان الغرض من بعثه الشريفة الرحمة بالعباد، قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) الأنبياء ١٠٧، وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ) الأعراف ١٥٦/١٥٧.

ومنها الآية التي نحن بصدددها وهي قوله تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) آل عمران ١٥٩، وتستخلص منها عدة دروس:

دروس من الرحمة النبوية:**١- أهمية صفة الرحمة في القائد والمسؤول الذي يريد التأسي**(١) من حديث سماحة المرجع العنقوبي رحمته الله مع حشد كبير من طلبة الجامعات ووفود من عدة

مدن عراقية يوم السبت ٨/٢٤/١٤٣٥ المصادف ٨/٢/٢٠١٤.

بالقيادة النبوية المباركة لأنها سر نجاح القادة والمسؤولين في حركتهم نحو نفع الأمة ورعايتها، وهي أساس كل احسان ومعروف تقدّمه للآخرين وإن أساس التفاف الناس حول القائد هي الاخلاق اما اللفظ الغليظ فقد يضيّع حقه لافتقاده هذه الصفة، لذا كانت من الوصايا المهمة التي وجهها أمير المؤمنين (عليه السلام) الى مالك الاشر لما ولاه مصر، قال (عليه السلام) (وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم)^(١) أي ان قلبك حتى لو كان غير ممتلئ بالرحمة التي هي ضرورية لنجاح عملك فعليك أن تتكلفها وتدرّب قلبك عليها وتستشيرها في باطنك حتى تصبح ملكة راسخة، فان الصفات والملكات الحسنة يمكن تحصيلها بالتهذيب والتدريب.

وهذه الصفة يحتاج الى استشعارها كل أحد لأننا كلنا مسؤولون وإن كان بدرجات متفاوتة، ففي الحديث الشريف (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)^(٢)، فرب الأسرة مسؤول عن أسرته ومدير الدائرة كذلك عن دائرته ومثله المعلم عن طلبته والوزير عن وزارته والضابط عن جنوده والمرأة عن بيتها واطفالها وهكذا.

ولما سئل أحدهم من هو أحبُّ أبنائك اليك؟ لم يجب بأنه فلان أو فلان، وانما قال: الصغير حتى يكبر والمريض حتى يشفى والغائب حتى يعود، والجامع المشترك لهؤلاء هو حاجتهم الى الرحمة والشفقة أكثر من غيرهم.

(١) نهج البلاغة: ٥٤٧ كتاب/٥٣.

(٢) بحار الانوار: ٣٨/٧٢

٢- ان هذه الصفة وسائر خصال الخير والكمال لا يمكن تحصيلها بالسعي والعمل وحده، بل لابد من توفيق الهي ولطف بالعبد فوصفت الآية الرحمة أنها (من الله)، عن الامام الجواد (عليه السلام) قال (المؤمن يحتاج الى توفيق من الله وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه)^(١).

٣- ان القائد هو محور وحدة الأمة إذا كان رحيماً ليناً شفيقاً وهو سبب تفرقها وتشتتها وانقضاضها إذا كان فظاً غليظ القلب قاسياً لا يهتم بشؤون الرعية ولا يتواضع لهم ولا يتفقدهم، ولأن أهل البيت (عليهم السلام) ورثوا أخلاق النبي (ﷺ) وصفاته الكريمة فقد كانوا محور اجتماع الأمة ووحدتها، وهذا ما عبرت عنه الصديقة الزهراء (عليها السلام) بقولها (وجعل امامتنا نظاماً للملة)، فاذا وجدت امة متوحدة فاعلة فاعلم ان رحمة الله شملتها، والعكس بالعكس وقد ورد في الحديث الشريف (إذا غضب الله على قوم ابتلاهم بكثرة الجدل وقلة العمل).

٤- الاجراء التربوي والاصلاحي الذي مارسه النبي (ﷺ) مع أصحابه فان الآية جاءت في السياق القرآني الذي تحدث عن ملابسات معركة أحد والهزيمة التي حلت بالمسلمين بعد الانتصار الذي تحقق اول المعركة نتيجة عصيان بعضهم لأوامر رسول الله (ﷺ) فأنهزم الجيش إلا أفراد قلائل ثبتوا حول رسول الله (ﷺ) وفي مقدمتهم أمير المؤمنين (عليه السلام) وتسببت الهزيمة في استشهاد سبعين من اجلاء الصحابة بينهم عم رسول الله (ﷺ) حمزة بن عبد المطلب والمتوقع من القادة في مثل هذه المواقف انزال العقوبات الصارمة بحق

المنهزمين مضافاً الى العقاب الإلهي لارتكابهم جريمة (الفرار من الزحف) ، لكن الله تعالى وجّه نبيه الى اجراء عكس المتوقع وهو قوله تعالى (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ) آل عمران ١٥٩ وليس هذا فحسب بل اعادة الثقة بأنفسهم وإشعارهم بدورهم الفاعل في حياة الأمة والمشاركة في قراراتها المصيرية (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) آل عمران ١٥٩ وفي هذا درس مهم لأولياء الأمور على جميع الأصعدة بان يعتمدوا أسلوب العفو والصفح وزرع الثقة في نفس المخطئ وقمع شعوره بالنقص والدونية لينقلب تماماً على خطأه ويعود الى الوضع الصالح السوي.

ولو تعاملنا بيننا بهذه الخصال النبوية الكريمة لشملتنا الرحمة والالطاف الالهية وحُلَّ الكثير من مشاكلنا بلطف الله تعالى.

(إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ)^(١)

[الأنبياء : ٩٠]

واجعل الحياة زيادة لي في كل خير :

الأدعية الشريفة مدرسة نهل منها المعارف الحقيقية والدروس التي تنظم حياتنا وتصلح نفوسنا، وليست هي فقط نصوصاً مباركة نقرأها لطلب الثواب الجزيل المرصود لها وإن كان هذا بحد ذاته غرضاً نبيلاً يستحق التعب.

وقد استمعنا الآن بعد صلاة الظهرين دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) الخاص بهذا اليوم الثلاثاء، وكل فقرة منه هي مدرسة كقوله (عليه السلام) (واجعل الحياة زيادة لي في كل خير) ولكي يستجاب هذا الدعاء لابد من عمل الفرد وقبول واستجابة من الله تعالى، ولا يكفي مجرد تحريك اللسان بالكلمات، كمن يدعو بالرزق مثلاً من دون سعي لطلبه، أو يطلب الولد الصالح وهو لا يسعى لاختيار الزوجة الصالحة وهكذا، وإن كان الله تعالى يُنعم على العباد تفضلاً وابتداءً من غير استحقاق.

من استوى يوماه:

فيعلمنا الإمام (عليه السلام) في الدعاء أن نجعل بتوفيق الله تعالى وكرمه ورحمته

(١) من حديث سماحة الشيخ العقبوبي (رحمته الله) مع وفود من مناطق متعددة من بغداد يوم الثلاثاء

حياتنا كلها خيراً وعطاءً ونفعاً للنفس وللأهل وللآخرين، وفي زيادة مستمرة من التزود والخير من دون توقف الذي يعني هدر رأس المال الذي منحنا إياه وهو العمر وسائر النعم الإلهية من دون استثمار، فضلاً عن الرجوع إلى الوراء والخسارة باجتراح السيئات والعياذ بالله، ويبين الحديث الشريف هذه الحالات الثلاث (عن الصادق (عليه السلام)) " من استوى يومه فهو مغبون، ومن كان آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط ومن كان آخر يوميه شرهما فهو ملعون، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان. ومن كان إلى النقصان فالموت خير له من الحياة ^(١) .

وهذا الطلب أدب قرآني أدب الله تعالى به نبيه الكريم (ﷺ) قال تعالى (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) (طه/١١٤) والعلم المراد هو العلم النافع الذي يقترن مع العمل الصالح وفعل الخير وإلا فإنه لا قيمة له.

معنى الخير:

والخير الذي يدعو بالزيادة منه هو كل عمل صالح فلا يقتصر على العبادات المعروفة كالصلاة والصوم وقراءة القرآن وزيارة المعصومين (عليهم السلام) وإن كانت هذه من أصول الخير، بل له معنى واسع فالبرّ بالوالدين والإحسان إليهم من أعظم الخير، ومساعدة الآخرين كذلك، والجلوس مع العائلة والتلطّف معهم والتودّد إليهم ومتابعة شؤونهم من الخير، وكسب الرزق الحلال من الخير ففيه التوسعة على الأهل والتصدق في سبيل الله وإغناء النفس عما في أيدي الناس وإخراج الخمس من الفائض عن المؤونة في نهاية السنة وهذا كله من الخير، والزواج خير

(١) معاني الاخبار: ص ٣٤٢ باب معنى المغبون.

والإنجاب خير بل من أعظم الخير، ذهابك إلى المسجد والمشاركة في صلاة الجماعة والجمعة وحضورك في الشعائر والفعاليات خير، تفقهك في الدين وتعلمك مسائل الحلال والحرام لتصحيح سلوكك خير، اجتماعك هذا مع إخوانك وتبادلکم الأحاديث النافعة في دنياكم وآخرتكم خير يحبه الإمام (عليه السلام) ويترحم على فاعله، روي أن الإمام الصادق (عليه السلام) قال للفضيل بن يسار (يا فضيل؛ أتجلسون وتتحدثون؟ قال: نعم جعلت فداك، فقال عليه السلام: إني أحبّ تلك المجالس، فأحيوا أمرنا يا فضيل، فرحم الله من أحيأ أمرنا)^(١).

كيف نحول الحياة كلها الى خير؟

وهكذا تستطيع أن تحول حياتك كلها إلى مصنع لإنتاج عمل الخير قال تعالى (يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) (المؤمنون ٦١) وقال تعالى (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) (المائدة/٤٨) حتى الأفعال الاعتيادية كتناول الطعام يكون خيراً لأن فيه حفظ الصحة والتقوي على طاعة الله والقيام بأعمال الخير، والنوم المقتصد يكون خيراً لأن فيه راحة واستجماماً وتجديد النشاط للاستمرار في الاستزادة من الخير بل يكون النوم شكلاً من أشكال العبادة بحسب ما أفاد الحديث الشريف عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (من تطهر ثم أوى إلى فراشه بات وفراشه كمسجده)^(٢)، قد يقول البعض إننا لا نستطيع أن نكون بهذه الفاعلية دائماً لأن غير المعصوم تعثره الغفلة والنسيان والضعف فيحصل تراجع ولا يمكن أن يكون دائماً في حالة زيادة

(١) بحار الأنوار: ٢٧٨/٤٤، ٢٨٢.

(٢) وسائل الشيعة: ٢٦٥/١ باب ٩ ح ١.

من الخير، وهذا التساؤل موجود، لكن الله تعالى عالج هذا القصور الذاتي بأكثر من علاج:

١- أن ينوي الإنسان فعل الخير ويعزم عليه كلما تيسر له، فهذه النية بحد ذاتها خير، وإن الله تعالى بكرمه يعطي لصاحب النية الصادقة والعزم الأكيد ما يعطي للعامل كما في الحديث النبوي الشريف (نية المؤمن خير من عمله)^(١) وإيجاد هذه النية وهذه الإرادة ليس صعباً على الإنسان فيحصل بها ما يفوته من الأعمال.

٢- إن الله تعالى تكفل للإنسان الذي يستيقظ من غفلته ويعود إلى العمل الصالح وفعل الخير عند تذكره والالتفات إليه، أن يمحو كل ذلك التقصير والقصور ويثبت بدلاً عنه حصيلة هذا الالتفات، قال تعالى: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) (هود/١١٤) وقال تعالى (فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) (الفرقان/٧٠) أي ليس فقط يمحو السيئات بل يبدلها إلى حسنات في صحيفة الأعمال، ومن معاني هذا التبديل أن يجعل حياته ما قبل التغيير بمثل حياته بعد التغيير، فلو كان تاركاً للصلاة الليل أو لا يلتزم بأداء الصلاة في أوقاتها ثم قام بذلك فإنه يجعل حياته السابقة على هذه الصورة الجديدة، كالمدرّس الشفيق الرحيم الذي يقول لطلابه سأعيد لكم الامتحان فإذا جئتم بدرجات أفضل فإنني سأعتبر درجاتكم السيئة في الامتحان السابق على طبق هذه الدرجات الجيدة الجديدة، ولا شك أن الله أشفق على عباده ورحم به وهو أرحم الراحمين، وهو تعالى الذي

جعل هذه الرحمة في قلوب عباده فكيف لا يكتبها على نفسه؟ فما على الإنسان إلا أن ينتبه من غفلته ويعود إلى منهج الزيادة من الخير.

(فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) ^(١) [النساء : ٦٥]

الإيمان لا يتحقق إلا بتحكيم شريعة الله تعالى

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد خلقه أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

الفرق بين الحقيقة والدعوى:

إن الحقيقة تحتاج إلى دليل يبرزها ويؤكدها ويثبت وجودها، ومن دونه تكون الأشياء مجرد دعاوى، ويؤكد هذا الأمر الإمام الكاظم عليه السلام في وصيته لهشام بن الحكم، قال (سلام الله عليه): (يا هشام لكل شيء دليل ودليل العاقل التفكير ودليل التفكير الصمت) ^(٢) فلا بد أن لا نسلم بالأمور والدعاوى حتى نتحقق من الدليل، ولا نسترخي للأوصاف التي ندّعيها لأنفسنا ونثبتها في هويتنا كالأسلام والتشيع وولاية أهل البيت عليهم السلام من دون أن نراقب أنفسنا ونفقدها باستمرار ونمتحنها لتلمس الدليل على صدق هذه الدعاوى.

هذه المقدمة تلقي الضوء على واقع مؤسف نعيشه نحن المسلمين وهو أننا

(١) خطبة سماحة الشيخ في الآلاف من الجموع التي جاءت لزيارة أمير المؤمنين عليه السلام في ذكرى إستشهاد الصديقة الزهراء عليها السلام يوم الثالث من جمادى الآخرة، عام ١٤٣٥ الموافق ٣/نيسان/٢٠١٤.

(٢) تحف العقول: ٢٤٦.

ندعي عناوين كثيرة من دون تقديم الدليل على وجود حقائقها بل قد نقوم بالعكس من ذلك، فتخالف أقوالنا أفعالنا، لذا يعلمنا الإمام الحسين عليه السلام في الدعاء المروي عنه الاعتراف بهذا التقصير أمام الله تبارك وتعالى: (ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاواه دعاوى)^(١).

حقيقة الإيمان بالله تعالى:

وأهم تلك العناوين التي يجب أن نتأكد من وجود حقيقتها هو الإيمان بالله تبارك وتعالى لأنه أصل الدين وأساس الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة، وتأكيداً لهذه الأهمية فقد كان النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومون عليهم السلام يلفتون نظر الناس إلى تفقد هذه الحقيقة فيسألون من يقولون: (نحن مؤمنون) ويقولون لهم: (فما حقيقة إيمانكم) أو يبدؤونهم بالبيان كقول الإمام الباقر عليه السلام: (لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال.. إلى آخر الحديث)^(٢).

أهم مظهر للتوحيد هو إقامة الأحكام الإلهية:

وقد بينت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ما تكتمل به حقيقة الإيمان، قال تعالى: [فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] (النساء: ٦٥)، فيقسم الله تبارك وتعالى على هذه الحقيقة [فَلَا وَرَبِّكَ] ويحصر الإيمان بها [لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ] ويعطينا قاعدة مهمة من قواعد العقيدة في الإسلام، وهي أن أهم مظهر للتوحيد

(١) مفاتيح الجنان، ٣١٥.

(٢) ميزان الحكمة: ٢٨٦/١.

والإيمان بالله هو إقامة حكم الله تبارك وتعالى في الأرض، وتطبيق شريعته في شؤون الحياة والرجوع إليه في الحكم والالتزام بمنهجه في الحياة، وإن هاتين القضيتين متلازمتان، وإن جوهر الصراع بين الإيمان والكفر هو في من له حق الحاكمية والتشريع ورسم المنهج الذي تسير عليه البشرية، هل هو الله تعالى خالق الكون والعالم بما يصلحه ويسعده، أم الإنسان بقصوره وفقره وعجزه ومصالحة المتصارعة وأهوائه المتقلبة [وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ] (المؤمنون: ٧١)؟.

الإيمان يكتمل بثلاثة عناصر:

لذا فإن الآية الكريمة تؤكد على أن الإيمان الحقيقي يكتمل بثلاثة عناصر:

١- الرجوع إلى شريعة الله تعالى التي بلغها رسول الله ﷺ والأئمة

المعصومون عليهم السلام ومن بعدهم العلماء العاملون المخلصون [حَتَّى يُحَكِّمُوكَ] أي يرجعون إليك في كل أمورهم ويأخذون الحكم منك ولا يحكمون غيرك وغير من نصبته من الحجج، وإن كل قانون يضعه البشر لم يؤخذ من الشريعة فإنه باطل وينافي أصل الإيمان بالله تعالى ولا يجوز لأحد أن يشرع ويقنن خارج النصوص الشرعية.

٢- أن يسلّموا بتلك الأحكام ويدعنوا إليها ويؤمنوا بها سواء أدركوا

المصلحة فيها وعرفوا أسرار تشريعها أو لم يدركوا ذاك، وأن لا يشعروا بالخرج والضيق إذا عاب أحد عليهم هذه الأحكام أو انتقصها أو زعم أنها تخالف حقوق الإنسان وتنافي الحرية والعدالة والمساواة، أو أنها رجعية وتخلف ولا تواكب

الزمان الحاضر، ونحو ذلك من التهم والاستفزازات.

٣- أن يلتزموا بتلك الأحكام ويطبقوها في حياتهم من دون تبعض وانتقائية للأحكام التي توافق رغباتهم وأهوائهم ومصالحهم، ويعرضون عنها إذا كانت لا تحقق مصالحهم الضيقة وتصطدم مع أهوائهم وشهواتهم، وإن صدق الإيمان يظهر عندما يكون الحكم على خلاف الهوى والمصلحة ومع ذلك يسلم له ويطبقه ولا يجد في نفسه حرجاً منه.

روى الشيخ الكليني في الكافي بسند صحيح عن عبد الله بن يحيى الكاهلي قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: (لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا، وصاموا شهر رمضان، ثم قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا صنع خلاف الذي صنع؟ أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآية: [فلا وربك لا يؤمنون..] ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: عليكم بالتسليم)^(١).

ولقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات كثيرة، قال تعالى: [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ] (الأحزاب: ٣٦) وقال تعالى: [وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ] (الأنعام: ١٥٣)، وقال تعالى: [إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ] (آل عمران: ١٩)، وقال تعالى: [وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ] (آل عمران: ٨٥) وغيرها.

(١) الكافي: ٣٢١/١، ح ٢.

اهتمام الشريعة بتنظيم الأحوال الشخصية:

والروايات الشريفة حافلة أيضاً بهذه المعاني، وقد حظيت أحكام ما يعرف اليوم بالأحوال الشخصية باهتمام كبير من الأئمة عليهم السلام ولم يعذروا من يطبق القوانين الوضعية ولا يرجع إلى الأحكام الشرعية لأنها تنظم أموراً أساسية في حياة الأفراد كالزواج والطلاق والمواريث وأي خلل فيها يعني وقوع الناس في المحرمات في ذرياتهم وأموالهم، ولا مجال فيها للاعتذار بالتقية ونحوها لأنها قضايا شخصية لا تتعارض مع السلطات، وتحركوا بالوسائل المتاحة لهم عليهم السلام ليقنعوا الأمة بها^(١).

الانطلاقة من فروع الدين إلى إقامة أصول الدين:

أيها الأحبة المجتمعون لنصرة الصديقة الطاهرة عليها السلام: إن السيدة فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) حينما قامت بأمر الله تعالى في وجه الانحراف والظلم وطالبت بحقها في فذك وحاجتهم بآيات المواريث إنما أرادت أن تنطلق من هذا الحكم المتعلق بالأحوال الشخصية إلى مطلب أوسع وأعظم وهو إقامة شريعة

(١) ويصل الاهتمام إلى درجة أن الإمام يسعى لإقامتها ولو بالقوة، في رواية صحيحة في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: (لا يستقيم الناس على الفرائض -أي المواريث- والطلاق إلا بالسيف) ومثلها عن الإمام الباقر عليه السلام.

وفي رواية أخرى عن أحدهم قال: (سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن النساء هل يرثن من الرباع -أي الأراضي-؟ فقال: لا، ولكن يرثن قيمة البناء، قال: قلت: فإن الناس لا يرضون بذلك؟ فقال: إذا وُلينا فلم يرضَ الناس بذلك ضربناهم بالسوط فإن لم يستقيموا ضربناهم بالسيف) (الروايات في الكافي: ج ٧، كتاب المواريث، باب ٤٤).

الله تعالى في الأرض وعلى رأسها اتباع الإمام الحق والقيادة الصالحة المصلحة، والقوم قد فهموها هكذا؛ لذا أرادوا قطع الطريق من أوله على مشروع السيدة الزهراء (يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في أمر فذك: وسألت علي بن الفارقي مدرس المدرسة الغربية ببغداد -وهو من علماء العامة- فقلت له: أكانت فاطمة عليها السلام صادقة؟ قال نعم. قلت: فلم لم يدفع إليها أبو بكر فذك وهي عنده صادقة؟ فتبسّم ثم قال: لو أعطاهها اليوم فذك بمجرد دعواها ل جاءت إليه غداً وادعت لزوجها الخلافة، وزحزحته عن مقامه، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء؛ لأنه يكون قد أسجل على نفسه أنها صادقة في ما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بينة ولا شهود. قال ابن أبي الحديد: وهذا كلام صحيح^(١).

الخشيّة من انطلاقة القانون الجعفري:

وهذا ما يقوم به الأعداء على طول التاريخ منذ أن صدع النبي صلى الله عليه وآله بالدعوة الإسلامية المباركة فيعملون على إجهاض كل حركة لايقاظ الناس وتفعيل دور الدين في حياة الأمة ويسعون لإبقاء الأغلال التي تكبل الأمة ويحيطون الحركة بالتشويه والتسقيط والشبهات كما حصل في مواجهة القانون الجعفري لتبقى الغشاوة على عيون الناس وإلحاق الهزيمة بالإسلام، وهذا يفسّر اجتماع كل القوى في الداخل والخارج لمعارضة القانون وهو ما يزال مسودة لم يعرض للنقاش أصلاً؛ لأنهم يخشون من آثاره المباركة اللاحقة على الأمة.

(١) شرح نهج البلاغة: ٢٨٤/١٦.

لا حكم غير الإسلام إلا الجاهلية:

لقد كانت الصديقة الطاهرة عليها السلام حازمة وصریحة في وعظهم وتحذيرهم بأنهم يعودون إلى جاهليتهم الأولى إذا خالفوا حكم الله تعالى، قالت عليها السلام في خطبتها: (وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون؟ أفلا تعلمون؟ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته)^(١).

فتذكرهم عليها السلام بقوله تعالى: [أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ] (المائدة: ٥٠) ويفسرها الإمام الباقر عليه السلام بقوله: (الحكم حكمان حكم الله وحكم الجاهلية وقد قال الله عز وجل: [وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ] واشهدوا على زيد بن ثابت لقد حكم في الفرائض -أي الموارث- بحكم الجاهلية)^(٢)، والكلام شامل لغير زيد ممن خالفوا حكم الله تعالى.

الأحكام الإلهية لا تقبل المساومة:

أيها الأحبة: إن تطبيق الأحكام الشرعية وتنظيم شؤون الحياة على أساسها قضية حدية فاصلة لا تقبل المساومة والمداهنة والتبويض أو التأجيل بحجة أن الوقت غير مناسب أو أي عذر آخر، فلا تسويف لأمر الله تعالى فإما أن يُطبَّق حكم الله تعالى وإما أن يكون الحكم حكم أهل الجاهلية، روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: (الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهلية فمن أخطأ حكم

(١) الاحتجاج: ١/١٣١.

(٢) الكافي: ٤٠٧/٧.

الله حكم بحكم الجاهلية^(١).

الإسلام يقود الحياة: شعار المرجعية الرسالية

إن فهم هذا الصراع والنهوض بمسؤولية الدفاع عن الإسلام وإقناع البشرية به وبقدرته على قيادة الحياة - كما عبّر السيد الشهيد الصدر الأول قُلَيْبُ حينما عنون أحد كتبه بذلك - هو سر انقسام المرجعية الدينية والحوزة العلمية إلى خطين وقيادتين متباينتين في المنهج والسلوك، أولهما عالم فاعل عامل لا يكتفي بتنميق الكلمات على الأوراق فقط بل يتحرك ويواصل الليل بالنهار ليعيد للإسلام هيئته وعزته وللمسلمين كرامتهم وحرّيتهم وثقتهم بأنفسهم ويدلّهم على معالم هويتهم المسلوقة من خلال ما يقدّم من نظريات وتشريعات ومنظومات فكرية ومعرفية تثبت أن دين الإسلام هو أصلح نظام للبشرية اليوم وغداً كما كان بالأمس، فألف الشهيد الصدر الأول قُلَيْبُ اقتصادنا وفلسفتنا ومجتمعنا والأسس المنطقية للاستقراء والبنك اللاربوي وغيرها، مما أبهر عقول خصومه وأصدقائه على حد سواء؛ لذا لا نستغرب قيام الحكومة الروسية رمز النظام السياسي والاقتصادي الذي استهدفه في كتبه بنصب تمثال^(٢) للسيد الشهيد الصدر الأول العالم العربي المسلم الوحيد الذي يكرّم بهذا الشكل في قلب عاصمة الاتحاد السوفيتي سابقاً وفي أهم صروحها العلمية في موسكو باعتباره صاحب إنجازات

(١) التهذيب: ٢١٨/٦، ح ٥، باب من إليه الحكم وأقسام القضاة والمفتين.

(٢) وُضع التمثال النصفى في جامعة موسكو الحكومية للعلاقات الدولية التابعة لوزارة الخارجية الروسية ورفع الستار عنه يوم الجمعة ٢٠١٤/٢/٢٨ في احتفال حضره مثقفون وأكاديميون وسياسيون روس، ورؤساء عدد من البعثات الدبلوماسية.

إنسانية عظيمة، بينما تُعرض الحوزة النجفية عنه وعن آثاره والاحتفال به - ونحن نعيش ذكرى استشهاده الرابعة والثلاثين - وكأنه ليس مفخرتها وجوهرتها ووجهها الناصع.

من معاني نصرّة السيدة الزهراء عليها السلام:

إن من أهم أشكال النصرّة للسيدة الزهراء عليها السلام وللمعصومين جميعاً لنكون صادقين في قولنا لهم عند زيارتهم عليهم السلام: (ونصرتي لكم معدة) هو السعي الدؤوب لهداية الناس وإرشادهم، والضغط المستمر لإقرار القوانين التي تنظم حياتهم وفق الشريعة الإلهية خصوصاً في الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث والوصية والوقف لأنها لا تتنافى مع حق أحد ولا تسلب حرية أحد ولا تكره أحداً على خلاف ما يعتقد.

إن الله تبارك وتعالى حذّرنا بشدة من العمل بالقوانين الوضعية التي تتنافى وأحكام الدين، قال تعالى: [وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ] [وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ] [وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ] (المائدة: ٤٤، ٤٥، ٤٧).

ويؤكد الله تعالى على نبيه أن لا يتأثر بالمغريات والتهديدات والتسقيط الإعلامي ونحو ذلك من الضغوط لترك القوانين الإلهية، قال تعالى: [وَأَن اِخْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ] (المائدة: ٤٩) ثم يبين الله تعالى أن أحسن الأحكام وأصلحها للبشر

وأكثرها ملاءمة لطبيعة تكوينه الفردي والاجتماعي هي أحكام الله، قال تعالى: [أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ] (المائدة: ٥٠).

فلنراجع واقعنا ولننظر هل مناهج التعليم المتبعة موافقة للشريعة؟ وهل العلاقات الاجتماعية القائمة بيننا منضبطة بتعاليم الإسلام؟ وهل السنائن العشائرية التي يحكمون بها مأخوذة من الشريعة؟ وهل وهل .. مما يطول ذكره.

حرائر العراق ينتصرن للإسلام:

لقد سجّلت المؤنات الرساليات من حرائر العراق المتأسيات بالسيدة الزهراء عليها السلام والعقيلة زينب عليها السلام موقفاً مشهوداً في نصرة دين الله تعالى حين عقدن تجمعات حاشدة بالآلاف في مختلف المدن العراقية وبحضورهن وحضوركم في هذا المحفل الكريم للمطالبة بتصحيح مواد قانون الأحوال الشخصية وفق الأحكام الشرعية، ووجّهن صفة شديدة لمن يريد إبقاء المجتمع العراقي المسلم المؤمن يعمل على وفق قوانين الجاهلية.

وأعادت هؤلاء النسوة للمرأة عموماً الثقة بنفسها وبقدرتها على إحداث التغيير والإصلاح وانتزاع الحقوق، تلك القدرة التي سُلّبت منها عبر الأجيال نتيجة لعوامل عديدة، وساعدت نفس المرأة على استلابها باستكانتها واستسلامها وخضوعها للأعراف والتقاليد والثقافات التي لا تمت إلى الإسلام بصلة، وتناست المرأة أن من أهم ثمرات ونتائج القيام الفاطمي والزينبي هو إعادة الثقة للمرأة بنفسها وأنها قادرة على انتزاع الحقوق وإيقاظ الأمة وإعادة الأمور إلى نصابها، فقامت هذه النسوة بتذكير الأمة بهذه الثمرة المباركة للقيام الفاطمي الزينبي

العظيم.

وها هي الانتخابات البرلمانية مقبلة بإذن الله تعالى، وتشكل النساء نصف عدد الناخبين تقريباً فهن إذن الرقم الصعب القادر على قلب الطاولة على رؤوس كل دهاقنة السياسة وتجار الحروب وأصحاب الأجندات الظالمة الفاسدة من الداخل والخارج.

من بركات الانتصار للإحكام الإلهية:

لقد كان من بركات هذه الیقظة وهذا الحراك الفكري والاجتماعي وإثارة مكان القوة والإنسانية في الشريعة الإسلامية التفات المسلمين إلى المطالبة بحقوقهم في تشريع القوانين الخاصة بهم وجاءت ثمرتها في بريطانيا قبل أيام حيث اعتمدت لأول مرة في محاكمها الشريعة الإسلامية في الإرث والوصية لتنظيم شؤون المسلمين فيها؛ وقد وجدت الحكومة البريطانية في إعطاء هذا الحق للمسلمين خطوة تساعد على شعور المسلمين بالمواطنة وعدم الإقصاء والتهميش، فأتاح الله تبارك وتعالى هذا القرار في عنفوان الجدل حول القانون الجعفري ليكون حجة دامغة على المهزومين والمنبهرين بالغرب وسائر المعترضين على إقرار القانون الجعفري.

أليس من الغريب أن يكون الإسلام بهذه الدرجة من التأثير في بلاد غير المسلمين بينما يستضعفه أبناؤه في بلادهم ويشعرون بالهزيمة الداخلية ويخجلون من إعلان هويتهم والتحرك بمشروعهم!

فأحيوا أيها الأحبة خصوصاً الشباب والمثقفين وطلبة الجامعات - في

نفوسكم الشعور بالفخر والاعتزاز ورفعة الرأس وأنتم تنتمون إلى هذا الدين العظيم، وأحسوا بقيمة كلمة أمير المؤمنين عليه السلام: (إلهي كفى بي عزاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي رباً، إلهي أنت كما أحب فاجعلني كما تحب. أيها الإخوة والأخوات المجتمعون على ولاية أهل البيت عليهم السلام:

اعلموا أنكم بنصرتكم للسيدة الزهراء عليها السلام والقانون الجعفري ساهتمتم في رفع جزء من البلاء والته الذي كان ستقع فيه الأمة لو أجمعت على خذلان دين الله تعالى، قال الله عز وجل: [وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ] (هود: ١١٧) وقال تعالى: [وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ] (البقرة: ٢٥١) وقال تعالى: [فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ] (يونس: ٩٨).

نسأل الله تعالى أن يمد المؤمنين والمؤمنات بنصره ويزيد في توفيقهم ويكمل جهودهم بالنجاح ببركة إحيائكم لهذه الشعيرة المقدسة والله ولي التوفيق.

(ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة)^(١)

[الأنعام/٩٤]

محورية التوحيد:

قال تعالى في سورة الأنعام (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) (الأنعام/٩٤).

سورة الأنعام: من السور المكية وهي سورة جليلة غنية بالمعارف الالهية الموصلة الى الحقيقة التي خلقنا من أجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] وفسرها الامام عليه السلام بقوله (ليعرفون).

فتحدث السورة عن محورية التوحيد وتذكر الادلة عليه وتحتج على المشركين وتبطل عقائدهم وتشرح حقائق المبدأ والمعاد. وقد وردت في فضلها أحاديث كثيرة^(٢)، منها ما رواه الشيخ الكليني قوله في الكافي بسنده عن الامام الصادق عليه السلام قال: (إن سورة الأنعام نزلت جملة، شيعها سبعون الف ملك حتى

(١) من حديث سماحة المرجع العفوقى (دام ظله) مع حشد كبير من الطلبة والشباب المنتظمين فى الدورة الدينية والاخلاقية للعطلة الربعية من مختلف محافظات العراق يوم الاحد

٢٧/ربيع ١٤٣٧/٢ الموافق ٢٠١٦/٢/٧

(٢) راجع البرهان فى تفسير القرآن: ٣١٠/٣.

انزلت على محمد ﷺ فعظّموها وبجّلوها، فان اسم الله عز وجل فيها في سبعين موضعاً، ولو يعلم الناس ما في قراءتها ما تركوها).

وفي كتاب المصباح للكفعمي عن النبي ﷺ: (من قرأها من أولها الى قوله (تكسبون) - نهاية الآية الثالثة - وكلّ الله به اربعين الف ملك، يكتبون له مثل عبادتهم الى يوم القيامة) وغيرها من الأحاديث الكثيرة في آثار السورة المعنوية والمادية في سعة الرزق وشفاء الامراض والنجاة من النار.

(ولقد جئتمونا):

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا) تأكيد بعد تأكيد باللام (وقد) واستعمال الفعل الماضي لبيان حقيقة يفترض أنها مستقبلية إلا ان الحديث عنها بالماضي لتأكيد حصولها وكأنها أمر واقع مفروغ منه (جِئْتُمُونَا) أي عدتم الينا بعد أن أخذتم فرصتكم في العمل والحياة بحرية في الدنيا وكلنا عائدون الى الله تعالى (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى) (العلق ٨) (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة/١٥٦)، والخطاب من الله تبارك وتعالى الى عباده مباشرة عند الموت حيث ينتقل الانسان من عالم التكليف الى عالم الجزاء او عند البعث يوم القيامة وقد يكون الخطاب من الملائكة الى الناس عند قبض ارواحهم مؤدين عن الله تعالى.

(فرادى):

(فُرَادَى) أي وحداناً مجردين عن كل شيء مما كان لكم في الدنيا فلم تصحبوا معكم القوة البدنية ولا المال ولا الاولاد ولا الشهادات ولا العناوين ولا المناصب ولا الجند والاعوان والسلاح وكل أسباب القوة مما كنتم تتباهون

وتتبعون به في الدنيا فلم يبق منها شيء يصحبكم الى ما بعد الموت.

(كما خلقناكم أول مرة):

(كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) كما كنتم فرادى مجردين من كل شيء حينما خلقناكم في بطون امهاتكم مع فرق انكم حينما خلقتكم كان لكم أبوان يتولان رعايتكما أما في الآخرة فتواجهون مصيركم وحياتكم بمفردكم.

(وتركتكم ما خولناكم وراء ظهوركم):

(وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) خلفتم وراء ظهوركم ما خولناكم التصرف به في الدنيا مما ذكرنا آنفاً حيث كنتم تتوهمون أنكم تملكون شيئاً وفي الحقيقة فأنكم لا تملكون شيئاً وإنما الملك الحقيقي لله تبارك وتعالى وقد خولكم وأوكل اليكم التصرف في بعض ما أعطاكم في الدنيا من اموال وغيرها وقد رسم منهجاً وصلاحيات للعمل وفق هذا التحويل فمنكم من التزم بحدود التحويل ومنكم من خالف وبدرجات متفاوتة للفريقين وبالموت انتهى هذا التحويل فعادت الأمانة الى أهلها ولم تأخذوا معكم إلا اعمالكم الصالحة او السيئة ولم يبق لكم إلا كيفية تصرفكم في ما خولكم الله تعالى. فإن كان صالحاً أنفَعتم به نفعاً حقيقياً، وإن كان التصرف سيئاً بقيت تبعاته وآثامه وانتقلت الأموال والعقارات وغيرها الى الورثة فينطبق عليهم ما ورد في الدعاء (إِلَهِیْ ذَهَبَتْ أَيَّامٌ لِّذَاتِي وَبَقِيََتْ مَآئِمْي وَتَبَعَاتِي)^(١). اما المؤمنون المطيعون فينطبق عليهم (ذهب العناء وثبت الاجر

(١) ملحق الباقيات الصالحات في كتاب مفاتيح الجنان وهو دعاء شريف يدعى به في صلاة

بفضل الله تعالى).

ولاحظ هنا المقابلة بين هذه الآية وقوله تعالى (وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ) (البقرة/١١٠) فعبر عن الاعمال الصالحة وحسن التصرف بما خوله الله تعالى بالتقديم لأنه يقدمه امامه ويتزود به ليوم الحساب (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) (البقرة/١٩٧) فهو يعمر به آخرته التي يتحول إليها، فهو لا يأتون فرادى، قال تعالى (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (الشعراء/٨٨-٨٩) أما من أساء التصرف فيما خوله الله فقد وصفه بأنه تركه وخلفه وراء ظهره لأنه بعثه في دار الدنيا ولم يستفد منه في الآخرة وإنما سبب له العقاب والعذاب فهذه الآية خطاب للفاسقين والكفار والمنافقين.

(وما نرى معكم شفعاءكم):

وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ) كانت لكم في الدنيا زعامات وقيادات وآلهة صنعتها أوهامكم واهواءكم وتعصباتكم وخدعوكم بها تطيعونها وتضحون من أجلها من دون أن تفكروا في كونها مع الحق أو غير ذلك وهل في اتباعكم لها رضا الله سبحانه أم لا، لكنها اليوم ليست معكم (الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ) وهي لا تستحق أن تطاع أو تتبع لأنها مزيفة صنعتها الاعلام او المال او المكر والخداع أو سدنة المعابد المستفيدون منها فقد كنتم تظنون انها ستشفع لكم وتنصركم وتنجيكم ولكن خابت ظنونكم.

(لقد تقطع بينكم):

(لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ) فانقطعت تلك العلائق والمودة والالفة والاواصر القوية بينكم وظهر عجزكم عن نصرة بعضكم البعض وانفرط العقد الاجتماعي الذي بينكم لأنه ليس مبنياً على أساس صحيح ورجعتم الينا وحداناً.

(وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ):

(وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) ضاعت أحلامكم وأمانيتكم وعقائدكم الفاسدة وتبين أن الأسباب التي كنتم تتوسلون بها وتعتمدون عليها وتظنون أنها تدبر أموركم وتقضي حوائجكم سراب وخيال سواء كانت آلهة وأصنام من الحجارة والخشب أو رموز بشرية من زعامات دينية أو سياسية أو اجتماعية أو فكرية أو أهواء اتخذتموها الهة تطيعونها وتعبدوها من دون الرجوع الى حكم الله تعالى وشريعته، وضيّعتم أنفسكم وصارت عاقبتكم الخسران وظهر أمامكم ان الحق هو ما أخبركم الله تعالى به.

استيقظوا من الغفلة:

هذه الصورة التي تعرضها الآية لمشهد من مشاهد الآخرة اريد منها إيقاظ الانسان من غفلته حتى يحسب الامور بدقة (وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) (الحشر/١٨) قبل ان تصحو على هذه الحقيقة ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق : ٢٢] وكان عليك قبل الان في الحياة الدنيا ان يكون بصرك حديداً وتدرک هذه الحقائق لتتدارك نفسك وتصلح حالک، اما انکشاف الحقيقة بعد الموت فانه بعد فوات الاوان على النفس ولا ينفعها الندم والحسرة.

ففي الآية موعظة وإرشاد الى اختيار القيادة الحقة التي توصلك الى الله تعالى وتدعوك الى التمسك بمنهج النبي محمد وآله الطاهرين (صلوات الله عليهم أجمعين) والى صرف الجهود في إكتساب ما ينفع يوم القيامة ويحقق الفوز والفلاح وعدم تضييع العمر في تحصيل الأمور التي لا قيمة لها في الآخرة (وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا) (الفرقان/٢٣) .

ايها الشباب أنكم في بداية طريق المسؤولية وتحمل التكاليف الإلهية فالتفتوا الى هذه الحقيقة وابنوا مستقبلكم على أسس صحيحة .

(ولقد كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) [الإسراء: ٧٠]

(الكرامة المطلقة للإنسان)^(١)

الكرامة الحقيقية:

تأكيد بعد تأكيد: باللام و (قد) وصيغة التفعيل^(٢) لهذه الحقيقة الإلهية وهي الكرامة المطلقة للإنسان التي تعتبر من أهم الأصول التي تستند إليها القوانين والتشريعات، هذا التكريم الذي أعلنه الله تعالى لكل الخلاق في الحفل الذي أقيم عند بدء الخلقة الإنسانية للتعريف بخليفة الله تعالى في الأرض حيث أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم، قد حسد إبليس الإنسان على هذا التكريم الإلهي، قال تعالى حكاية عن إبليس: [قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا خَنَئَكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا] (الإسراء: ٦٢) أراد اللعين سلب تلك الكرامة منهم

(١) الخطاب الفاطمي السنوي الحادي عشر الذي القاه سماحة المرجع العقيقي (دام ظله) على جموع المعزّين بذكرى استشهاد الصديقة الزهراء (عليها السلام) في ساحة ثورة العشرين في النجف الاشرف يوم ٣/٢/١٤٣٧ المصادف ١٣/٣/٢٠١٦.

(٢) ثم أردفها بقوله تعالى: [وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا]، قال السيد الطباطبائي: ((وهذا أيضاً أحد مظاهر التكريم فمثل الإنسان في هذا التكريم الإلهي مثل من يدعى إلى الضيافة وهي تكريم ثم يرسل إليه مركوباً يركبه للحضور لها، وهو تكريم ثم يقدم له أنواع الأغذية والأطعمة الطيبة اللذيذة وهو تكريم)) (الميزان في تفسير القرآن: ١٥/١٥٤).

بصدهم عن سبيل الحق، فالكرامة الحقيقية هي الوعي بالحق وهو الطريق الذي يسلك به الإنسان إلى الله تعالى.

الكرامة تتفاوت بحسب التقوى:

وتتفاوت درجات الكرامة عند الله تعالى بحسب درجة التقوى التي يتحلى بها الانسان قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] وإن الإنسان يزداد كرامة عند الله تعالى حتى يفوق مقامه الملائكة، ففي الحديث عن النبي ﷺ قال: (ما شيء أكرم على الله من ابن آدم)^(١)، وفي الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام قال: (ما خلق الله عز وجل خلقاً أكرم على الله عز وجل من المؤمن، لأن الملائكة خدام المؤمنين)^(٢).

وتشرح رواية عن الإمام الصادق عليه السلام تعليل ذلك في ما نقله عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (إن الله عز وجل ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم).

من مظاهر التكريم الإلهي:

لقد تجلّى هذا التكريم في كل أبعاد الإنسان، فجعل جسده [في أحسن تقويم] (التين: ٤) وفي الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام (صورة الآدميين

(١) ميزان الحكمة: ٣٣٣/١.

(٢) ميزان الحكمة: ٣٣٣/١.

وهي أكرم الصور على الله^(١).

وزوده بالعقل وأدوات العلم والمعرفة لبنى الحياة ويعمّرها ويطوّرها
وينمّيها بينما المخلوقات الأخرى في دورة حياة ثابتة وسلوك واحد من لدن خلقها
إلى قيام يوم الساعة.

وجعل ما في الأرض في خدمة الإنسان [وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ] (الباقية: ١٣) وعلمه كيف يتمتع بالطيبات ويتفّن في
صنعها والاستفادة منها.

ومن مظاهر تكريم الإنسان إعطاؤه حرية الاختيار والإرادة والقابلية على
التكامل والسمو والارتقاء ثم بعث إليه الأنبياء والرسل وأنزل معهم الشرائع الإلهية
ليدلوّه على طريق السعادة والفلاح وليستطيع التمييز بين الخير والشر والهدى
والضلال، ولتحفظ كرامة الإنسان وحقوقه.

تكريم الإنسان معيار سلامة المناهج والأديان:

ان أوضح دليل على صحة وسلامة المنهج المتبع - أيّ منهج حتى
الاديان - هو سعيه لتحقيق كرامة الانسان وحفظ حقوقه بحيث يجد الانسان
انسانيته فيه، اما مناهج التكفير والعنف والاستغلال والاستعباد والاستئثار بشروات
الشعوب وقهرها فهي خارجة عن الدين وان تسمّت باسمه وادّعت الدفاع عنه،
لان الاديان السماوية شرّعت لحفظ انسانية الانسان وكرامته وسعادته.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (يقول الله تعالى: لم أخلقك لأربح عليك،

(١) نور الثقلين: ٣٨٧/٣، ح ٣٠٨ عن تفسير القمي.

إنما خلقتك لترح علي، فاتخذني بدلاً من كل شيء، فإني ناصر لك من كل شيء^(١).

ما الذي أراده القرآن الكريم من حقيقة التكريم؟

إن بيان القرآن لهذه الحقيقة يستهدف:

١- تأسيس هذه القاعدة الأساسية التي تبنى عليها كل القوانين والأنظمة والتشريعات حتى الدين نفسه وهي كرامة الإنسان التي هي فوق كل شيء وأي قانون أو تشريع يتعارض مع هذا الأصل أو يتنافى مع حقوق الإنسان التي وهبها الله تعالى لبني آدم يجب أن يلغى أو يُعدّل.

٢- إلفات نظر الإنسان إلى عظمة مكانته عند الله تعالى وما حباه الله من نعم ليحترم نفسه ويحافظ على طهارتها ونقاؤها ولا يبيعها بثمن بخس، في الحديث الشريف: من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته^(٢).

فالتفات الإنسان إلى هذه الحقيقة يعطيه الثقة بنفسه ويعينه على الثبات والاستقامة، وهذه من الوسائل المهمة في التربية الصالحة.

٣- لا تخلو الآية من عتاب للإنسان على تمرده وعصيانه على ربه الذي أكرمه بأفضل ما يكون الإكرام وأغدق عليه من النعم حتى صار الإنسان يقيّم ربه على أساس ما يعطيه من نعم مادية [فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ] الفجر: ١٥-١٦).

(١) ميزان الحكمة: ٣٣٤/١.

(٢) نهج البلاغة: ج ٤، ح ٤٤٩.

ليس للإنسان أن يتنازل عن كرامته:

وهذه الكرامة للإنسان هبة من الله تعالى وإن الإنسان قد يحافظ عليها ويعطيها حقها، وقد يستخف بها ويتنازل عنها قال تعالى: [وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ] (الحج: ١٨) لذا على الإنسان أن يحفظ كرامة نفسه وأن يحفظ كرامة الآخرين بنفس الدرجة، فليس له أن يتنازل عن كرامته أو أن يذل نفسه أو أن يتخلى عن حقوق الإنسانية، في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (إن الله تبارك وتعالى فوّض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه) وعنه عليه السلام قال: (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه) ف قيل له: وكيف يذل نفسه؟ قال عليه السلام: (يتعرض لما لا يطيق) وفي رواية أخرى (يدخل فيما يُعتذر منه)^(١).

ويوصينا الأئمة عليهم السلام دائماً بحفظ كرامتنا وعزتنا والترفع عن فعل ما ينافيهما وإن بدا محبباً إلى النفس وموافقاً للشهوات، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (أكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقطت إلى رغبة، فإنك لن تعترض بما تبذل من نفسك عوضاً، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً)^(٢).

لكي تكون الحياة كريمة:

إن كرامة الإنسان تتوفر بتمتعته بحقوقه في الحياة من الحرية والأمن والاستقرار والرفاء وسائر مستلزمات الحياة الكريمة، لكنها تكتمل بأمرين:

١- الالتزام بالدين، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (إن الله قد أكرمكم بدينه

(١) ميزان الحكمة: ٣/٣٦٤.

(٢) تحف العقول: ٧٧.

وخلقكم لعبادته، فانصبوا أنفسكم في أداء حقه^(١)، وروي عنه عليه السلام قوله: (كل عز لا يؤيده دين مذلة).

٢- طاعة الإمامة الحقّة والقيادة المنصوبة من الله تعالى بالحجة الشرعية، فقد جاء في الآية التالية لآية التكريم هذه قوله تعالى: [يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا] (الإسراء: ٧١) وهذا شاهد على ارتباط كرامة الإنسان وانسانيته باتباع الإمامة الحقّة^(٢).

وقد وصف الله تعالى عباده المكرمين بقوله: [بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ] (الأنبياء: ٢٦-٢٧) فهذه هي صفاتهم: متنزهون عن اتباع الشهوات التي تذلل الإنسان وتهينه، دائبون في طاعة الله تعالى فاستحقوا منه المقام الرفيع [يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ] (يس: ٢٦-٢٧).

(١) ميزان الحكمة: ٣٣٤/١.

(٢) روى الكليني بسنده عن علي بن الحسين عليه السلام عن ابيه الحسين عليه السلام انه اجاب رجلا سألته فقال: (أما قولك: أخبرني عن الناس، فنحن الناس ولذلك قال الله تعالى ذكره في كتابه: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) فرسول الله صلى الله عليه وآله الذي أفاض بالناس.

وأما قولك: أشباه الناس، فهم شيعتنا وهم مواليها وهم منا (وهم اشباهنا لـ خ) ولذلك قال إبراهيم عليه السلام: (فمن تبعني فإنه مني)، وأما قولك: الناس، فهم السواد الاعظم وأشار بيده إلى جماعة الناس ثم قال: (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) الكافي: ج ٨، ص ٢٤٤، ح ٣٣٩.

معنى الاعتداء على الآخرين:

إن اعتداء الإنسان على كرامة أخيه الإنسان وسلبه حقوقه تبدأ من حين تخلي الإنسان عن كرامته الشخصية واتباعه لشهواته ورضاه بعبودية نفسه الأمانة بالسوء أو طاعة غيره من العبيد، عن الإمام الهادي عليه السلام قال: (من هانت عليه نفسه فلا تأمن شره) وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (أذل الناس من أهان الناس).

دولة الإنسان ودولة القانون:

إن كرامة الناس كل الناس لا تتحقق إلا في دولة الإنسان وذلك عندما يسود القانون الكريم على يد القائد الكريم وحينما تقام الدولة الكريمة التي تحفظ للجميع حقوقهم وتقوم على أساس المبادئ الإنسانية العليا، فدولة الإنسان أسمى وأرقى من دولة القانون؛ عندما لا يكون القانون صالحاً وإنما يشرعه الناس لرعاية مصالحهم الضيقة ووفق رؤيتهم المحدودة والقصيرة، ولا يكون صالحاً إلا إذا حفظ كرامة الإنسان، لذا كان من الدعاء الذي علّمه الإمام عليه السلام لشيعته: (اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة)، أما الدولة التي لا تقوم على أسس الكرامة الإنسانية فإنها تؤول إلى تسلط الأشرار والفاستين واستعباد الناس ومصادرة حرياتهم والاستئثار بأموالهم وحرمانهم من مظاهر الحياة الكريمة.

الزهراء عليها السلام تضحي من أجل دولة الإنسان النبوية:

أيها المؤمنون الموالون:

لقد كان موقف السيدة الزهراء عليها السلام نوعياً بكل معنى الكلمة وفي مرحلة استثنائية من حياة الأمة التي قُدر لها أن تقود البشرية جميعاً، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿[آل عمران : ١١٠]، تلك المرحلة التي شكّلت فيصلاً بين خط الكرامة الإنسانية التي وهبها الله تعالى للبشر، وخط الذلة والهوان والفساد والانحراف الذي يزداد انحطاطاً كلما مرّ الزمن.

فوقفت السيدة الزهراء عليها السلام موقفها العظيم في ذلك الجو الرهيب لتحفظ كرامة الإنسان والأمة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله من الله تعالى، لكن الفترة التي قضاها النبي صلى الله عليه وآله في أمته لم تكن كافية لتطهير مجموع الأمة من رواسب الجاهلية وأغلالها وعصبيتها، وإن الأصنام المنصوبة في الكعبة وإن حُطّمت يوم الفتح، إلا أن الأصنام المصنوعة في النفس الأمارة بالسوء من التعصب والجهل والانانية كانت موجودة ومحركة لسلوكيات الكثيرين، فكان القيام الفاطمي معزّزاً بعناصر التأثير والصدمة^(١) التي أحدثتها السيدة الزهراء عليها السلام مكملاً لرسالة الإصلاح والتطهير التي أداها النبي صلى الله عليه وآله من أجل تحرير الإنسان وتكريمه. ومن أهم معالم الحياة الإنسانية الكريمة التي دافعت عنها الزهراء عليها السلام استمرار دولة الإنسان الكريمة التي أسسها النبي صلى الله عليه وآله وضمّن ديمومتها بالقيادة الربانية التي اختارها الله تعالى المتمثلة بأمر المؤمنين عليه السلام ومما قالت (سلام الله عليها) في وصف الحياة الإنسانية الكريمة في ظل هذه القيادة الإلهية وما تنعم به الأمة من بركات فيما لو انصاعوا للحق وولّوا أمير المؤمنين عليه السلام: (ولسار بهم سيراً سُجْحاً - أي سهلاً - لا يكلم حشاشه ولا يكل سائره، ولا يمل راكبه، ولأوردهم منهلاً نيراً صافياً، رويًا، تطفح ضفّته، ولا يترنق - أي يتكدر - جانباه ولأصدرهم

(١) كهيئة خروجها من المسجد وانينها وبكائها وفصاحتها في الخطاب وحججها البالغة عليها السلام.

بطاناً -أي شعبانين- ونصح لهم سراً وإعلاناً، ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل ولا يحظى منها بنائل غير ري الناهل وشبعة الكافل^(١) أي لا يبقى لنفسه شيئاً دون الأمة كالأب الرحيم الكافل للعائلة فانه يكتفي بالقوت ويعطي ما عنده لعائلته.

وبالمقابل حذرتهم من تداعيات الابتعاد عن منهج الكرامة الإلهية ومما قالت ﷺ: (وأبشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم، وبهرج شامل، واستبداد من الظالمين، يدع فينكم زهيداً، وجمعكم حصيداً، فيا حسرة لكم! وأنى بكم وقد عميت عليكم! [أَنْلَزُكُمْوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارْهُونَ] (هود : ٢٨)) فهذه هي نتائج عدم إقامة الدولة الكريمة : فتن وصراعات وهدر للأموال وفوضى عارمة واستبداد الحكام وفقدان للأمن والاستقرار والنظام.

كلامهم صدق:

أيها الأحبة:

لاحظوا المصادقية الكاملة لكلام السيدة الزهراء ﷺ فيما نعيشه اليوم وفي كل يوم، وهكذا يجب أن نتدبر في كلماتها ﷺ ونستفيد منها في معالجة مشاكلنا ووضع البرامج الصحيحة لحياتنا، أما الاختصار على ذكر مظلومية الزهراء ﷺ دون التعرض لبيان أهداف حركتها فإنه تقصير في حقها وفي فهم رسالتها المقدسة، فقد كانت (سلام الله عليها) مكّلة لدور أبيها وبعلاها (صلوات الله عليهما) في مشروع بناء دولة الإنسان التي تكون فيها القيمة العليا للإنسان وتُراعى حقوقه في كل القوانين والأنظمة والدساتير، ولا مجال فيها للاستبداد والاستثثار والتخلف

والجهل، وتحقق نصرتنا للسيدة الزهراء عليها السلام بمقدار مساهمتنا في إنجاح مشروعها العظيم.

وإننا إذ نعيش هذه المرحلة الاستثنائية في حياة البشرية وهذه الانطلاقة المباركة للعقيدة التي آمنا بها بعد قرون طويلة من القهر والاضطهاد والحصار يكون المطلوب من السائرين على نهج الزهراء عليها السلام القيام بالعمل النوعي الذي أرسى دعائمه، وعلينا أن نصنع لأنفسنا هذا الدور كالأفذاذ في كل جيل، وليس ننتظر أن يصنعه غيرنا ثم يكلفنا به، ولا يُنال ذلك إلا بتوفيق الله الكريم.

الفهرس

- مقدمة وتعريف ٥
- القبس القرآني ١ (وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ) [الأعراف : ١٥٧] القرآن نور ٩
- القبس القرآني ٢ (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) ١٧
- القبس القرآني ٣ (إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) [العلق : ١] لنكن أمة (إِقْرَأْ) ٢٧
- القبس القرآني ٤ (قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِثْلٍ شَمٍّ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) ٣٣
- القبس القرآني ٥ (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [الإسراء : ٢٣] ٤١
- القبس القرآني ٦ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) ٤٩
- القبس القرآني ٧ (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا) [يونس : ٥٨] ٥٧
- موجبات الفرح الحقيقي ٥٧
- القبس القرآني ٨ (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاجٍ) ٦٢
- القبس القرآني ٩ (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) ٧٢
- القبس القرآني ١٠ (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) [الرعد : ١١] الملائكة الحارسة ٨٥
- القبس القرآني ١١ (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بَغِيرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا) ٩٤
- القبس القرآني ١٢ (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) ٩٩
- القبس القرآني ١٣ (وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا) ١٠٤

- القبس القرآني ١٤ (وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ) [القصص : ٥] المستضعفون وخلافة الأرض ١١٢
- القبس القرآني ١٥ (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ) [التوبة: ١٠٩] تأسيس بناء الإنسان على التقوى ١٢٤
- القبس القرآني ١٦ (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) [محمد: ٧] ١٣٣
- القبس القرآني ١٧ (وَلْيَعْلَمُوا وَلِيُصَفِّحُوا أَلَّا تُحِبُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) ١٣٩
- القبس القرآني ١٨ (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا) [الأنفال : ٤٦] التنازع يؤدي الى الفشل ١٤٤
- القبس القرآني ١٩ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَهُ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ) [الرعد : ١١] ١٥٢
- القبس القرآني ٢٠ (إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) [الفرقان : ٤٤] إباحة زواج المثليين نموذجاً ١٥٩
- القبس القرآني ٢١ (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ) ١٦٥
- القبس القرآني ٢٢ (وَكَتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ) [الأعراف: ١٥٦] التوسل بالأعمال الصالحة لاستجابة الدعاء ١٧٧
- القبس القرآني ٢٣ (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ) [الأحزاب: ٢٢] التحديات التي يواجهها العراق المعاصر ١٨٣
- القبس القرآني ٢٤ (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً) ١٩٢
- القبس القرآني ٢٥ (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا) [الروم: ٥٤] اغتنم شبابك ٢٠٠

القبس القرآني ٢٦ (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) [الأعراف: ٢٠١]..... ٢٠٧

ملحق:..... ٢١٤

القبس القرآني ٢٧ (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)..... ٢٢٤

القبس القرآني ٢٨ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ)..... ٢٣٢

القبس القرآني ٢٩ (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) [الضحى: ١١] نشر ولاية أهل البيت (عليه السلام)..... ٢٣٧

القبس القرآني ٣٠ (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) [الحجر: ٩٤] إعلان الهوية..... ٢٤٥

القبس القرآني ٣١ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)..... ٢٤٩

القبس القرآني ٣٢ (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) [طه: ٤١] الصناعة الإلهية للإنسان..... ٢٦٦

القبس القرآني ٣٣ (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ)..... ٢٧٢

القبس القرآني ٣٤ (وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)..... ٢٨٢

القبس القرآني ٣٥ (إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا) [النساء: ١٠٣]..... ٢٨٩

القبس القرآني ٣٦ (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) [العنكبوت: ٤٥]..... ٢٩٧

القبس القرآني ٣٧ (وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) [الأنعام: ١٤١] بركات دفع

الزكاة..... ٣٠٥

القبس القرآني ٣٨ (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) [آل عمران: ٣٨] الحث

- على تكثير النسل ٣١١
- القبس القرآني ٣٩ (ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ) ٣٢٢
- القبس القرآني ٤٠ (وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) [مريم : ٤٨] المعنى الصحيح للاعتزال ٣٢٩
- القبس القرآني ٤١ (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ) [آل عمران : ١٧٢] الاستمرار بالعمل الرسالي رغم الصعوبات ٣٤٠
- القبس القرآني ٤٢ (وَلَا تَهْنُؤْ فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ) ٣٤٥
- القبس القرآني ٤٣ (وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) ٣٤٩
- القبس القرآني ٤٤ (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) ٣٥٦
- القبس القرآني ٤٥ (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ) ٣٦٠
- القبس القرآني ٤٦ (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء : ٦٥] الإيمان لا يتحقق إلا بتحكيم شريعة الله تعالى ٣٦٥
- القبس القرآني ٤٧ (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) ٣٧٧
- القبس القرآني ٤٨ (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) [الإسراء : ٧٠] الكرامة المطلقة للإنسان ٣٨٣